

۳۳۳

سیکولوجیجیٹ
الفکلمہ
والاضحک

بیتل
الدکتور زکریا ابراہیم

الطبعة

سيكولوجية الفكاكة والضيقات

في علم النفس

سيكولوجية الفكاهة والضحك

بقلم

الدكتور زكريا إبراهيم

الناشر

مكتبة مصر

٢ شارع كامل مدني ١

تقدير

ليأذن لي القارىء في أن أسرد عليه قصة ميلاد هذا الكتاب ...
ولنبداً هذه القصة من أولها ، فإنها قد تكشف لنا عن بعض الجوانب
الغامضة من مشكلة « الضحك » . لقد كنت أدرس لطلبة قسم
الفلسفة بجامعة القاهرة « مشكلة الموت » ، وكان محور تأملاتي في تلك
الدراسة هو المضمون الوجودي لظاهرة « التناهي » باعتبارها نسيج
الوجود الإنساني . ولم أكف منذ تلك اللحظة عن التفكير في سر
ذلك الوجود العجيب الذي هو بين الكائنات جميعاً أشدها جزءاً من
الموت ، ولكنه في الوقت نفسه أكثرها ولعاً بالتأمل في واقعة الموت ...
وشغلتنى هموم الحياة عن التفكير في الموت — فإن من نعم الحياة على
الإنسان أنها تشغله عن نفسه وعن وجوده وعدمه ، وعن موته وما بعد
موته — إلى أن محوت على الحقيقة الأليمة القاسية في مستهل هذا العام
حينما جاء الناعى يحمل إلى نأ وفاة والدي ! وكنت من قبل أستطيع أن
أفكر في « الموت » ، دون أن تزعجني بحال « فكرة الموت » ،
فوجدتني منذ ذلك الحين لا أقوى على مقاومة ذلك الدوار العنيف الذي
يستبد بي كلما حاولت التفكير في « الموت » . وهكذا أقلمت عن

الكتابة في « الموت » ، وبقيت تأملاتي السابقة أفكاراً مبعثرة تطويها
وريقات صفراء هيبات أن ترى النور !

ولجأة وجدتني أمسك بالقلم لكي أعالج مشكلة « الضحك » !
وكان قد عهدَ إليّ بتدريس مادة « علم النفس الاجتماعي » لطلبة قسم
الدراسات الاجتماعية ، فاحتلتُ « سيكولوجية الفكاهة والضحك »
الجانب الأكبر من محاضراتي ، وكأنما كان « الضحك » هو الموئل
الذي اهدت إليه نفسي بعد أن عصفت بها رياح المقادير . ولم يخاطر على
بالي عندئذ أن أفكر في العلاقة بين « الضحك » و « الموت » ،
ولكن من المؤكد أن لاشعوري الدفين لا بد أن يكون قد وجد في
« الضحك » بلسمًا شافيا لنفس حزينة فجعا القدر في أعز مخلوق لديها .
واليوم إذ أفكر في الدافع الخفي الذي حدا بي إلى دراسة ظاهرة
الفكاهة ، لا أجد أية غرابة في أن تكون « فكرة الموت » نفسها هي
التي أنبتت في ذهني « فكرة الضحك » . وهل كان الضحك إلا
اختراعاً بشرياً تفتق عنه ذهن ذلك الموجود المتناهي الذي يعرف أنه لا محالة
ذائق الموت ؟ لقد أرادت الطبيعة لهذا « المخلوق الناطق » أن ينوء بهم
الموت ، وكأنما هي قد أرادت أن تكون « فكرة الموت » هي الضريبة
الفادحة التي يدفعها الإنسان ثمنًا لنعمة العقل الذي اختصته به دون غيره .
من الموجودات ، فكان لا بد لهذا الموجود الناطق الشقي أن يجد

علاجاً لفكرة الموت ، ومن ثم فقد كان « الدين » ، وقد كان
« الضحك » !

ولسنا نزعم أن فكرة الموت هي الكفيلة وحدها بتفسير ظاهرة
الضحك ، وإنما نحن نعتقد أنه ليس من قبيل الصدفة أن يكون الإنسان
هو « الحيوان الناطق » ، وأن يكون في الوقت نفسه هو « الحيوان
المتدين » ، وهو « الحيوان الضاحك » . — يقول أحد الباحثين
المعاصرين : « إنه لا وجود للضحك في الطبيعة : فإن الأشجار
لا تضحك ، والحيوان لا يعرف الضحك ، والجبال لم تضحك يوماً ...
وإنما يضحك البشر ، والبشر وحدهم ! ولا يقتصر الضحك على الكبار ،
بل إن الأطفال ليضحكون ، حتى قبل أن يكونوا قد تعلموا الكلام ...
فالضحك ظاهرة إنسانية ، أو هو فضيلة قد اختص بها البشر ؛ وربما
يكون الله قد جاد بها عليهم ، حتى يُعزّيهم عما لديهم من ذكاء وقدرة
عقلية . » ^(١) — أما نحن فإننا نقول : إن « الضحك » هو العلاج
الناجم الذي ابتكره عقل موجود مفكر يدرك اللانهاية ، ولكن ثورقه
فكرة « العدم » ، ويرين عليه حصار « الموت » ، وتقض مضجعه بين
حين وآخر أشباح « الفناء » ! ... والواقع أنه حينما نحوم حولنا أشباح
الموت البغيضة المزعجة ، فإن « الضحك » سرعان ما يجيء بمصاه

السحرية لكي يبدد تلك الهواجس الكثيرة ، باعثاً فيما حولنا جواً انطلاقاً ملؤه اللهو والعبث واللاواقعية . وعندئذ لا يلبث العالم الذي نعيش فيه أن يصبح حلماً لا حقيقة له ، وكأن مشاغلنا وآلامنا وهمونا إن هي إلا أضغاث أحلام ! « فالكوميديا » — كما سنرى — دواء مطهر يزيل من النفس أدران الهم والقلق واليأس والحقد والتشاؤم ، حتى لقد يصح أن نتحدث عن ضرب من « التطهير الكوميدي »^(١) .

وهذا نيتشه فيلسوف الحياة الخصب العريقة ، والإرادة القوية المنتصرة ، يتحدث عن الضحك فيقول : « إنني لأعرف تماماً لماذا كان الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يضحك : فإنه لما كان الإنسان هو أعمق الموجودات ألماً ، فقد كان لابد له من أن يخترع الضحك ! . وإذن فإن أكثر الحيوانات تعساً وشفاءً ، هو — بطبيعة الحال — أكثرها بشاشة وانسراحاً »^(٢) . — ويعود نيتشه فينادي على لسان نبيه زرادشت قائلاً : « لقد أثبت لكم بشرعة الضحك ، فيا أيها « الإنسان الأعلى » تعلم كيف تضحك ! » أما لورد بيرون فإنه يقرن الضحك

(١) « *Catharsis Comique* » بالمعنى الأرسطاطاليسي لهذه الكلمة التي

تعني الاستبعاد والطرْد والتطهير .

Cf. Charles Lalo: « *Esthétique du Rire*, » Flammarion, Paris, 1949, p. 163.

(٢) نيتشه « إرادة القوة » ، الفقرة ٩١

(F. Nietzsche: « *Will to Power* », § 91.)

بالبكاء حين يقول : « ما ضحكت لمشهد بشري زائل ، إلا وكان نضحى
بديلاً أستعين به على اجتناب البكاء » ! . والحق أن الابتسام والضحك
والبشاشة والمرح والفكاهة والمزاح والدعابة والهرزل والنكته والملحة
والنادرة والكوميديا إن هي إلا ظواهر نفسية من فصيلة واحدة ، وكلها
إنما تصدر عن تلك الطبيعة البشرية المتناقضة التي سرعان ما تمل حياة
الجد والصرامة والعبوس ، فتلتبس في اللهو ترويحاً عن نفسها ، وتبحث
في الفكاهة عن منفذ للتنفيس عن آلامها ، وتسعى عن طريق النكته
نحو الهرب من الواقع الذي كثيراً ما يشغل كاهلها .

وقد استثارت ظاهرة الضحك من قديم الزمان اهتمام الفلاسفة
وعلماء النفس ، فعنى بدراستها كل من أفلاطون وأرسطو وشيرون
وديكارت واسبينوزا وهوبز ولوك وفولتير وكنت وهيغل وشوبنهاور
واسبنسر ورنوفيه وبرجسون وفرويد ومكدوجال وهوفدنج وغير هؤلاء .
وليس في وسعنا أن نأتى في هذا الكتاب على تاريخ مفصل لتطور
النظريات الفلسفية والسيكولوجية في تحليل الضحك ، ولكننا سنعرض
لدراسة هذه الظاهرة في ذاتها مع الإشارة بين الحين والآخر إلى بعض
النظريات التي قد تعيننا على فهم الدلالة الإنسانية للضحك بصفة عامة .
وليس يكفي لمثل هذه الدراسة أن تقف عند حد تحليل الضحك ،
أو تحديد العوامل الاجتماعية المؤثرة على نموروح الفكاهة ، أو التعرض

للبحث في صميم الوظيفة النفسية التي تقوم بها الفكاهة في حياة الأفراد والجماعات ، وإنما لا بد لها أيضاً من أن تمتد إلى وصف وتصنيف شتى الاتجاهات الذهنية التي ترتبط في العادة بهذه الظاهرة السيكوفسيولوجية المعقدة .

ولما كان المنهج التجريبي قد أصبح هو المنهج السائد في شتى ميادين علم النفس الحديث ، فقد حاول بعض الباحثين الاستعانة بطرق التجريب المتنوعة في دراسة مظاهر الفكاهة والضحك عند الأطفال والبالغين ، والعمل على تحديد شتى العوامل النفسية التي تدخل في تركيب المواقف المزلية لدى كل جماعة من الجماعات . — حقا إن المنهج التجريبي لم يسمح لنا حتى الآن بأن نقف على الطبيعة الدفينة لظاهرة «الضحك» في جانبها الفسيولوجي والسيكولوجي ، ولكن من المؤكد أن التجارب العديدة التي قام بإجرائها الكثير من رواد علم النفس الحديث قد أسهمت إلى حد كبير في الكشف عن طبيعة العمليات السيكولوجية التي تستلزمها صياغة النكتة ، وتذوق الفكاهة ، والاستجابة للمنبهات المضحكة .. الخ. وقد اتخذ التجريب في هذا المجال طابع الاستفتاء أو الاستخبار ، فأصبح الباحث يقدم إلى المختبرين طائفة من المنبهات الفكاهية (سمعية كانت أو بصرية) ، ويطلب إليهم أن يقوموا بترتيبها ترتيباً تنازلياً على أساس حفظها من الفكاهة ، أو أن يعطوا كلاً منها درجة تناسب مع

مدى تقديرهم لها بالاستناد إلى معيار محدّد سافاً . وهكذا ظهرت مجموعات غير قليلة من « استخبارات الفكاهة » ، وحرص بعض الباحثين على صياغة نتائج استخباراتهم في صور إحصائية ، بينما حاول آخرون أن يصوغوا ما تنطوى عليه تلك النتائج من مدلولات نفسية واجتماعية على شكل نظريات فلسفية في شرح ماهية الضحك ، وتحديد مضمون الروح الفكاهية — . كذلك اتجه بعض المشتغلين بدراسة الفكاهة إلى الاستعانة بالرسم ، فكان يطلب إلى المختبرين (من بين الأطفال على وجه الخصوص) رسم بعض الأشكال المضحكة أو الصور الهزلية ، كما كان يعرض عليهم بعض الرسوم الكاريكاتورية بقصد معرفة مدى إدراكهم لما فيها من عنصر هزلي . ولما كان كثير من علماء النفس قد أجمعوا على اعتبار « الروح الفكاهية » سمة من السمات الشخصية الهامة ، فقد كان من الطبيعي أن تتجه الدراسات التجريبية نحو قياس هذه السمة الشخصية الهامة .

ولا شك أن هذه التجارب جميعاً — مهما اختلفت صورها وتعددت مراميها — إنما هي أدوات علمية يُقصد من ورائها الانتقال بالمسألة من المجال النظري الفلسفي المحض ، إلى المجال التجريبي التطبيقي البحت . وهكذا أصبح الباحثون في علم النفس التجريبي يهتمون بدراسة الفروق الفردية القائمة بين الأفراد من حيث مدى إقبالهم على الفكاهة

أو عزوفهم عنها ، وصاروا يُقدّمون على البحوث النظرية في تحليل الضحك ، دراساتهم الجزئية في تحديد العلاقة بين الفكاهة والذكاء ، أو بين الضحك والمزاج الشخصى ، أو بين النكتة والظروف الاجتماعية ، أو بين الروح الفكاهية وطبيعة كل شعب . . . الخ . وليس فى وسعنا — بطبيعة الحال — أن نلمّ فى هذه العجالة القصيرة بكل تلك البحوث العلمية الدقيقة التى تعرّض أصحابها لحصر هذه العوامل النفسية والاجتماعية العديدة ، أو يبان تلك الفروق الفردية والجماعية الكثيرة ، ممّا يعمل عمله فى إشاعة روح الفكاهة بين الناس ، أو فى تمييز الأفراد والجماعات من حيث مدى إقبالهم على الضحك ؛ وإنما حسبنا أن نشير هنا وهناك إلى بعض التجارب الهامة التى قد تعيننا على فهم التفاعل الديناميكي الذى يتمّ بين الفرد والمجتمع فى دائرة الفكاهة والضحك (كما يتمّ فى غيرها من دوائر حياتنا العادية) . — وسنرى فى ختام هذا الكتيب إلى أى حدّ يمكن القول بأن الضحك يؤدّى فى حياة الأفراد والجماعات وظيفة نفسية هامة من وظائف الاتزان العاطفى ، وكيف أنه السبيل إلى تحقيق ضرب من التكامل النفسى — الاجتماعى .

المصطلح الأول

بين الابتسام والضحك

١ — إذا التقيتَ بشخص في الطريق فإنك تحييه عادة بابتسامة مهذبة ، وإذا شممت زهرة نضرة عطرة فإنك قد تعرب عن ارتياحك لعبيرها الحلو بابتسامة عذبة ، وإذا وجدت نفسك في مأزق حرج فإنك قد تحاول تغطية الموقف بابتسامة متكلفة ، وإذا أدى إليك شخص غريب خدمة لم تكن منتظرة فإنك قد تعرب له عن شكرك بابتسامة رقيقة تتضمن الاعتراف بالجميل ، وحينما تتعرف إلى فتاة مليحة في بلد أجنبي تجهل لغة أهله فإنك قد تفصح لها عن ودك بلغة الابتسام . . . الخ
فما هي العلاقة إذن بين كل تلك الأنواع المختلفة من الابتسام ، وما هو المضمون السيكولوجي لتلك اللغة الإنسانية النوعية التي نسميها بلغة الابتسام ، ثم ما هي العلاقة بين الابتسام والضحك ؟

هنا نجد أن الرأي الذي قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو أن الابتسام وسيلة من وسائل « الاتصال الاجتماعي » ، بمعنى أنه ضرب من « التعبير » الذي يفصح به الموجود الفرد عن رغبته في إقامة بعض الروابط بينه وبين غيره من الأفراد . وآية ذلك أنه حينما يشعر الفرد بضرب من الخجل أو الحياء ، لعجز ما في قدرته اللغوية ، مما قد يحول

بينه وبين صياغة أفكاره صياغة لفظية واضحة ، فإنه قد يعمد إلى الابتسام في وجه محدثه بدلاً من مجاذبته أطراف الحديث ؛ وهو قد يبالغ أحياناً في ابتساماته حتى تبدو تلك الظاهرة لديه بمثابة حالة شاذة غريبة . ولكن ألا يحدث أحياناً أن يتسم المرء بعد أكلة شهية ، أو عند قراءته لنادرة طريفة ، أو حينما يرى مشهداً جميلاً حتى ولو كان بمفرده ؟ إن بعضاً من الباحثين الذين عنوا بدراسة الأصل في ظاهرة « الابتسام » ليأخذون بمبادئ التطوريين في « الانتخاب الطبيعي » فيقولون إن عملية الرضاعة عند الطفل الصغير هي التي عملت على ظهور « الابتسام » باعتبارها علامة على « الشهية المُشبَّعة » . ولكننا نلاحظ أن صغار الحيوانات ترضع كصغار البشر تماماً ، ومع ذلك فإنها لا « تتبسم » ... والظاهر أن الربط بين عملية « الابتسام » وعملية فتح الفم للرضاعة (أو امتصاص اللبن) قد لقي قبولاً حسناً من جانب بعض علماء التحليل النفسي ، لأنهم وجدوا في هذا التأويل تأييداً لنظرية فرويد في أهمية « المرحلة الفمية » *Oral Stage* لدى الطفل باعتبارها المرحلة الأولى من مراحل تطوره النفسي بصفة عامة ، والجنسي بصفة خاصة .

أما التفسير الثاني لنشأة ظاهرة « الابتسام » فهو الذي يقول أصحابه إن الأصل في الابتسام هو فتح الحيوان الصائد لفمه تأهباً لابتلاع الفريسة التي وقعت بين براثنه ! وقد يكون من بعض مزايا هذا التفسير

أنه يربط بين وظائف الصراع من أجل البقاء وعمليات القنص ومطاردة الفريسة من جهة ، وبين ارتياح الحيوان لبلوغ مقصده ، وفتحه لقمه من أجل تذوق الفريسة التي ظفر بها من جهة أخرى . ومن هنا فإن الباحثين الذين يأخذون بهذه النظرة إنما هم في العادة أولئك الذين يربطون بين الضحك وظاهرة التفوق أو الانتصار ، فيقولون بأن الابتسامة قد اقترنت في البدء بتغلب الإنسان الأول على غريمه ، أو تفوقه على الخصم بعد عملية مبارزة جسدية بدائية .^(١)

ولكن ألا يفهم من النظريتين السابقتين في تفسير نشأة « الابتسام » أن الأصل في هذه الظاهرة هو أنها تعبير عن الشعور بالرضا أو الارتياح ؟ إن هذا هو فيما يظهر رأى معظم الباحثين بدليل قول أحدهم إنه « كما أن الكلب المسرور يهز ذيله ، فإن الإنسان المنشرج يحرك فكّه » ! ولكننا نخطئ إذ نظن أن الابتسام والضحك تعبيران تلقائيان عن الارتياح أو الرضا أو الانشراح ، فقد نبه بعض الباحثين إلى ضرورة دراسة أمثال هذه الانفعالات في داخل الإطار الحضارى العام لكل مجتمع من المجتمعات على حدة ، مع مراعاة نوع الآداب العامة التي تتطور في محيطها كل تلك الانفعالات . وآية ذلك

Rapp: «A phylogenetic theory of wit and humour»; (١)
in «Journal of Social Psychology», 1949, vol. XXX.,
pp. 81—96.

أن الابتسامة في اليابان — مثلاً — لا تخرج عن كونها مجرد تعبير وجهي قد اصطلح عليه اصطلاحاً ، بحيث أن آداب الضيافة عند اليابانيين لتقضى عليهم بالآلا يتجاوزوا بحال حدّ الابتسام في حضرة شخص غريب . وعلى العكس من ذلك ، نرى أن الآداب العامة لتقضى على الواحد منهم ، حتى حينما تلمّ به محنة أو كارثة ، بأن يضع على وجهه ابتسامة مصطنعة تكون بمثابة « قناع السعادة » ، خشية أن يُتهم بأنه يريد أن يزيح الأحران من فوق كتفيه لكي يلقى بها على أكتاف الآخرين !

٢ — فإذا ما تساءلنا الآن عن العلاقة بين « الابتسام » و « الضحك » ، وجدنا أن الغالبية العظمى من الباحثين تميل إلى القول بأن البسمة « مشروع ضحكة » ، وأن من شأن الابتسام بطبيعة الحال أن يستحيل إلى ضحك . ونظراً للأصل الاشتقاقى لكلمة « الابتسام » *Sourire* في اللغة الفرنسية مثلاً ، فقد قال بعضهم إن الابتسام هو ما دون الضحك *un sous-rire*^(١) . ومعنى هذا أن الابتسامة هي الظاهرة التي تسبق الضحكة ، أو هي ضحكة صامتة سرعان ما تتخذ صبغة مافرة بمجرد ما تزداد شدة المنبه الفكاهي . ولكن ثمة باحثين آخرين — ومنهم ديمون *Léon Dumont* في فرنسا ، ووليم مكديوجال

Marcel Pagnol : «Notes sur le Rire», Paris, (١)

Nagel, 1947, p. 89.

W. MacDougal في إنجلترا — يميلون إلى القول بأن الابتسامة تختلف عن الضحكة ، لا من حيث الدرجة لحسب ، وإنما من حيث الطبيعة أو الوظيفة أيضاً . وهنا يميز مكدوجال بين الابتسامة والضحكة على أساس الجلال والقبح ، فيقول إن الأولى منهما جميلة ، بينما الثانية دمية ا ويستطرد مكدوجال فيقول إن الشخص السعيد حقاً لا يضحك ، إذ لا حاجة به إلى الضحك ، ولكنه قد يتسم . وعلى الرغم من أن معظم الكتاب الذين عرضوا للدراسة الضحك قد افترضوا — دون مناقشة — أن الابتسامة والضحكة شيء واحد ، أوهم على الأقل قد اعتبروا الابتسامة بمثابة «ضحكة جزئية ابتدائية» *Partial, Incipient* ، إلا أن مكدوجال يدعو إلى التفرقة بينهما ، على أساس أن الابتسامة (لا الضحكة) هي التعبير الطبيعي عن الرضا الذي يصاحب نجاح أى مسعى . فالظافر أو المنتصر يتسم ابتسامة الظفر أو النصر أو الغلبة ، ولكنه لا يضحك . والأم حينما تتأمل طفلها السليم البنية المكتمل الصحة قد تبسم ، ولكنها لا تضحك . ونحن نبسم حينما نتوصل — بعد لآى — إلى الكشف عن سرّ طال بنا الأمد في البحث عنه ، أو حينما نهتدى — بعد جهد — إلى حلّ مشكلة طالما سهرنا الليالى في سبيل العمل على حلّها . ونحن نبسم أيضاً حينما نتطلع إلى أى عمل متقن فرغنا من أدائه ، بعد أن كنا منهمكين أمداً طويلاً من الزمن

(٢ — سيكلوجية)

في العمل على إنجازها ؛ بل اننا قد نبسم لجرّد توقعنا للنجاح أو انتظارنا له .
— أما إذا تساءلنا عن السبب الذي من أجله كثيراً ما تنهى ضحكنا
بابتسامة ، كان ردّ مكدوجال على هذا التساؤل أن من شأن الضحك —
مثله في ذلك كمثل غيره من مظاهر النشاط الموفّق أو الناجح — أن
يؤدّد الشعور بالرضا ، وهو الشعور الذي رأينا أنه لا يترجم عن نفسه
إلاّ بلغة الابتسامة^(١) .

يبد أن نظرية مكدوجال في التفرقة بين الابتسامة والضحكة تنامي
أن الابتسامات على أنواع ، وأنه ليس في وسعنا أن نقول إن كل ابتسامة
لا بدّ من أن تحمل معنى الظفر أو الانتصار . وآية ذلك أن هناك ابتسامة
الملاطفة ، وابتسامة التشجيع ، وابتسامة التحريض ، وابتسامة السخرية ،
وابتسامة الإغراء ، كما أن هناك الابتسامة المتكلّفة ، والابتسامة
المكتومة ، والابتسامة المهذّبة ، والابتسامة الصفراء ... الخ . وقد أصبح
في وسع الإنسان الحديث أن يضع الابتسامة على وجهه كما يضع القبعة
على رأسه ، وذلك لمواجهة المواقف الاجتماعية التي تستلزم الابتسام
(كالمرءوس الذي لا بدّ من أن يحثي رئيسه بابتسامة مصطنعة) . وهذا
ما عبّرنا عنه في موضع آخر حينما كتبنا نقول : « وحتى ابتسامتنا نفسها
قد تصبح مجرد « استجابة آلية » تؤدّي وظيفة اجتماعية معينة ، وكأنما

W. Mc Dougal : «Outline of Psychology», (١)
Methuen, London ,1923, p. 166-7.

هى مجرد ردّ فعل آلى على بعض المنبهات الخارجية ، وبالتالى فإنها لا بد من أن تفقد فى هذه الحالة معناها الشخصى الوجدانى ، ما دام معيها الحقيقى قد نضب^(١) . والواقع أن العلاقة وثيقة بين الابتسام والمواقف الاجتماعية ، خصوصاً وأن « الابتسامة » فى بعض المجتمعات المتحضرة قد أصبحت بمثابة تعبير اصطلاحى عن الأدب والنوق وحسن المعاملة ، أو عن الود والصدقة وحسن النية ؛ حتى أن الشخص الذى لا يتسم للآخرين ، حين ينبغى أن يلقاهم بابتسامة ، قد يتسبب فى إحداث جفوة بينه وبين غيره من أفراد الجماعة . كذلك أصبح أصحاب المحلات الكبرى فى كثير من البلدان ، يراعون عند اختيارهم للبائعين والبائعات ، أن يكونوا قديرين على الابتسام ، حتى يشجعوا العملاء على ارتياد محلاتهم والإقبال على مشترياتهم ، فإن من شأن « الابتسامة » أن تخلق جوّاً اجتماعياً ماؤه التعاطف والمشاركة بين البائع والمشتري . وهكذا تكتسب « الابتسامة » صبغة اجتماعية باعتبارها أداة لتحقيق ضرب من « التعاطف » بين الأفراد .

وإن الأفراد يختلفون من حيث مدى قدرتهم على الابتسام : فإن ثمة وجوهاً هى بطبيعتها باسمة ، بينما هناك وجوه أخرى هى بطبيعتها

(١) ذكرى إبراهيم : « مشكلة الحرية » (ضمن مجموعة « مشكلات ليلية ») ، مكتبة مصر ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٢٢٨ .

عابسة . والوجه الباسم كثيراً ما يكون بمثابة « خطاب توصية مفتوح » لصاحبه ، بينما الوجه العابس كثيراً ما يجلب لصاحبه المتاعب من حيث يدري أو لا يدري ! وقد كان ميلتون يقول : « إن معين البسمات هو العقل ، فما استطاع الرجل الفظّ الجاهل أن يتسم يوماً » أما اللورد شترفيلد *Chesterfield* فقد كان ينهى أبنائه عن الضحك العامي المبذل قائلاً لهم : « لست أحب أن يراكم الناس إلا مبتسمين ، ولكنني لا أحب أن يسممكم الناس ضاحكين ! » والبسمة هنا علامة الأرستقراطية المترنمة ، بينما الضحكة هي دليل على الضعة والعامية والابتذال ! ولعل من هذا القبيل أيضاً ما يروى عن الملك فيليب الثالث من أنه لم يضحك طوال حياته اللهم إلا مرة واحدة (ولو أنها كانت ضحكة ملكية تليق بجلالته ، فقد ضحك عند قراءته لرواية دون كيشوت *Don Quichotte*)^(١) ولكن مهما كان من أمر هذه التفرقة « الطبقيّة » بين الابتسام والضحك ، فإن من المؤكّد أن الابتسامة قد تحمل المعنى الضمني الذي تحمله الضحكة في الأحوال العادية ، ولو أننا هنا قد نكون بإزاء رغبة إرادية في كتمان الضحك أو الاستعاضة عنه بيدل أقل نفقة ، فتكون الابتسامة بمثابة « ضحكة اقتصادية » *Rire Économique* « يوفر فيها المرء على نفسه بعض الطاقات التي تُستنفد عادة في التهفئة العالية

Cf. Ch. Lalo: *«Esthétique du Rire.»* Flammarion (١)
1949, pp. 63-64.

المرتفعة ! وهكذا تكون الابتسامة في مثل هذه الأحوال بمثابة تعبير عن حرية الفرد وسيطرته على نفسه ، إذ يكون لسان حال الفرد هنا هو كتمان الضحكة حتى لا تُذيع سرّه إلى الآخرين ! ولعل هذا هو ما عناه أحد الباحثين حينما وصف الابتسامة بقوله « إنها ضحكة يبتن فيها المرء أنه ليس من الحفاقة بحيث يضحك »^(١) ! ومعنى هذا أن الشخص الذى يتسم — حينما تعلو قهقهات الآخرين من حوله — إنما هو الشخص الذى لا يحب الظهور ، أو الشخص الذى لا يرى داعياً لأن يضحك حتى يثبت لنفسه أنه يضحك ! وبينما يطيب للكثيرين أن يروا أنفسهم ضاحكين ، أو أن يستمعوا إلى أنفسهم مقهقهين ، نجد أن الرجل الحكيم يتمتع بميزة « التوقف عن الضحك » في مواقف كثيرة لا يملك غيره يلازمها سوى أن ينفجر ضاحكاً ! ومن هنا فقد اعتاد الناس أن يضعوا في مقابل الرجل العاقل المبتذل الذى يضحك لأتفه الأسباب ، ذلك الحكيم العاقل الذى يملك القدرة على كتمان الضحك أو التحكم فيه أو السيطرة عليه .

والواقع أن الجماعة تميل إلى الحدّ من روح الهزل والمزاح لدى الأفراد ، فتراها تعمل في كثير من الأحيان على وقف الضحك عند حدّه ، أو الاستعاضة عنه بيدل أقل خطورة منه ألا وهو الابتسام .

F. Jeanson : «Signification humaine du rire.» (١)
Paris, Seuil, 1960, p. 178.

وقديماً قال أبو حسن البصرى : « وأما الضحك فإن اعتياده شاغل عن النظر في الأمور المهمة ، مذهب عن الفكر في النوائب الملمة ؛ وليس لمن أكثر منه هية ولا وقار ، ولا لمن وسم به خطر ولا مقدار » ^(١) وآية ذلك أنه كلما تقدم المرء في السن ، بل كلما زادت هيئته وعلا مقامه ، فإنه يلج في طلب الجد والصرامة ، ويميل إلى قمع قهقهات الضاحكين في حضرته ، وينزع نحو التحكم في صميم بسماته ! وكثيراً ما يأخذ الرؤساء بالقاعدة القديمة التي تقول : « من كثر ضحكه قلّت هيئته » فترام يأخذون مرءوسيهم بأساليب الجد والصرامة ، وينكرون عليهم كل حق في الإفصاح عن شعورهم بضحكة أو ابتسامة ! وهنا تتدخل العوامل الحضارية في الموقف فتطالب المرء بأن يكون مالكا لزام نفسه ، متحكماً في ضحكاته وبسماته ؛ وتفرض عليه أن يعمل على وضع انفعالاته جميعاً تحت سيطرة إرادته . وقد تشدد حكام العرب في النهي عن الضحك الكثير المبتذل ، فقال قوم منهم : « ليكن بدل الضحك عند الإنسان تبسماً وبشراً . . . فإن التبسم دعابة وهذا أبلغ في الإنسان من الضحك الذي قد يكون استهزاء وتعجبا ؛ وليس ينكر منه المرة النادرة لطارىء استغفل النفس عن دفعه . هذا رسول الله صلى الله عليه

(١) كتاب « أدب الدين والدنيا » لأبي حسن البصرى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٥ ، (الطبعة السادسة عشرة) ، الفصل الخامس « في ازراح والضحك » ، ص ٢٨٥ .

وسلم وهو أملك الخلق لنفسه قد يتسم حتى بدت نواجذه ، وإنما كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى ذكرناه^(١) .

٣ — فإذا ما انتقلنا الآن إلى دراسة الابتسام عند الطفل ، وجدنا أن علماء النفس ليسوا متفقين فيما بينهم على تحديد تاريخ الابتسامة الأولى للطفل ، نظراً لاختلافهم فى تحديد السمات المميزة للابتسامة الحقيقية ، وإن كانوا قد حصروا تاريخ تلك الابتسامة فى المدة ما بين الأسبوع الأول أو الثانى من حياة الطفل والشهر الثانى أو الثالث من عمره . وقد أجمع الباحثون على أن الابتسام يظهر لدى الطفل قبل الضحك ، بدليل أن تاريخ الضحكة الأولى للطفل يتراوح بين ثلاثة أسابيع وستة أشهر (أو أكثر) ، أى فى سن متأخرة نسبياً بالقياس إلى تاريخ أول ابتسامة له . . ولكن الملاحظ بصفة عامة أن بعض الأطفال أسرع إلى الابتسام والضحك من غيرهم ، كما أن الطفل الذى يتسم فى سن مبكرة غالباً ما يضحك أيضاً فى سن مبكرة . ولما كان فم الطفل فى الأشهر الأولى من عمره كثيراً ما يظل فى شبه حركة مستمرة ، فإن الوالدين كثيراً ما يتوهمان أن طفلهما « يتسم » بسبب هذه الحركات التلقائية المرتسمة على شفثيه . ولكن بعض علماء نفس الطفل يقررون أن العلامة

(١) كتاب « أدب الدين والدنيا » لأبى حسن البصرى ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٥ ، (الطبعة السادسة عشرة) ، الفصل الخامس « فى المزاج والضحك » ، ص ٢٨٥ .

اليقينية الممثلة للابتسامة الحقيقية عند الطفل إنما هي بريق الصنينة الذى يصاحب انفراج الأسارير حينما يهش الوالدان فى وجه طفلهما . — ومعنى هذا أن الابتسامة الأولى للطفل إنما هي تلك التى تكون بمثابة استجابة لوجه أمه الضاحك أو المعبر . وهناك باحثون آخرون يميلون إلى القول بأن الابتسامة الأولى للطفل تقتن بعملية الرضاعة وما يعقبها من شبع وارتياح ؛ وذلك لأن أسارير الطفل كثيراً ما تنفرج بعد عملية الرضاعة ، كما أن عيذه قد تنوهجان ببريق غير عادى ؛ ولو أن هاتين الظاهرتين قد اقترنا بظهور شخص الأم فى المجال البصرى للطفل فى كثير من الحالات التى شاهدها الباحثون^(١) .

وعلى كل حال ، فإن من المؤكد — كما لاحظت شارلوت بوهلر — أن عملية الابتسام عند الطفل هي أولاً وبالذات وظيفة اجتماعية ، تتولد عن سماعه لصوت بشرى أو رؤيته لوجه بشرى ، وتبدأ بصفة عامة فى الشهر الثانى من عمره . ولكن هذه الباحثة لا ترى ما يمنع من أن تقتن ابتسامة الطفل بشعور الرضا والارتياح الذى يتسبب عن الشبع والراحة ، وإن كانت الابتسامة فى هذه الحالة قد تتخذ طابعاً مختلفاً

C. W. Valentine : «The Psychology of Early Childhood» , Methuen, 1942, p. 99.

فتنفرج الشفتان إلى أعلى بشكل خاص^(١). — وسواء قلنا بأن الابتسامة الأولى للطفل هي ابتسامة تعبّر عن الشعور بالارتياح والراحة والأحاسيس السارة ، أم قلنا بأنها استجابة لابتسامة أمه التي تهش في وجهه ، فإن المهمّ هنا هو أن تعبيراً واحداً بعينه لابدّ من أن يظهر لدى الطفل في هذه السن المبكرة استجابةً لموقفين مختلفين . هذا إلى أن الشعور بالارتياح الذي يظهر لدى الطفل نتيجة لحالة الشبع والراحة الجسمية ، كثيراً ما يتزايد حينما يضاف إليه سرور الطفل لوجوده في مجتمع بشري . وسنرى فيما بعد كيف أن النموّ النفسى للطفل سرعان ما ينتقل به إلى الطور الذى يصبح فيه قادراً على الابتسام حتى حينما يكون بإزاء وجه غير مبتسم ، لكي لا يلبث الطفل أن يعتاد الابتسام حتى وهو بمفرده ، أو عند رؤيته لوجهه في المرآة ، أو عند رؤيته لكثير من المشاهد البشرية أو غير البشرية التي لا أثّر فيها للابتسام أو الضحك . ولم يحاول أحد من الباحثين حتى اليوم أن يقوم جدياً بدراسة حالات الابتسام (والضحك) لدى صغار الأطفال حينما يكونون بمفردهم تماماً .

ويأتى بمض الباحثين أن ينسب إلى ابتسامات الطفل في هذه المرحلة صبغة اجتماعية ، فيقول إن ابتسام الطفل هنا هو ضرب من اللعب

Charlotte Bühler : «The First Year of Life», (١)
New-York, 1990, pp. 62—68.

الذى يقوم به الطفل بمفرده . وحينما يتملق الآباء أنفسهم بأن يتوهموا أن طفلهم الصغير قد ابتسم لهم ، فإنهم ينسون أو يتناسون أن الطفل إنما يبتسم لنفسه وأن وجودهم إلى جواره إن هو إلا مناسبة عارضة استغلها الطفل في لعبه مع نفسه ^(١) — ولكن أليس معنى هذا أن وجود الوالدين إلى جوار طفلهما هو بمثابة مُنبّه ملائم يستجيب له الطفل في نشاطه التلقائي ولعبه الخاص ؟ فلماذا تنكر إذن على هذه الابتسامة صبغتها الاجتماعية باعتبارها وليدة اتصال بين الطفل ووالديه ؟

*F. Jeanson : «Signification humaine du Rire», (١)
Paris, Seuil, 1960, p. 109.*

الفصل الثاني

فسيولوجية الضحك

٤ — إذا كان بعض الفلاسفة قد عرف الإنسان بأنه « حيوان اجتماعي » ، فإن بعضاً آخر منهم قد عرفه أيضاً بأنه « حيوان ضاحك » . وهو قد يكون « حيواناً ضاحكاً » ، لأنه « حيوان اجتماعي » ، وإن كان بعض الباحثين يميل إلى الربط بين القدرة على الضحك والقدرة على التعبير اللغوي ، فيقول إن الإنسان « حيوان ضاحك » لأنه « حيوان مفكر » أو « حيوان متكلم » . والواقع أن عملية الكلام مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بنفس العضلات الوجهية والأجهزة النطقية التي تتركز فيها عمليات الابتسام والضحك . ولسنا نعدم بين علماء الحياة من يقرر أن الضحك ظاهرة مألوفة لدى بعض أنواع الحيوان ، فقد ذهب دارون إلى أن هذه الظاهرة ملاحظة بوضوح لدى بعض القرود العليا الشبيهة بالإنسان ، حتى أن بعض أنواع الشمبانزي تستطيع أن تفهم بصوت مرتفع كالإنسان سواء بسواء . ولكن من المؤكد أنه لما كانت الأجهزة النطقية لدى الحيوان ليست من الترقى بمثل ما هي لدى الإنسان ، فإن من الطبيعي أن تكون ضحكات الحيوان جزئية محدودة ، فضلاً عن أن معظم هذه الضحكات لا يكاد يعدو الأرجاع الفسيولوجية المترتبة على بعض

منبهات عضوية خاصة . ومع ذلك فإن دارون يؤكد أن ظاهرة الضحك عند القردة العليا تقترن بالكثير من الملاحظات ، مثل تناول الطعام ، والدغدغة ، والمداعبة الجنسية ، ومصالحه الحارس بعد خصام ... الخ^(١) .

بيد أننا إذا سلمنا مع دارون بأن الإنسان ليس هو الحيوان الوحيد الذى يعرف الضحك ، فإننا لا بد من أن نعرف بأنه الحيوان الوحيد الذى يعرف كيف يضحك الآخرون . والحق أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف النكتة ، ويستخدم الفكاهة ، ويتفنن فى خلق أسباب الضحك ، ويستعين بسلاح الدعابة والسخرية فى تعامله مع الآخرين ، ويستعمل ذكاءه فى ابتداع الروايات الهزلية ... الخ . وقد برع بعض أفراد البشر فى ابتكار النكات وإطلاق الدعابات ، وتأليف المضحك من الروايات ، حتى أصبحت مهنة إضحاك الناس حرفة لهم ، فصارت « الكوميديا » فناً حقيقياً له من القواعد الأدبية والحبكة الفنية مثل ما لغيره من الفنون اللغوية . وهكذا لمحت فى عالم الفكاهة أسماء بعض المثائين الهزليين المشهورين ، وأصبح للمجلات الهزلية قراؤها المواظبون ، وصار تأليف النكتة فناً دقيقاً يرتكز على علم بأصول منطق الضحك .

Charles Darwin: «The Expression of the (١) Emotions in Man and animals», London, Watts & Co., 1948, Ch. VIII, pp. 98—105.^٢

وحينما يقول بعض الباحثين — مثل برجسون — إن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يَضْحَكُ (بكسر الحاء) ، فإنه يعنى بذلك أننا لا نضحك لرؤية منظر أو جاد أو حيوان ، وإنما نحن نضحك فقط حينما نكون بصدد مشهد « بشرى » . وبعبارة أخرى فإن من الممكن أن يكون المشهد جميلاً أو قبيحاً ، رائعاً أو تافهاً ، مُسلياً أو مُملاً ، ولكنه لا يمكن أن يكون مُضحكاً . وأما حينما نضحك عند رؤية حيوان ، فإن كل ما هنالك أننا نلمح لديه بعض أوجه شبه مع الإنسان ، أو أننا نقرأ على قسمة وجهه ضرباً من التعبير البشرى ! وبالمثل حينما نضحك عند رؤيتنا لقبعة ، فإن ما يضحكننا فى هذه الحالة إنما هو ذلك القلب العجيب الذى استطاعت اليد البشرية أن تصوغ فيه مادة كالجوخ أو الخوص أو ما شابه ذلك . وهكذا يخلص برجسون إلى القول بأنه إذا كان فى وسع أى جاد أو حيوان أن ينافس الإنسان فى المقدرة على الإضحك ، فاذلك إلا لأن الإنسان نفسه هو الذى يطبع الجاد أو الحيوان بطابعه حينما يستخدمه لتحقيق أغراضه البشرية ؛ ومن ثم فإن الجاد أو الحيوان لا يصبح « مُضحكاً » إلا بقدر ما يشابه الإنسان أو يحاكيه . . . (١)

لهذه الأسباب جميعاً يميل الباحثون إلى القول مع رابليه بأن

H. Bergson: «Le Rire», P. U. F., Paris, 67^e éd., (١)
1946, pp. 2—3.

« الضحك هو من أخصّ خصائص الموجود البشري »^(١) . وقد فطن المفكّرون من قديم الزمن إلى العلاقة الوثيقة التي تربط الضحك بالمقدرة اللغوية والنشاط الذهني والقدرات الحركية والميول الاجتماعية والنزعات العدوانية (مما هو أظهر لدى الإنسان منه لدى أى كائن آخر) فقالوا بأن الضحك ظاهرة بشرية محضة . وهذا ما أراد بودلير أن يعبر عنه في مقاله المشهورة حينما كتب يقول : « لو قُدِّر للبشر أن يزولوا تماما من الخليقة ، لما بقى موضع للكوميديا في هذا العالم ، لأن الحيوانات لا تعتقد في نفسها أنها أسمى من النباتات ، كما أن النباتات لا تظن في نفسها أنها أرقى من الجمادات »^(٢) ومعنى هذا أن الإنسان — في نظر بودلير — هو الحيوان الوحيد الذي يضحك لأنه الحيوان الوحيد المغرور المتكبر الذي يظن في نفسه أنه سيّد الخليقة ! فهل يكون الطابع البشري الذي تتميز به ظاهرة « الضحك » ، ذريعة لإهمال الجانب الحيواني النفسيولوجي الذي تنطوى عليه هذه الظاهرة السيكلولوجية ؟ أو هل يكون من حقنا أن نعدّ الضحك ظاهرة نفسية بحتة ، وكأن لا أهمية البتة لكل تلك الانقباضات العضلية التي تصاحب الأثر السارّ الذي تخلفه في نفوسنا

« Pour ce que rire est le propre de l'homme. » (١)
(Rabelais)

Cf. Ch. Baudelaire : « Curiosités esthétiques », De (٢)
l'essence du rire, Calmann-Lévy, Paris, 1884, Tome II ,
pp. 367 — 370.

النكتة أو الملمحة أو الفكاهة ؟ — الظاهر أن هذا هو الاتجاه الذى سيطر على بحوث الكثير من الفلاسفة وعلماء النفس ، بدليل أننا لانكاد نجد فيها كتبه برجسون أو فرويد عن الضحك أى اهتمام بإثارة المشكلة الفسيولوجية التى تنطوى عليها « سيكولوجية الضحك » ؛ وهكذابقى الضحك فى نظر هؤلاء ظاهرة نفسية أو اجتماعية بحتة ، ولم يوضع الجانب الفسيولوجى فى هذه الظاهرة موضع البحث على الإطلاق .

هـ — ولكننا لورجنا إلى دراسات الفلاسفة الروحيين أنفسهم لهذه المشكلة ، لوجدنا أن كُلاً من ديكارت وكنت قد فطن إلى أن الضحك ظاهرة سيكو — فسيولوجية ، وأنه لابد من دراسة العلاقة بين النفس والجسم على نحو ما تبدى فى هذه الظاهرة . وحسبنا أن نرجع إلى كتاب ديكارت المسمى باسم « رسالة فى الانفعالات » ، لى نتحقق من أن أبا الفلسفة الحديثة كان يفتر كل الحياة الوجدانية للإنسان (ومن بينها انفعالات السرور) بالرجوع إلى الآثار التى تتركها فى النفس تلك « الأرواح الحيوانية » المنتشرة فى الدم والأعصاب . وقد ذهب ديكارت إلى أن الضحك ظاهره طبيعية بحتة ، وأنه يحدث حينما لا تتدخل ملكة الحكم لى تنظم العمليات الانفعالية (من تنفس ودورة دموية) التى يُعدّ الضحك منها بمثابة التعبير الخارجى . وليس فى وسعنا هنا أن نعرض بالتفصيل لدراسة نظرية ديكارت فى الضحك ،

ولكن حسبنا أن نقول إنه يرى أن الضحك لا يُحرك إلا جانباً فقط من « النفس » ، وأما « البدن » فإنه مُستوعَب بأكله في عملية الضحك . وإذن فإن الضحك في نظر ديكارت انفعال جسمي بحت ؛ وأن كان في وسع العقل أن يتحكم فيه ، حينما يتحقق من أنه وليد خطأ في الحكم ، مثله كمثل كل ما يَرِدُ إلينا من قِبَل البدن . وهكذا نرى أن الضحك عند ديكارت لا يخرج عن كونه ضرباً من الاضطراب العضوي الذي يستولى علينا حينما يفاجئنا موضوع جديد لا عهد لنا به ، فنصاب بدهشة تضعف معها قدرتنا العقلية على الحكم . ولئن كان ديكارت يعطى من شأن الفرح أو السرور باعتباره شيئاً خبيراً في ذاته ، إلا أنه ينتقص من قدر « الضحك » ، بدعوى أن السررات الدنيا وحدها هي التي تقتزن في العادة بالضحك ! وإن الضحك ليغتلط في نظر ديكارت بالهزيمة ، ومن ثم فإننا نراه يمدّه فملاً يفلت من طائلة العقل ، ويقرر أنه ليس انفعالاً من انفعالات النفس ، وإنما هو انفعال من انفعالات البدن^(١) . ولكن إذا كان الضحك عند أبي الفلسفة الحديثة ظاهرة بدنية تدخل في النطاق الفسيولوجي البحت ، فإن وسائل التحكم في الضحك هي مما يندرج تحت النطاق العقلي البحت . وتأبي ثنائية ديكارت إلا أن تؤكد نفسها مرة أخرى فترى فيلسوفنا يقرر أن

R. Descartes : « Les Passions de l'Ame, » Art. (١)

الإنسان أسير للضحك في المجال الفسيولوجي ، بينما هو قد يستطيع أن يسيطر عليه ويتحكم فيه حينما ينتقل إلى المجال السيكولوجي^(١) ،

أما عند كنت فإن الضحك هو ضرب من الإعياء المفاجئ الذي يصاب به العقل ، فلا يلبث البدن أن يقوم هو بالاستجابة للمؤثرات الخارجية على طريقته الخاصة . ويستطرد كنت فيقول إن كل ما من شأنه أن يستثير لدينا القهقهات العالية الحادة ، لا بد من أن ينطوي على شيء من « الاستحالة » التي لا يجد فيها العقل أية لذة خاصة ، وتبعاً لذلك فإنه ليس للضحك من فائدة سيكولوجية بالنسبة إلى الفكر ، وإنما تنحصر فائدته في الآثار الفسيولوجية الطيبة التي يتركها في الجسم . والواقع أن الضحك — في نظر كنت — إن هو إلا انفصال يتولد عن « التلاشي الفجائي لحالة انتظار أو توقع كانت قد بلغت أعلى درجة من درجاتها »^(٢) ولا شك أن مثل هذا التحول الفجائي لا يحمل أي أثر سار أو أية نتيجة ملائمة بالنسبة إلى العقل ، ولكن من شأنه مع ذلك أن يحدث لدينا ضرباً من السرور البالغ بطريقة غير مباشرة : إذ أن الآثار الجسمية المحضة سرعان ما تردّد أرجاعها في المجال العقلي

Cf. F. Jeanson: «Signification humaine du rire», (١)
1950 pp. 10, 22—28.

Kant: «Critique du Jugement», trad. franç., par (٢)
Olbeltin, Paris, 1951, Vrin, pp. 149—150.

فيحدث انفعال السرور ، دون أن يكون « التصور العقلي » مع ذلك هو الالة المباشرة للانفعال السار . وإذا كان كُنْتُ يؤكد أهمية الضحك بالنسبة إلى الصحة الجسمية ، فذلك لأنه يرى أن الضحك يُحدث ضرباً من « الاتزان » فيما بين القوى الحيوية الموجودة لدينا . ويعود كنت فيقرر أنه لما كان ثمة تقابل بين انسجام أفكارنا وانتظام سير وظائفنا العضوية ، فإن من شأن عملية الانقباض والبسط التي تصاحب انفعال الضحك أن تحدث لدينا حركة ملائمة للصحة الجسمية ؛ وهذه الحركة قد تنعكس آثارها على العقل فتتولد عنها لذة عقلية (وإن كنا هنا بإزاء « فكرة » سارة حقاً ، ولكنها لا تغنى في صميمها شيئاً)^(١) .

ولكننا إذا عاودنا النظار في تفسير كل من ديكارت وكُنْتُ للضحك ، فإننا لا نجد عند أيٍ منهما بياناً للسبب الذي من أجله يعتبر السرور عن نفسه بلغة الابتسام أو الضحك . ومن هنا فقد حاول هربرت اسبنسر (سنة ١٨٦٠) أن يقدم لنا تفسيراً معقولاً لهذه الظاهرة السيكو — فيسيولوجية في مقال كتبه بعنوان : « فيسيولوجية الضحك » . وقد وضع اسبنسر في هذا البحث نظرية في « فائض الطاقة » ذهب فيها إلى أن للسرور طابعاً ديناميكياً يجعل منه طاقة زائدة لابد من أن تلتئم لها

Kant: « Critique du Jugement » trad. franç., par (١)
Otbelln, Paris, 1951, Vrin pp. 149—150.

بعض المنافذ . ويضيف اسبنسر أن من شأن هذه الحالة الوجدانية —
في كثير من الأحيان — أن تمرّ عبر أعضاء النطق ، فلا تلبث أن
تستحيل إلى حركة . غير أن ثمة دافئة أخرى من العضلات تجيء في
ترتيبها بعد عضلات النطق مباشرة ، لأن من شأنها هي الأخرى
أن تنشط أيضا بفعل الانفعالات والعواطف ، وتلك هي عضلات
التنفّس . ونظراً لما بين هاتين الطائفتين من العضلات ، من صلة عميقة
ورابطة وثيقة ، فإن الطاقة الفائضة التي تتولد عن حالة السرور
أو الانشراح لا بدّ من أن تجد لها منفذاً خلال تلك الظاهرة الصوتية —
التنفسية التي نسميها باسم « الضحك »^(١) .

وقد اهتم دارون أيضاً بدراسة ذلك الميل العام الموجود لدى كل
من الإنسان وبعض فصائل الحيوان ، نحو إصدار بعض الأصوات
في حالة الانفعال ، ولكنه اعترف بأننا نجمل حتى الآن لماذا تتخذ
الأصوات التي يصدرها الإنسان في لحظات سروره ذلك الطابع التريدي
الذي يتميز به الضحك . ويعود دارون فيقول إنه لما كانت حالة
السرور هي على النقيض تماماً من حالة الحزن ، فإن من الطبيعي
أن تكون الأصوات التي يصدرها الإنسان في لحظات سروره مختلفة

H. Spencer: «The Physiology of Laughter»; in (١)
«Essays, scientific, political and speculative.», Vol II.,
N-Y., D. Appleton, 1891, pp. 459—460.

كل الاختلاف عن تلك التي يصدرها في لحظات حزنه . ونحن نعرف كيف أن « الزفير » في حالة البكاء يكون طويلاً ممتداً ؛ بينما يكون « الشهيق » قصيراً متقطعاً ، مما يجعلنا نتوقع أن يكون الزفير في حالة الضحك قصيراً متقطعاً ، والشهيق طويلاً ممتداً ؛ وهو ما نلاحظه بالفعل في حالة الأصوات المنبعثة منا في لحظات السرور والغبطة — ولكن على الرغم من أن الملاحظة العادية تدلنا على أن أصوات الضحك « قصيرة ومتقطعة » ، فإن الدراسة الطويلة الدقيقة قد أظهرتنا على أن الشهيق في الضحك ليس طويلاً ممتداً ، كما تتصور في العادة ، بل إن عملية الشهيق والزفير هنا أقصر منها في أية حالة صوتية أخرى ، اللهم إلا في حالتى الغناء والكلام المتصل^(١) . — أما أصوات « القهقهة » فإنها لا تنبعث إلا في نهاية زفير حاد ، وفي هذه الحالة قد تزيد شدة هذا الزفير عن مثيلتها في أى جهد إرادى مباشر ، كما لاحظ لويد في دراسته ليكازم التنفس في الضحك^(٢) .

٦ — أما إذا نظرنا إلى البحوث الحديثة التي قام بها بعض علماء النفس المعاصرين لدراسة مشكلة الضحك ، فإننا نجد أن هذه البحوث

Ch. Darwin: «The Expression of the Emotions in (١)
Man & Animals», Watts, p. 102.

E. L. Lloyd: «The respiratory mechanism in (٢)
laughter»; «Jour. gen. Psych.», 1938, X, p. 179.

لم تلق الكثير من الأضواء على الجانب الفسيولوجى — البيولوجى من المشكلة . وقد حاول بعضهم أن يفسر الضحك على ضوء نظرية جيمز — لانج فى الانفعال ، فقال بأننا لانضحك لأننا مسرورون ، بل نحن مسرورون لأننا نضحك ! ومعنى هذا أن المظاهر العضوية لانفعال السرور هى الالة الحقيقية للضحك . وفى هذا يقول لوسيان فابر : « إنه لمن الخطأ أن يقال إن الضحك انفعال من الانفعالات ، فإن الضحك فى الحقيقة هو عبارة عن ظاهرة عضوية تترجم عن نفسها سيكولوجيا بالانتقال المفاجئ من بعض الحالات الشعورية إلى حالات أخرى مغايرة ^(١) » . ولعل من هذا القبيل أيضاً ما ذهب إليه مكدوجال حينما قال : « إذا كنا نسر حينما نضحك ، فإننا نسر لأننا نضحك ^(٢) » ويستطرد مكدوجال فيؤكد أن للضحك من الآثار الفسيولوجية ما لا يقل أهمية عما له من آثار سيكولوجية ، وذلك لأن من شأنه أن يرفع من ضغط الدم فيرسل إلى الرأس والمنخ سيالا دافقا من الدم ، كما يدلنا على ذلك احمرار وجه الشخص الطروب الذى يضحك من أعماق قلبه ^(٣) . — ويذهب آخرون إلى أن الضحك قد يكون مجرد اختراع

Lucien Fabre: « Le Rire et les Rieurs. » Parls, (١)
1926, pp.136—138.

W. Mc Dougal: « Outline of Psychology », (٢)
London, Methuen, 1923, p. 166 . 170.

ابتكرته الطبيعة لتعويض ما يسببه انتصاب قامة الإنسان من نقص في درجة الاحتكاك والتدليك العضويين .

وقد يكون من الغرابة بمكان أن تظل « الدغدغة » — على الرغم من أهميتها الكبرى في الموضوع الذي نحن بصدده — ظاهرة مهلة لم يوجه إليها من العناية حتى الآن ما هي أهل له . ولا نرانا في حاجة إلى القول بأن للدغدغة طابعاً فسيولوجياً واضحاً ، فإننا نعرف أن الحساسية الشديدة التي تتمتع بها بعض مناطق الجسم (لدى الإنسان وبعض أنواع الحيوان) هي التي تجعل في استثارتها ما يولد الضحك . وقد ذكر دارون أن بعض أنواع القردة الشبيهة بالإنسان كثيراً ما تصدر أصواتاً مرددية شبيهة بأصوات الضحك حينما تلمس بعض مواضع خاصة من جسمها . وربما كانت أيسر مناطق الجسم استثارة عند الدغدغة هي المنطقة الواقعة تحت الإبط ، وبطن القدم ، وما بين أصابع الرجلين الخ . ويذهب بعض الباحثين إلى أن الدغدغة تتوقف على « التغيرات غير المنتظرة » في طبيعة عملية اللمس نفسها . ومعنى هذا أنه حينما تكون المنطقة التي نستثيرها عن طريق الدغدغة مجهولة أو غير منتظرة لدى الشخص (أو الطفل مثلاً) ، فإن استجابته بالضحك لا بد من أن تتضاعف ، مما يدل على أن عنصر « المفاجأة » أو « عدم التوقع » لا يكاد ينفصل عن عملية « الدغدغة » . هذا إلى أنه لا بد من أن يقوم

بعملية الدغدغة شخص آخر ، فإن المرء لا يستطيع أن « يدغدغ » نفسه ، مما يدلنا على وجود عنصر سيكولوجى فى صميم هذا الرجع الفسيولوجى . والرأى السائد بين الباحثين أن الدغدغة تمثل ضرباً من العدوان فى صورة دعابة ، أعنى أنها صراع يتخذ شكل اللهو أو اللعب ، مما يدفع بالشخص الذى يقع تحت تأثيرها إلى أن يستجيب بالضحك ، على سبيل الدفاع عن نفسه ضد هذا الموقف العدوانى المزاحى . — وأما حينما يتخذ المبحوم صورة جدية ، فإن الضحك سرعان ما ينقطع ، لكى يدع مكانه لتعبير انفعالى آخر يحمل محله ألا وهو الخوف أو الغضب أو الحنق^(١) .

ومهما يكن من شىء ، فإن الضحك المتولد عن « الدغدغة » هو فى رأى عدد كبير من الباحثين ، الصورة الأولية من صور الضحك ، حتى أن الكثيرين يقولون إن شتى الصور الأخرى للضحك قد نشأت على سبيل التطور عن تلك الصورة الأولية التى نلمحها بسهولة لدى الأطفال وبعض فصائل الحيوان . ومن هنا فقد أطلق بعض علماء النفس على فن الكوميديا نفسه اسم فن « الدغدغة العقلية »^(٢) ، بدعوى أن الضحك الجمالى (أو الاستطيق) إن هو إلا استجابة سيكولوجية

Ch. Darwin: «The Expression of the Emotions» (١)
in Man & Animals., p. 100.

«Le Chatouillement psychique»

(٢) بالفرنسية

وبالإنجليزية « Tickling of the mind »

لاستشارة مُوجَّهة إلى المخ والجهاز السمبثاوى ، على غرار الاستشارة المضوية^(١) . ولكن الذين يقولون بأن كل ضرب من ضروب الضحك هو فى صميمه نوع من « الدغدغة » إنما يعنون بذلك أنه كما أن الدغدغة تعتمد أول بالذات على عنصر « المفاجأة » أو « عدم التوقع » (فى طبيعة المناطق الجسمية التى يقع عليها التهيج) ، فكذلك تعتمد الكوميديا والفكاهة بصفة عامة على عنصر « المفاجأة » فى مجرى الحوادث أو سياق الأفكار أو منطق الواقع . . . الخ . ويربط البعض بين « مواضع الدغدغة » فى الجسم ومناطق « التهيج الجنسى » فيقول إن ثمة عنصراً جنسياً أ كيداً فى ظاهرة الدغدغة ، كما يدلنا على ذلك انفجار الفتيات المراهقات بالضحك عند تعرضهن لخطر الوقوع تحت عجلات سيارة ، إذ تنفجر الواحدة منهن ضاحكة بمجرد نهوضها بعد هذا الحادث وكأنما هى قد استهدفت لضرب من العلوان الجنسى الرمزى (فى حين يستجيب الرجال والنساء الطاعنات فى السن لهذا الموقف بالخوف الشديد أو الغضب البالغ)^(٢) . ولكن ربما كان فى استطاعتنا أن نقول إن العلاقة بين ظاهرة « الدغدغة » وظاهرة « التهيج الجنسى

Cf. Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», Flammarion (١)
1949, p. 58.

J. C. Flugel: «Humor and Laughter»; in (٢)
«Handbook of Social Psychology», Vol. II. 1954, pp.
712 - 719. (edited by G. Lindzey).

الموضي « لم تلق بعد من الاهتمام العلمى ما تستحقه ^(١) .

٧ — فإذا ما ألقينا الآن نظرة عامة على فسيولوجية الضحك ، تبين لنا أن هذا الجانب من جوانب « مشكلة الضحك » لم يُبَحَثْ بحثاً كافياً . فليس يكفى أن نقول مع اسبنسر — مثلاً — إن الضحك عبارة عن عملية تفريغ للطاقة العصبية الزائدة ، بدليل أننا لا نضحك حينما نكون متعبين أو منهوكة القوى ، وإنما يجب علينا أيضاً أن نعرف السرّ في كون هذا التفريغ لا يتم إلاّ عن طريق تلك الاختلاجات العضلية لعظام الوجه ، وما يقترن بها من تشنجات في عضلات التنفّس . . . الخ . و بعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن الباحث الذى يريد أن يزيح النقاب عن سرّ الضحك ، لا بدّ من أن يبيّن لنا لماذا يعبر الفرح عن نفسه من خلال الابتسام والضحك ، بدلاً من أن يعبر عن نفسه من خلال الإفراز الدمى أو السعال أو الصياح أو الصفير أو التصفيق ؛ وكل هذه ظواهر

(١) يعترف هالفوك إليس *H. Ellis* بوجود علاقة وثيقة بين الدهشة ومناطق التهييج الجلىسى ، ولكنه يحرر أن القابلية للدهشة لم تنشأ عن أصل جلىسى ، بل هى قد ظهرت كنوع من الدفاع عن المناطق المعرضة للإيذاء من بين أجزاء الجسم . ثم يستطرد هالفوك إليس ليقول إن الدهشة لا تولد الضحك إلاّ فى مناطق متطرفة من الجسم (كالأطراف وبطن القدم وراحة اليد وماتحت الإبط . . . الخ) ، وأما فى مناطق الحساسية الجنسية لأنها تولد استجابة شبيهة جعلت بعض الباحثين يخلولون إن العمل الجلىسى فى صميمه إن هو إلاّ فعل ، نمكس يتوقف على الحساسية الجلدية . (Cf. *Havelock Ellis: «Psychology of Sex.»*, London, 1944, *Medical Books*, Ch. II., pp. 87—88.)

كان يمكن أن تقوم بهذا الدور التعبيرى الصناعى الذى يقوم به الضحك .
وقد وصف بعض علماء النفس ظاهرة الضحك من الناحية الفسيولوجية
فكتب يقول : « إن الضحك عبارة عن اختلاجات عضلية متقطعة
تستهلك الكمية الفائضة من التوتر الذى تجمع فى العضلات . —
وإذا استمر التنبيه وعجز الضحك عن استنفاد التوتر ، انتقلت آثار
الدغدغة إلى العضلات الحشوية فتنبه بعض الغدد وخاصة الغدد الدرقية ،
ويتحول الضحك إلى بكاء ، وحينئذ ترتجى العضلات ويمكن
الجسم^(١) . » والواقع أن الإنسان قد « يختنق من الضحك » (كما يقول
التعبير الفرنسى) : *Étouffe de rire* ، مما يجعل الضاحك أعجز
ما يكون عن القيام بأى جهد . ولكن العجيب فى هذا الصدد أن
التشنجات التى تحدث عند الضحك قد تولد لدينا حالة من الارتياح
أو التخفف ، على الرغم من أن الضحك نفسه ليس بمثابة ارتخاء وإنما هو
« مركب من التهييج والتسكين^(٢) » .

(*Un complexe d'excitation et de sédation*)

وهناك أنواع من الضحك لم تبْعَثْ بعد بالقدر الكافى ، كالضحك
المتولد عن استنشاق أكسيد النترىك أو غيره من المخدرات والمخاير ؛

(١) « مبادئ علم النفس العام » للدكتور يوسف مراد ، دار المعارف ،

الطبعة الأولى ، ١٩٤٨ ، ص ١٠٩ .

(٢) cf. Raultin: « *Le Rire et les Exhilarants* » Paris, (٢)

1900, Ch. I & III.

ولو أننا نعرف بصفة عامة أن من شأن هذه المخدرات — مثلها في ذلك كمثل المشروبات الكحولية — أن تحدث لدى الشخص الذي يتعاطاها حالة انشراح عامة *Euphoria* ، نتيجة لما تؤدى إليه من تعطيل لآليات الكف أو المنع *Inhibition* . — بيد أن بعضاً من الباحثين يؤكد أن « الفردوس المزعوم » الذي تتوهم أن الخمر أو المخدرات قد تحمل إليه المدمنين على تعاطيها ، ليس بالضرورة « فردوساً سعيداً » تسوده البهجة والرح ؛ بل المشاهد أن بين المدمنين على المخدرات من يتمتع بمزاج تشاؤميّ حزين ، ومن يتمتع بمزاج تفاؤلي ضاحك ، وفقاً لاستعدادات كل فرد وميوله ومواهبه وصفاته وظروفه . . . الخ^(١) .

وأخيراً ينبغي أن نشير إلى ظاهرة « الإشعاع السيكو-فزيائي » التي تجعل من الضحك « ظاهرة مُغذية » . ونحن نعرف كيف أن هذه « العدوى النفسية » تتمثل أيضاً في التثاؤب والحاسة والفرع الشديد ، ولكنها تبدو بشكل أظهر وأقوى في حالة الضحك . وآية ذلك أننا ما نكاد نندمج في وسط جماعة ضاحكة ، حتى نفجر ضاحكين ، حتى قبل أن نعرف السبب في ضحك الضاحكين من حولنا ! ولعلّ هذا هو السرّ في تلك الصبغة الاجتماعية التي نسبها كثير من الباحثين (وفي

Ch. Lalo : « Esthétique du Rire », Paris, (١)
Flammarion, p. 62-9.

مقدمتهم برجسون) إلى الضحك باعتباره « ظاهرة جماعية » (كما سنرى فيما بعد) . ولم يستطع أحد من الباحثين حتى اليوم أن يقتصر لنا تلك القدرة الإشعاعية العظيمة التي يملكها الضحك ، ولكن من المؤكد أن ثمة فوارق فردية كثيرة في مدى تأثير الأفراد بهذه الظاهرة الجماعية المديدة .

الفصل الثالث

الضحك عند الطفل

٨ — إذا كان كثير من علماء النفس قد اهتموا بدراسة ظاهرة الضحك عند الأطفال ، فذلك لأن من شأن هذه الدراسة المقارنة أن تعيننا على فهم العلل المختلفة للضحك والمظاهر المتنوعة للفكاهة . وقد لاحظ بعض الباحثين أن الدراسة التكوينية للضحك هي التي توحى إلينا منذ البداية بأنه لا يمكن أن يكون ثمة تفسير واحد أو عدة واحدة لهذه الظاهرة السيكو — فيولوجية المعقدة . وإن وجهة النظر البيولوجية نفسها لتضطرنا إلى اطراح كل نظرية واحدة في الضحك ، إذ مادامت الطبيعة قد نظمت حياتنا الجسمية بحيث يمكن أن يقوم العضو الواحد بأكثر من وظيفة ؛ فلماذا نصرّ على ألا يكون للضحك سوى تفسير واحد ؟ ألا يستعمل الإنسان يده لتناول الطعام ، وتسلق الأشجار ، والدفاع عن نفسه ، ولأغراض أخرى عديدة ؟ بل اننا حتى حينما نقول إن للضحك وظيفة نافعة ، فإن من واجبنا أن نتذكر أنه لا ينطوي دائماً أبداً على فائدة بيولوجية محققة . هذا إلى أن القدرة على الضحك تختلف من فرد إلى آخر ، فإن بعض الأفراد ليضحكون بكثرة ، بينما قلما يضحك غيرهم ، وهذه الحقيقة تصدق أيضاً حتى بالنسبة إلى صغار

الأطفال من سن ٣ إلى ١٢ شهراً ، ممن يتمتعون بصحة جيدة . وفضلاً عن ذلك ، فإن الضحك كثيراً ما يقتن بالبكاء ، كما أن دموع الفرح قد تختلط بدموع الحزن ؛ وقد يوجد الطفل بإزاء موقف لا يعرف فيه هل يضحك أم يبكي ! وإذن فإن الضحك قد يخرج عن معناه الأصلي ، كما أنه قد يبدو أحياناً عديم الدلالة ، إن لم نقل غير ذي موضوع ^(١) ولكن بعض علماء النفس يابون إلا أن يصنفوا الضحك تصنيفاً شبه رياضي ، فترى إحدى الباحثات تقرر أن ضحك الفرح يبدأ عند الطفل في الشهر الثاني من عمره ، ثم يعقبه ضحك التعاطف أو المشاركة الوجدانية في الشهر الثالث ، لكي لا يلبث ضحك اللعب والمفاجأة والانتصار أن يظهر عنده في الشهر الخامس . وأما ضحك « الاستحالة الكوميديّة » ^(٢) الذي يفترض قدراً أعظم من الكسب العقلي ، فإنه لا يظهر عند الطفل إلا حوالى الشهر التاسع من عمره . وأخيراً يصبح الطفل ابتداء من الشهر العاشر من عمره قادراً على أن يضحك لنفس المواقف التي يضحك لها البالغون . — ويضيف إلى ذلك قابر أن في استطاعة أي والد يلاحظ نمو طفله النفسى ، أن يلحح لديه

C. W. Valentine : The Psychology of Early (١)
Childhood , Methuen, London, 1942, Ch. XII (Genetic
Psychology of Laughter), p. 247.

(٢) « le rire d'absurdité comique » (في دراسة الآلة من

ظهور نوع جديد من الضحك كلما نضجت لديه إحدى الوظائف النفسية .
وهنا يكون أول ما يثير الضحك لدى الطفل هو الشيء الغريب أو غير
المألوف ، كأن يضحك الطفل عند رؤيته لصقر ذى رأسين ؛ ثم يأتي
بعد ذلك الضحك الناشئ عن الموضوعات المفاجئة أو الظواهر غير
المتوقعة ، وهذا النوع من الضحك لا يظهر لدى الطفل إلا بعد أن
يكون قد اكتسب شيئاً من الطمأنينة النفسية التى تسمح له بأن يتمالك
روعه فى الحال . أما الضحك الناشئ عن التقليد أو الخداع أو الإيهام
فإنه يقتزن فى العادة بمرحلة الخبرات العقلية الأولى للطفل . فإذا ما بدأ
الطفل بشر شخصيته ، ظهرت لديه فى الحال ضحكات الانتصار
والسخرية والتحدى ، وجميعها مظاهر لذلك « الضحك القاسى » الذى
تستثيره لدينا رؤيتنا لمظاهر ضعف الآخرين ؛ وهلم جرّاً^(١) . . .

هذا وقد حاول بعض الباحثين — مثل دارون — أن يربط بين
الضحك عند الطفل وعند الحيوان ، فذهب إلى أن الملاحظات التى يقتزن
بها الضحك عند صغار الأطفال تشبه إلى حد كبير نظائرها عند القردة
العليا . وربما كانت أولى المؤثرات أو المناسبات التى يظهر بسببها الضحك
لدى الطفل (كما هو الحال أيضاً لدى بعض الحيوان) هى « للدغدة » .

Cf. L. Fabre: «Le Rire et les Rieurs», Paris, 1929 (١)
(cité par Lalo, Ibid., p. 52.)

ويروى دارون في هذا الصدد أنه لمس بقطعة صغيرة من الورق بطن القدم لدى أحد أطفاله الصغار ، وكان عمره عندئذ سبعة أيام فقط ، فاستجاب الطفل الصغير استجابة منعكسة لهذه الدغدغة بأن سحب قدمه بسرعة ولوى أصابع رجله على نحو ما يفعل كبار الأطفال تماماً . ويضيف دارون إلى ذلك أن الضحكات الأولى للطفل تتولد عند الرضاعة ورؤية شخص محبوب أو بعض الألوان الناصعة ... الخ . ولكن باحثين آخرين يقررون أن الشيء الغريب هو أول موضوع يستجيب له الطفل بالضحك ، في حين أن دعايات الآخرين هي بمثابة موضوع متأخر لا يستثير لدى الطفل استجابة الضحك إلا في سن متأخرة نسبياً . وقد سبق لنا أن لاحظنا عند الحديث عن ابتسام الطفل أن هذه الظاهرة مرتبطة منذ البداية بالمواقف الاجتماعية ، فإن ابتسام المحيطين بالطفل يولد لديه الابتسام ، كما أن ضحكهم يبعثه على الضحك . ولا نرانا في حاجة إلى أن نعيد ما سبق لنا ذكره من أن الابتسام والضحك ظاهرتان « معديتان » لدى صغار الأطفال (كما هو الحال أيضاً لدى الكبار) ، فإننا نعرف كيف أن الطفل يستجيب لانفعالات الآخرين بأن يولد في نفسه أمثال هذه الانفعالات وفقاً لما أطلق عليه مكدوجال اسم « التعاطف السلبي البدائي » . — ومع ذلك فقد لاحظ بعض الباحثين أن صغار الأطفال قد يتسمون أو يضحكون أحياناً لرؤيتهم بعض المناظر البشرية أو غير

البشرية التي لا أثر فيها للابتسام أو الضحك ، كأن يضحك الطفل عند رؤيته لوجهه في المرآة ، أو حينما يحرق في وجه شخص غير مبتسم أو غير ضاحك . . . الخ . ولكن المشاهد بصفة عامة أن ابتسام الطفل وضحكه يرتبطان منذ البداية بالصور البصرية والمشاهد المرئية أكثر مما يرتبطان بالنشاط اللغوي والألفاظ المنطوقة^(١) .

٩ — أما إذا أردنا أن نقوم بدراسة الضحك عند الطفل دراسة علمية تتبعية ، فسيكون علينا أن نسير فالتين في بحثه المقبول الذي قدم لنا فيه دراسة تكوينية *Genetic* ممتازة لظاهرة الضحك عند الأطفال . وهنا نجد هذا الباحث يحصر الملابس المتعددة التي تحيط بظاهرة الضحك لدى الطفل ، فيجمع حوالي خمس عشرة حالة صنفها بحسب تاريخ ظهورها ، ونص على أن لها نظائرها أيضاً عند البالغين . والحالة الأولى من هذه الحالات هي التي يكون فيها الضحك بمثابة تعبير عن اللذة أو المتعة أو البهجة أو السرور . فالطفل يضحك باديء ذي بدء حينما يشعر بالراحة والدفء والشبع ، وإن كانت الضحكة عنده ذات دلالة اجتماعية باعتبارها أمانة يعبر بها عن رضاه حينما يكون بالقرب من والدته أو مربيته . وقد رأينا من قبل كيف أن الابتسامة الأولى للطفل تتولد عن منبهات سارة مماثلة ، ونضيف هنا أن الضحكة الأولى للطفل كثيراً

cf. Flagel: «Humor & Laughter», in «Handbook (١) of Social Psychology», Vol. II., p. 711—712.

ما تكون بمثابة امتداد لابتسامته ، مما يدلنا على الصلة الوثيقة بين الابتسام والضحك . وإذن فليس ثمة موضع للفصل بين الابتسام والضحك — على نحو ما فعل مكدوجال — خصوصاً وأن الملاحظة قد دللتنا على أن البكته الواحدة التي تولد لدى البعض ضرباً من القهقهة ، لا تولد لدى البعض الآخر سوى ابتسامة ضعيفة باهتة . وعلى كل حال فإن فالتين يقرر أن الملابس التي تقتن بها الابتسامة لدى الطفل هي بعينها التي يقتن بها الضحك لأن الطفل يضحك لكل ما يبعث في نفسه اللذة أو المتعة أو البهجة (كأن يُقدّم إليه طعام محبوب ، أو كأن يلاطف ويُدلل ، أو كأن يكون موضع عناية واهتمام . . .)^(١) . . .

وأما النوع الثاني من الضحك فهو الضحك استجابةً لضحك شخص آخر أو ابتسامه . وهنا يقول فالتين إنه لاحظ لدى طفله البالغ من العمر عشرة أسابيع أنه كان يضحك لجرد ضحك أمه ، بينما يذكر باحثون آخرون أنهم شاهدوا أطفالاً يضحكون لضحك أمهاتهم في سن شهرين تقريباً . وهذه الظاهرة تدلنا بوضوح على أن للضحك منذ البداية قوة إيجابية ، فضلاً عن ارتباطه الوثيق بشقى العلاقات الاجتماعية . ولكن ثمة فوارق فردية كثيرة بين الأطفال في مدى استجابة كل منهم لضحك الآخرين ، وإن كان لابد من التفرقة هنا بين الأم

(١) C. W. Valentine; The Psychology of Early Childhood, 1942, p. 250.

وغيرها من الأشخاص الذين يحيطون بالطفل ، لأن للأم قدرة محيية على انتزاع استجابة الضحك من وليدها بابتسامتها الخاصة ، في حين أن الغرباء قد لا ينجحون في الوصول إلى مثل هذه النتيجة . وإذا كان ثمة أطفال يميلون إلى الضحك بسرعة استجابة لابتسامات أو ضحكات الغير ، حتى حينما يكونون في حالة بكاء ، فإن ثمة أطفالا آخرين لا يستجيبون لضحك الآخرين (حتى في سن ١٨ شهرا) بأكثر من ابتسامة بسيطة . وكثيرا ما يكون في وسع الآباء أن يحملوا الطفل على الكف عن البكاء حينما يوحون إليه بالضحك عن طريق الابتسام أو الضحك بصوت مرتفع على مرأى منه . ويذهب البعض إلى أن ضحك المرء استجابة لضحك الآخرين هو الذي يشجعه فيما بعد على أن يضحك بمفرده (حينما يسخر من نفسه) . ولكن الظاهر أن هذا العامل ليس من الضرورة بما يتوهم البعض ، بدليل أننا قد نرتكب خطأ فنضحك من أنفسنا بمفردنا . وأما حينما يضحك الطفل عند رؤية وجهه المبوس في المرآة ، فربما يكون عنصر المفاجأة هو السبب في هذا الضحك ، أو قد يكون السر في ذلك هو هذا الميل الفطري الموجود لدينا إلى أن نبتسم عندما نلتقي بوجه بشري ، حتى حينما لا يكون هذا الوجه نفسه مبتسما . وقد يهش الطفل في وجه أمه العابة أو وجه أبيه غير الضاحك نتيجة لوجود ضرب من « التداعى »

أو « الارتباط » *Association* بين هذا الوجه وبين حالات سارة أو ملائمة مثل اللعب أو التغذية أو ما إلى ذلك . وعلى كل حال ، فقد يكون السرّ في هذا النوع من الضحك هو ما للوجه البشرى من سحر أو جاذبية بالنسبة إلى الطفل ، حتى في الأسابيع الأولى من عمره . وآية ذلك أنه ما يكاد الطفل يقوى على التحديق ببصره ، حتى نراه يوجّه إلى الأشخاص من الاهتمام أكثر مما يوجّه إلى الأشياء ، فيصوب بصره نحو الوجوه الجديدة والحركات البشرية التي تتوالى في مجاله البصرى .. الخ .

وهناك منته آخر من شأنه أيضاً أن يستثير الضحك لدى الطفل ، ألا وهو رؤية موضوع ناصع أو سارّ أو مُبهج . فالطفل البالغ من العمر ثلاثة أشهر قد يضحك عند رؤيته للعبة فضية اللون ، خصوصاً إذا كان لها رنين مسموع ؛ وكثير من الأطفال المتقدمين في السنّ قد يعبرون عن ارتياحهم لمراى بعض الأشياء السارة أو الموضوعات المبهجة بأن ينفجروا ضاحكين في غبطة وانشراح .

أما السبب الرابع الذى يولد الضحك لدى الطفل فهو الدغدغة أو اللس الموضى لبعض مناطق خاصة من الجسم (كجانبي الجذع أو بطن القدم) . وقد قام بعض الباحثين هذه اختبارات على مجموعة من الأطفال لمعرفة مدى صحة الرأى القائل بأن الدغدغة استجابة

فسيولوجية بحتة ، فوجدوا أن الطفل يظل يستجيب بالضحك لعملية الدغدغة طالما كان الشخص الذى يحدث هذه الدغدغة يبتسم أو يضحك هو نفسه . ولكنه لا يلبث أن يكف عن الضحك بمجرد ما يتخذ الجرب وضعاً جدياً لا أثر فيه للضحك أو الابتسام . ومعنى هذا أن ابتسامة الشخص الذى يقوم بعملية الدغدغة هى عامل مهم فى تلك الاختلاجات العضلية التى يقع تحت تأثيرها الطفل عندما نعد إلى تنبيه بعض مناطق معينة من جسمه . ولكن الدغدغة عامل قوى من شأنه أن يستثير لدى الطفل أرجاعاً أعنف وأقوى مما يستثيره فى العادة الوجه الباسم أو الضاحك .

١٠ — ويمضى فالتين فى تعداد أسباب الضحك لدى الطفل ، فيورد سبباً خامساً هو الصدمة الخفيفة أو المفاجأة . وهنا لا بد من أن تكون الصدمة هيئة بحيث لا تستثير الخوف أو الرعب : فهذا طفل يضحك — مثلاً — حيناً يمزق والده بين أصابعه أوراق صحيفة من الصحف ، فى حين أن هذا الصوت نفسه كان قد ولد لديه منذ عدة أيام استعداداً للخوف أو إنذاراً بالخطر . ولا شك أن الطفل حين يضحك اليوم لهذا الصوت نفسه ، فإنه لا زال يجد فى الموقف شيئاً من المفاجأة ، ولكن عنصر الخوف قد تلاشى تماماً . — وهناك علة سادسة للضحك تتصل بهذه العلة ، ألا وهى التكرار . وهنا نجد أن المؤثر الواحد الذى

يولد لدى الطفل في المرة الأولى الشعور بالدهشة ، سرعان ما يستثير لديه الابتسام ، لكي لا يلبث بالتكرار أن ينتزع منه استجابة الضحك . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول إن الشخص الذي يفاجئ طفلاً بحركة معينة من الشفتين قد لا يستثير لديه سوى الشعور بالدهشة أو حب الاستطلاع ؛ ولكن إذا تكررت هذه الحركة من الشخص الذي يداعب الطفل على فترات متقطعة (مع العلم بأن الابتسامة قد تجيء فحسبها طابع الملاحظة أو اللهو المشترك) فإن الطفل سرعان ما يستجيب لهذه الحركة بالضحك . وليس من السهل أن نعلل الضحك الناشئ عن التكرار ، فإن العجيب هنا أن نفس المؤثر الذي يولد هادئ ذي بدء الشعور بالخوف أو الدهشة أو الصدمة سرعان ما يكتسب طابعاً ساراً بالتكرار . ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن الضحك هنا ناشئ عن الشعور بالتحرر من آثار الصدمة الأولى (التي كانت غير ملائمة) ، نتيجة لأن تكرار التنبيه قد أقفده صيفته الأليمة أو طابعه المكدر . ولكن برجسون يفترض الضحك الناشئ عن التكرار بقوله إن كل ما ينطوي على عنصر آلي رتيب من شأنه بالضرورة أن يولد لدينا انفعال الضحك ؛ والتكرار في صميمه عملية آلية تجعل من الشخص جهازاً ميكانيكياً تنبث منه باستمرار نفس الحركات ونفس الأصوات ، فليس بدعاً أن نراه يستثير لدينا الضحك . — ولكننا نجد من الصعوبة نمكان أن ننسب إلى الطفل مثل هذه القدرة على تمييز « الآلية »

Mécanisme ، على الرغم من اعترافنا بأن نظرية برجسون في تفسير الضحك الناشئ عن التكرار قد تصدق على كثير من ضروب الكوميديا التي نشاهدها في المسرح والسينما^(١) .

أما السبب السابع من أسباب الضحك فهو المفارقة أو التناقض ، كأن يحدث شيء جديد كل الجدة في إطار عادي مألوف . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يحدث حينما يرى الطفل والده مرتدياً قبعة ملونة من الورق ، أو حينما تتلفظ أمه على مسامعه بأصوات غريبة مضحكة... الخ . وكثيراً ما يكون تقليد الأبوين لحركات طفلها باعثاً له على الضحك ، خصوصاً إذا اقترنت هذا التقليد بعنصر التكرار . والواقع أن « التقليد » أو المحاكاة هنا لا تخرج عن كونها نوعاً من « اللعب » الذي هو في حد ذاته جو ملائم للضحك عند الأطفال . وقد لوحظ بالفعل أن الطفل يبدأ منذ سن مبكرة (من ٤ إلى ٦ أشهر) في الاستجابة بالضحك لمواقف اللعب ، خصوصاً إذا اقترنت تلك المواقف بضحك الأم نفسها . فإذا ما تجاوز الطفل الشهر السادس من عمره بدأت بعض التصرفات التي يقوم بها البالغون تبدوله في حد ذاتها مضحكة . وأما حينما يتقدم الطفل في نموه النفسي ، فإن أنواع اللعب المختلفة سرعان ما تولد لديه الضحكات العالية ، ولو أن الضحك هنا قلما يتولد عن اللعب نفسه ، بل هو كثيراً

cf H. Bergson: «Le Rire», Paris, P. U. F., 1946, (١)
67^e éd., p. 65.

ما يقتزن بعناصر الدهشة والخوف البسيط والفرح بالانتصار عند تحقيق
أى كسب جديد . . . الخ^(١) .

وثمة نوع آخر من الضحك يشير إليه بعض الباحثين — وإن كان
البعض الآخر منهم يشك في إمكان قيامه بذاته واستقلاله عن غيره —
الآ وهو الضحك الناشئ عن مجرد التعرف على شيء ، كأن يتعرف
الطفل على اسمه ، أو كأن يتعرف على صورته في المرآة . ويميل بعض
المفكرين إلى القول بأن اللفظ المكرر الذى يردده على مسامع الطفل
صوت محبب إلى نفسه من شأنه بالضرورة أن يصبح صوتاً ساراً يرتاح
إليه ، كما أن الوجه الباسم الذى يهش في وجهه من شأنه أن يعنى بالنسبة
إليه الراحة والهناء . ويقول فرويد إن عملية التعرف في حد ذاتها هي
بصفة عامة عملية سارة ، لأن الإنسان يرتاح دائماً إلى أن يلتقى مرة
أخرى بنفس الشيء الذى سبقت له معرفته . ولكن لا بد من أن
يسبق عملية التعرف شيء من البحث الذى يقتزن بشعور الحيرة ، أعنى
أنه لا بد من أن يشعر الفرد بوجود مشكلة يسعى إلى حلها .

١١ — وهناك مواقف أخرى من شأنها أيضاً أن تولد لدى الطفل
انفعال الضحك ، مثل المواقف العديدة التى يقوم فيها بأداء نوع جديد
من النشاط . فالطفل الذى يقف لأول مرة منتصباً على قدميه ، رافعاً

(١) C. W. Valentine: «The Psychology of Early Childhood», 1942. p. 256.

يديه إلى فوق ، قد ينفجر ضاحكاً بمجرد ما يفقد توازنه بعد هذه المحاولة الأولى . وقد يحاول الطفل أن يدور على عقبه ، في حركة شبه دائرية ، فما يكاد يشعر بالدوار ويسقط على الأرض حتى ينفجر ضاحكاً . ولا يعدّ هذا النوع من الضحك مجرد تعبير عن انشراح الطفل ومرحه ، وإنما هو يرجع في جانب منه إلى إشباع الطفل لرغبته في تأكيد ذاته وتأييد نوازع القوة في نفسه . وربما كان هذا النوع من الضحك شبيهاً بما أطلق عليه هُوبز اسم « العزّة الفجائية » التي تستولى علينا حينما نشعر بتفوقنا على الآخرين أو قدرتنا على تحقيق ما لم يكن لنا عليه يدان . فالطفل هنا إنما يضحك لأنه يؤدّي لأول مرة من الأفعال ما لم يكن له به عهد ، وكأنما هو يؤكد بذلك تفوقه على نفسه .

وثمة نوع آخر من الضحك نلمحه لدى الطفل في العام الأول أو الثاني من عمره ، ألا وهو الضحك المقتن بعملية المماكة أو الإغاطة *Teasing* . وربما يكون الأصل في هذا النوع من الضحك هو ميل الطفل إلى اللعب ، مع ولعه في الوقت نفسه بإيقاع الآخرين في مواقف غير سارة . فالطفل الذي ينجح في إغاطة والديه قد ينفجر ضاحكاً ، لأنه يدرك المفارقة التي ينطوى عليها موقف والدّين بالقيّن قد غلبا على أمرهما ، ثم لأنه في الوقت نفسه يجد لذة كبرى في أن يؤكد قوته بإزاء الآخرين . وهذه النزعة سوف تتأكد من بعد حينما يبلغ الطفل الرابعة أو الخامسة من عمره ، إذ أنه سوف يجد لذة مضاعفة في أن يشترك مع

أبويه في أية لعبة قد تحقق له ضرباً من الانتصار على والديه أو على أحدهما . وقد يتضاعف الضحك الناشئ عن مثل هذه المواقف في سن متأخرة حينما يقترن بعملية تحرير لبعض الميول المكبوتة في علاقة الطفل بأبويه .

وبعد ظهور كل تلك الضروب المختلفة من الضحك ، يكون في وسع الطفل أن يضحك لمراى الهزيمة البسيطة أو الفشل الهين الذى يُمْنَى به الآخرون . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يحدث حينما تنزل قدم الأم فتسقط على الأرض ، أو حينما يتظاهر أحد الوالدين بالبكاء ، أو حينما يعاقب طفل بالضرب على مراى من طفل آخر . . . الخ . ولكن يجب أن نلاحظ أن هذا النوع من الضحك يفترض قسماً غير قليل من النضج ، فضلاً عن أنه يتوقف على نوع الضائقة التى تحمل بالآخرين . وقد ذكر أحد الباحثين في هذا الصدد أن مراى أطفال يُعاقبون بالضرب قد أثار ضحكاً عاماً بين أطفال في سن السادسة من عمرهم ، بينما هو لم يثر مثل هذا الشعور لدى أطفال آخرين أصغر منهم سناً .

وثمة نوع آخر من الضحك نراه يتردد بكثرة لدى الأطفال في سن الثانية من عمرهم ، ألا وهو الضحك أثناء الاشتراك في لعبة جماعية . وهنا تظهر الصبغة الاجتماعية لظاهرة الضحك ، فإن الطفل ليجد الكثير من الاستثارة في القيام بألعاب مشتركة تنطوى على ضرب من المخاطرة

والمفاجأة . . . الخ . وأبسط نوع من أنواع هذا اللعب المشترك تلك اللعبة التي يقوم فيها الأب بدور « الأسد » فيختبئ وراء حائط أو قطعة أثاث بالحجرة ، لكي لا يلبث أن يفاجئ طفله في حركة سريعة خاطفة ، فينفجر الطفل ضاحكاً لشعوره بالمفاجأة والخوف البسيط والعجز عن الهرب ! وقد يصدر الطفل بادي ذى بدء مجموعة من الأصوات الحادة التي تدل على الخوف أو الجزع ، ولكنه لا يلبث بعد ذلك أن ينفجر ضاحكاً ، طالباً إلى والده معاودة القيام بدور الأسد . وربما كان في وسعنا أن نقول إن هذا النوع من الضحك ينطوي على عناصر سبق لنا الوقوف عليها في بعض الأنواع السابقة ، مما يجعل بعض الباحثين يأبى أن يُفرده على حدة في تصنيفه لأنواع الضحك عند الطفل ، خصوصاً وأن الضحك المشاهد أثناء ألعاب الطفل الجماعية كثيراً ما يقتن بابتهاج الطفل لتغلبه على غريمه أو انتصاره على أحد الأشخاص البالغين (وهو ما سبق لنا التحدث عنه) .

وهناك نوع آخر من الضحك نلحه لدى الأطفال في سن متأخرة نسبياً ، ألا وهو الضحك المُفْرِض الذي يُقصد به إضحاك شخص آخر ، خصوصاً بعد ارتكاب الطفل لأمر منكر قد يعاقب عليه ! فالطفل الذي يضحك بعد ارتكابه لعمل محظور إنما يريد بضحكه أن يبعث والديه على الضحك ، حتى يضعهما في موقف ودي ، فيضمن بذلك

التخلص من العقاب ! وإذن فنحن هنا — لأول مرة — بإزاء ضرب من الضحك الصناعي الذي يُتخذ واسطة اجتماعية للتقرب إلى شخص أو التودّد إليه . ولعلنا ندح هنا بذور تلك الضحكات الاجتماعية التي اعتدنا بها أن نواجه الأشخاص الذين لا نرتاح إليهم ، وكأننا نحن نريد من وراء ضحكنا أن نخلق في أنفسنا (وفي أنفسهم) حالة ارتياح مصطنعة لا وجود لها في الأصل !

وأخيراً يمكننا أن نشير إلى نوعين آخرين من الضحك يفترضان أيضاً قدراً غير قليل من النضج النفسي ، ألا وهما الضحك الناشئ عن التنافر في الألفاظ أو المفارقة في الأفكار ، كما يظهر على الخصوص في نكات « التورية » (*Puns*) ، ثم الضحك لمجرد حدوث بعض المصادفات العارضة . والنوع الأول من هذين النوعين يتوقف على نمو الوظائف الفكرية واللغوية لدى الطفل ، خصوصاً بعد انتقاله إلى المدرسة واختلاطه بغيره من الأطفال . ولعلّ من هذا القبيل ما يروى عن تلميذ في السابعة من عمره ، من أنه كان يقول لإخوانه في المدرسة : « كل من ينظر إليّ ألعنه ، ألا لعنة الله على الناظر » ! وأما النوع الثاني من الضحك ، فهو يظهر على الخصوص حينما يلتقي الطفل بمصادفات غير متظّرة ، كأن يرى شخصين ينطلقان بنفس الكلمات أو يقومان بنفس التصرفات ، أو كأن يلتقي بتلميذين يشبه كل

الفصل الرابع

الدلالة الاجتماعية للضحك

١٢ — هل يضحك الإنسان بمفرده ؟ أو هل يمكن اعتبار الضحك ظاهرة فردية بحتة ؟ — إن الذين يرون في الضحك عملية فسيولوجية أرادت من وراثتها الطبيعة أن تجدد للجسم منصرفاً للطاقة الزائدة ، وأن تقدم للرئتين وسيلة نافعة تنشط بها عضلات التنفس ، يقولون لنا إن الضحك ظاهرة جسمية فردية مثلها كمثل أية عملية فسيولوجية أخرى . ولكن هؤلاء ينسون أن عملية الدغدغة نفسها — وهي أظهر صورة جسمية للضحك — تفترض مجتمعاً صغيراً يتكوّن من شخصين ، وأن الشخص الفاعل في هذه العملية — وهو الذي يُحدث الدغدغة — يضحك هو نفسه لأنه يضحك الشخص الآخر ! حتّى إن بعض الأشخاص قد يضحكون بمفردهم ، ولكن مثل هؤلاء الأشخاص لا بد من أن يبدو لنا بمظهر الشواذ ، مثلهم كمثل الأشخاص الذين يكلمون أنفسهم ا وحتى حينما يضحك الشخص بمفرده ، فإنه ليس معنى هذا أنه بمنأى تماماً عن شتى العوامل الاجتماعية التي يمكن أن تولّد لديه الضحك ، بل إن الإنسان ليحتمل آثار الآخرين حتى في عزلته . وإذن فإن من العبث أن نتساءل عما إذا كان الضحك ظاهرة فردية أم جماعية ،

لأن « وجود الإنسان لذاته » *L'être pour soi* لا ينفصل منذ البداية عن « وجوده للآخرين » *L'être pour autrui* ^(١) ، وبالتالي فإن الضحك يفترض دائماً وجود « الآخر » الذى أسخر منه ، أو أهزأ به ، أو أتعاطف معه ، أو أشارك معه فى السخرية من شخص ثالث ، أو أبادل معه النكتة ، أو أقلده فى ضحكه دون أن أعرف السبب الذى من أجله يضحك . . . الخ .

ويذهب برجسون فى هذا الصدد إلى أن الإنسان ما كان يمكن أن يقدر الكوميديا أو يتذوق النكتة لو أنه كان يشعر بأنه وحيد يحيا فى عزلة عن الناس .: وذلك لأن الضحك بطبيعته فى حاجة إلى أن يُردّد أصداؤه وينشر إشعاعاته ، فهو فى صميمه ظاهرة اجتماعية . ولكنه ظاهرة اجتماعية لا تحيا إلا فى دائرة مغلقة ، لأن ضحكنا هو باستمرار ضحك جماعة معينة من الناس ، أو ضحك طائفة محدودة من الأفراد . وقد يجلس المرء إلى جوار جماعة من المسافرين فى قطار ، فيستمع إلى ضحكاتهم العالية وقهقهاتهم الرنانة ، ولكنه مع ذلك لا يشاطرم ضحكهم ، حتى ولو كانت النكات التى يتبادلونها طريقة تنبزع الإعجاب وتستدر الضحك . ولو كان المرء واحداً من جماعتهم ، لانفجر ضاحكاً ، ولما تردّد فى أن

Francis Jeanson: «Signification humaine du Rire». (١)

P. U. F., 1950, pp. 90, 146.

يشاطرم قهقهاتهم المتواصلة . . . ولكن المرء ينظر فيجد نفسه وحيداً
ليس من جماعتهم ، ومن ثم فإنه لا يسمح لنفسه بأن يضحك معهم ،
أو هو قد لا يجد في نفسه أية رغبة في أن يشاطرم ضحكهم . وقد سئل
رجل كان يستمع إلى عظة مؤثرة في إحدى الكنائس — ولم يكن من
أهل الحى — : « لماذا لا تبكى وكل من حولك يكسب الدمع من
فرط التأثر ؟ » فأجاب « لست من أتباع هذه الكنيسة ، فأنى
غريب » . وهذه المقالة قد تصدق على الضحك أكثر مما تصدق على
البكاء ، فإن الضحك يستلزم ضرباً من المشاركة بين الضاحك وغيره
من الضاحكين ، واقعين كانوا أم خياليين . — وربما كان أكبر دليل
على أن الضحك ظاهرة اجتماعية ، أنه كلما زاد عدد النظارة في المسرح ،
زادت بالتالى ضحكاتهم واشتد هتافهم وتصفيقهم . هذا إلى أن كثيراً من
النكات والديعابات الهزلية لا تقبل الترجمة من لغة إلى أخرى ، نظراً
لارتباطها بعبادات مجتمع معين وأفكار قوم معينين . . . ويخلص
برجسون من هذا كله إلى أنه إذا أردنا أن نفهم الضحك على حقيقته
فلا بد لنا من أن نتصوره في محيطه الطبيعي ، ألا وهو المجتمع ، كما لا بد
لنا أيضاً من أن نحدد الوظيفة النافعة التى يقوم بها ، وهى فى صميمها
— كما سنرى — وظيفة اجتماعية . فالفكرة الموجهة فى دراسة برجسون
للضحك هى أن الظاهرة التى نحن بصدددها لا تخرج عن كونها استجابة

لبعض مطالب الحياة الجمعية ، بمعنى أنه لا بد من أن تكون للضحك دلالة الاجتماعية^(١) .

والواقع أنه إذا كان بعض الباحثين قد ذهب إلى أن ظاهرة الابتسام والضحك محدّدتان تحديداً بيولوجياً — لا اجتماعياً — باعتبارهما مظهرين من مظاهر الغريزة الانسانية ، فإن معظم الباحثين مجمعون على القول بأن للضحك دلالة الاجتماعية باعتباره ظاهرة سيكو — سوسولوجية تتحكّم فيها « عقلية الجماعة » وطبيعة تراثها الحضارى ولوع آدابها العامة وحفظها من الترقى الاجتماعى . . . الخ . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول : إن الإنسان البدائى يضحك فى العادة من عيوب الآخرين الجسمية ونقائصهم الخلقية وعاهاتهم الموروثة ، بينما نجد فى المجتمعات الراقية أن من شأن التربية الأخلاقية والتنشئة الاجتماعية أن تعمل على نهى الفرد عن الضحك لمثل هذه العيوب الجسمية أو العاهات الموروثة . — ويفرق بعض الباحثين بين الضحك عند البدائيين وعند غيرهم من المتحضّرين ، فيقرر أن ضحك البدائيين هو فى صميمه أشبه ما يكون بضحك الأطفال ، أعنى أنه ضحك ساذج تغلب عليه نزعة السخرية وروح المعاكسة ، فضلاً عن أنه يتسم بروح عدائية نحو الأجانب ممن يعتقد أهل القبيلة الواحدة

Bergson: « Le Rire; Essai sur la signification (١)
du comique », pp. 4—6.
(٥ — الضحك)

أنهم أسمى منهم . ولكن ربما كانت الصفة الأساسية الميزة للضحك البدائي هي غلبة الصبغة الجماعية عليه : فإن ضحك البدائيين في معظمه ضحك « إجماعي » *Unanimiste* تقوم به الجماعة كجوقة واحدة ، وتظهر فيه آثار العدوى الاجتماعية التي تسرى بين كل أفراد الجماعة بسرعة البرق . وأما في الجماعات المتحضرة ، فإن الضحك — كما سيقول سلى *Sully* — يميل إلى اكتساب الطابع الفردي ، بمعنى أن الفرد يصبح أقدر على الضحك بمفرده والاستجابة للمؤثرات الفكاهية حتى وهو في عزلة عن الجماعة .

يبد أنه لن يكون في وسعنا أن نسلم بانفعال الضحك في ترقيه من الصبغة الجماعية إلى الصبغة الفردية ، لأن البدائيين أيضاً يمارسون الضحك الفردي في كثير من المناسبات ، كما أنه يكفي أن يشاهد المرء رواد المسارح الهزلية أو دور اللهو أو الكباريات وما شاكل ذلك حتى يتحقق من أن الضحك عندنا نحن المتحضرين ينتقل أيضاً بالعدوى ، وأنه لا يقل في صبغته الجماعية عن ضحك البدائيين أنفسهم . وإذن فإنه ليس من الصحيح أن تاريخ الضحك هو عبارة عن تقدم متصل (أو حتى غير متصل) نحو الفردية ، كما زعم بعض الباحثين . حقا إن روح الفكاهة — وهي أثر من آثار الترقى الاجتماعي — مصطبغة بالصبغة الفردية في جانب منها ، ولكننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن

موليير فرنسى قبل أن يكون موليرياً ، وشكسبير إنجليزى قبل أن يكون شكسبيرياً ، وبرناردشو إيرلندى قبل أن يكون شويماً ، فكل واحد من هؤلاء يعبر عن بلده وعصره ، بقدر ما يعبر أيضاً عن مزاجه الفردى ؛ وهو على الرغم من أصالته الفنية لا بد من أن يكون صدى لتراث بيئته الفنية ، ولسان حال لما فيها من تيارات جمالية يتأثر بها ويؤثر فيها^(١) .

١٣ — ولو أننا أنعمنا النظر فى الدلالة الاجتماعية للضحك ، لوجدنا أن من شأن الضحك — باعتباره تعبيراً عن الانفعال — أن يجتذب إلينا انتباه أشباهنا من الناس ، وأن يتزعج لنا منهم الاستجابة الصحيحة للملائمة . أما فيما يتعلق بسلوكنا نحن ، أعنى هل نضحك أم لا ، ومتى ينبغي أن نضحك ، فهذا بدوره متوقف إلى حد كبير على موقف الآخرين منا . ومعنى هذا أن ثمة مناسبات مقبولة للضحك ، وأخرى لا يصح فيها أن نضح لأنفسنا بالضحك . والآداب العامة لكل مجتمع هى التى تحدد لأفراده الأساليب العامة التى ينبغى أن يحتذوها فى استجاباتهم حتى يكتفوا سلوكهم مع مقتضيات كل موقف^(٢) . وآية ذلك أنه قد يروق لنا أن نضحك فى بعض الظروف ، ولكن الآداب كثيراً

Cf. Lalo: «La Sociologie du Rire»; in «Esthétique (١) du Rire», Flammarion, 1949, p. 188.

(٢) يقول المثل عندنا فى العامة «الضحك من غير سبب لله أدب» ، و«السبب» هنا هو ما اصطلاح عليه المجتمع .

ما تمنعنا من الاستجابة لتلك المواقف بما يحلو لنا : فهذا — مثلاً — واحد من أهل « النشر » (كما نسميهم بلغتنا العامية) يسرد على سامعك في سذاجة وبساطة سلسلة أعمال البطولة والشهامة التي استطاع أن يقوم بها ، وأنت تستمع إليه محاولاً بكل قوتك أن تأخذ نفسك بشيء من الصرامة والجد حتى لا تنفجر ضاحكاً في وجهه ! ولكن صاحبنا يأبى إلا أن يقص عليك تاريخ أجداده وآيات بطولته حتى النهاية ، فتدعه يمضي في أحاديثه الجميلة المنقطة ، بينما تسعى جاهداً في سبيل كتم فحشكاتك ، وأنت تسخر منه في قرارة نفسك ! فإذا كان إلى جوارك شخص ثالث يشاركك الحكم على ذلك الكذب الدعوى ، اختلست النظرات إلى عيني صديقك ، ولسان حالك يقول : « ألا ترى معي أن الموقف هزلي حقاً ؟ ... » ولكنكما لن تضحكا ، أو ستحاولان ألا تضحكا ، فإن الآداب العامة ل تمنعكما من السخرية بالغير على هذا النحو السافر ؛ ومع ذلك فإنكما ستكونان بمثابة « الجمع » الصغير الذي يدين ذلك الدعوى الكذوب^(١) .

والواقع أن الضحك هو السيف المصلت الذي تسلطه الجماعة على رقاب الخارجين على معاييرها الجمعية وآدابها العامة . وكل من تحدته نفسه بالخروج على قوانين الجماعة وأساليب سلوكها ، فإنه لابد من أن

cf. F. Jeanson : La Signification humoristique (١)
Rire, Seuil, 1950, p. 91—2.

يستهدف لسخريتها اللاذعة ونجبتها الموجه . وليس أدل على كون الضحك أداة اصطفاها المجتمع لتأديب أفرادها ، من أن الجماعة واقفة بالمرصاد لكل من يستهين بتقاليدها أو يستخف بمعاييرها ، فهي ما تكاد تلح سلوكه الغريب حتى تصب على رأسه النكات صبا ، فلا يلبث أن يجد نفسه مضطرا إلى أن يرتد من جديد إلى حظيرتها . ولعل هذا هو ما عناه الفيلسوف الإنجليزي سالى Sally حينما قال إن الضحك عامل صراع يساعدنا على أن نجاهد في سبيل استبقاء الحياة الجمعية على ما هي عليه ، لأنه يسمح لكل جماعة بأن تحافظ على كيائها في حدود تقاليدها وعرفها . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إنه حينما تسخر الجماعة الواحدة من غيرها من الجماعات (باعتبارها جماعات مغايرة لها) فإنها تحافظ بهذه السخرية نفسها على صميم كيائها الاجتماعي . ولكن إذا كان للضحك صبغة محافظة من حيث هو أداة تواجه بها الأجنبي ، فإنه على العكس من ذلك قد يقوم بوظيفة النقد والإصلاح بالنسبة إلى الجماعة ذاتها ، لأنه بسخريته من العادات البالية والتقاليد العتيقة إنما يعمل على خلق جو جديد في صميم الجماعة . ومن هنا فإن للضحك وظيفة اجتماعية نافعة ، لا باعتباره أداة محافظة تضمن بقاء التقاليد واستمرار الآداب العامة المرعية فحسب ، وإنما باعتباره أيضاً وسيلة فعالة لتحقيق ضرب من « التغير الاجتماعي » Social Change . ويضيف سلى أن الضحك يساند الطبقات العليا في نزوعها نحو استبقاء ما لها من امتيازات ، ولكنه في الوقت نفسه يحد من

غرورها ويطامن من صلفها . ثم يستعارد هذا الباحث الإنجليزي فيقول :
« ولكن الضحك أيضاً هو الثأر السلى العادل لجماعة الضغاء من أطفال
ونساء وعقال ، لأنه في أيديهم كأقصى سلاح » ^(١) .

يبد أن الملاحظ بصفة عامة أن نظرية كل باحث في تحديد الوظيفة
الاجتماعية للفكاهة والضحك ، لا تكاد تنفصل عن مذهبه في بيان
أسباب الضحك وتعليل الفكاهة ؛ ومن هنا فقد نشأت نظريات عديدة
في تحديد طبيعة الوظيفة التي تقوم بها الفكاهة في حياتنا الاجتماعية .
ولعل من هذا القبيل مثلاً ما ذهب إليه برجسون من أن الضحك وسيلة
فعالة لتصحيح — أو تعديل — تلك الآليات الضارة التي تنطوى عليها
حياتنا الاجتماعية العادية بإظهارنا على ما فيها من سخف وعيب وتفاهة .
ولنا بمعرض الحديث عن تعليل برجسون للضحك ، ولكن حسبنا
أن نقول إنه لما كان سبب الضحك في نظره هو تصرف الإنسان
كما تتصرف الآلة بغير تمييز أو تكيف أو مرونة ، فإن من الطبيعي أن
تكون وظيفة الضحك عنده هي القيام بدور المقوم الاجتماعي الذي
يتطلب من كل فرد منا خطأ غير قليل من المرونة ، والتكيف مع الحياة ،
والانصراف عن الآليات الضارة على نحو ما تتمثل في العادات الرتيبة

cf. James Sally: «An Essay on Laughter», London (١)
1902 (trad. franc., 1904).

والانفعالات المتأصلة . والواقع أن الجماعة حينما تسخر من الشخص الذى يبدو لها بمظهر الآلة الميكانيكية أو الجهاز الصناعى أو الشئ الجامد ، فإنها إنما تتخذ من الضحك سلاحاً تسعى به إلى المحافظة على المرتبة التى وصلت إليها الإنسانية فوق الجماد والحيوان . وما تريد الجماعة أن تقضى عليه لدى أفرادها ، إنما هو جهود البدن ، وتصلب العقل ، وتحجر الخلق ، لأنها تريد لهم أعظم قسط ممكن من المرونة ، وأعلى درجة ممكنة من الروح الاجتماعية . وهذا الجود هو فى حد ذاته مدعاة للسخرية ، ومن هنا فإن الضحك يحىء لى يكون بمثابة « العقوبة الاجتماعية » التى يفرضها المجتمع على ضحايا الجود والآلية والرتابة . وبعبارة أخرى فإنه لما كانت الكوميديا البشرية إنما تعتبر عن انعدام تكيف الفرد مع الجماعة ، فإن السخرية التى نلقى بها ضحايا انعدام التكيف أو سوء التوافق إنما هى فى صميمها ذات دلالة اجتماعية (دون أن تكون لها أدنى قيمة أخلاقية) . وإذن فإن ما يضحكنا لدى الفرد إنما هو سوء توافقه مع الظروف الاجتماعية ؛ وليس الضحك سوى المظهر الذى نعتبر به عن حكنا على ذلك الفرد بالجود والآلية وفقدان الروح الجماعية^(١) .

H. Bergson: «Le Rire; Essai sur la signification (١)
du comique», 67 éd., p. 150.

cf. également: Charles Lalo: «Esthétique du Rire», 1949',
Ch. I., 5^e partie, p. 191 .

ولكن إذا كان برجسون قد اعتبر الضحك عاملاً مهماً من العوامل المؤدية إلى تحقيق ضرب من التقدم الاجتماعى ، فإن باحثين آخرين قد ذهبوا إلى أن الضحك يقوم بوظيفة « المصحح الاجتماعى » *social corrective* لأنه يعمل على صيانة الاستقرار الفكرى والاتحاد العاطفى — فى المجتمع الواحد — ضد شتى عوامل التنافر أو المفارقة أو الابتداع أو الإغراب . فالضحك فى نظر هؤلاء لا يؤدى وظيفة « الجزء الاجتماعى » لحسب ، وإنما هو يعمل أيضاً على تقوية الروح الجماعية والتعاطف الجمعى بين أفراد الجماعة الواحدة . وقد اهتم أحد علماء الاجتماع المعاصرين — ألا وهو دوپرل *Dupréel* — بدراسة الضحك من الزاوية الاجتماعية ، فقال إن الظاهرة الأولى فى « الضحك الاجتماعى » هى شىء أكثر من مجرد سريان عاطفة فردية أو انفعال فردى عن طريق العدوى ، أو على سبيل المحاكاة (كما زعم تارد *Tarde*) ، لأن الشىء المهم فى الضحك هو تلك الروح الجماعية الماثلة فى كل فرد منا (وإن كانت تلو علينا جميعاً) والتى تعمل عملها فى استجابتنا لبعض المواقف بالضحك . فليس للضحك وظيفة اجتماعية واحدة بعينها ، يؤدىها فى كل الظروف وشتى الملابس ، وإنما هناك استجابات جماعية متعددة تتمثل فى ضروب متعددة من الضحك . ولهذا يفرق دوپرل بين نوعين أساسيين من الضحك : « ضحك الترحيب أو الاستقبال » *Rire d'accueil* و« ضحك الطرد أو الاستبعاد » *Rire d'exclusion* ، على

أساس أن الفرد أو المجتمع الذى يضحك قد يتقبل أو يطرح الفرد أو المجتمع الذى يضحك منه . ومعنى هذا أن فى استطاعتنا أن نضحك من أى شىء ، ولكن ضحكنا لا يمكن أن يخرج عن أحد هذين السببين . وإذا ففحن هنا بإزاء قوانين الجاذبية السارية فى عالم الضحك ، لأنه إما ميل وانجذاب ، وإما طرد واستبعاد . . . وربما كان خير مثال لضحك الترحيب أو الاستقبال ذلك الانفعال السار أو تلك القبضة الجمعية التى تتلقى بها الجماعة أحداً أفرادها العائدين بعد غياب . وأما ضحك الطرد أو الاستبعاد ، فإنه يعبر بطريقة حادة عن حيوية الجماعة فى وقوفها صفاً واحداً ضد الأجنبي : تلمزه وتغضبه وتسخر منه . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يحدث فى بعض المجتمعات الرسمية حينما يدخل أحد المدعوين وقد نسى ارتداء رِبْطَةِ الرِّقَةِ فيلقاه باقى المدعوين بضحكة ملؤها العداء والازدراء ، أو ما يحدث فى مجتمعات القرويين حينما يصل إلى بلدتهم الصغيرة النائية سائح غريب فلا يلبث الفلاحون أن يتكتلوا جميعاً ضده ويسخروا منه ، أو ما يحدث أيضاً فى مجتمعات الأقوام المتوحشين حينما يرون لأول مرة مكتشفاً أجنبياً فيلقونه بروح التعجب والسخرية والعداء . ولا شك أن كل هؤلاء الأفراد ليسوا « مضحكين » أو « مدعاة للسخرية » فى ذاتهم ، وإنما باعتبارهم ممثلين لجماعة خارجة *out-group* نعدّها نحن جديرة بالسخرية لجرد أنها أجنبية . — وكثيراً ما يعبر الضحك عن موقف الاستهجان الجماعى ، كما فى مالة الشخص الذى يتعرض لسخراتنا

اللاذعة بسبب إصراره على اتباع « موضات » قدم العهد بها ؛ ولو أنه يجب في هذه الحالة ألا تكون تلك « الموضات » قد نسبت تماماً ، وإلا فإنها لن تستثير لدينا الضحك . كذلك يدخل في هذا الباب أيضا ضحكنا من لهجات أهل الأقاليم المجاورة لنا ، أو سخریتنا من بعض العادات المحلية السائدة لدى جماعات غير نائية عنا . — ويستطرد دورل فيقول إن ضحكات الطرد والاستبعاد قد لا تلبث أن تتحول إلى ضحكات استقبال وترحيب ، كما في حالة المسافر الذي نراه يقدّم إلينا في القطار فنلقاه بالسخرية والاستهزاء ، لكي لا نلبث أن ننسجم معه بعد أن تتوطد بيننا المعرفة ، وتتجاذب فيما بيننا أطراف الحديث ، فيشارك هو بدوره معنا في السخرية والضحك من القادمين الجدد الذين يفلدون إلينا في المحطات التالية ।

ويرى دورل أن الفكاهة *l'humour* هي مركب من القبول والرفض ، أعنى أنها مزيج من ضحك الاستقبال والترحيب وضحك الطرد والاستبعاد ، بدليل أن الضحك الذي يستثيره لدينا سوء تصرف مقل صغير ، قد يكون هو نفسه السبب الذي يدفعنا إلى أن نقبل عليه ونرغب في تقبيله । فهنا يستحيل باعث الطرد والاستبعاد إلى باعث إقبال وترحيب . — وإذا كان برجسون قد ذهب إلى أن للتراجيديا طابعاً « شخصياً » في حين أن للكوميديا طابعاً « عاماً » ، فإن

دوبرل يقول إن من الواجب أن نصحح هذه المقالة الأخيرة بأن نقرر أن للكوميديا طابعاً «جماعياً» . والواقع أن ما يبدو لنا صلباً جامداً عديم المرونة فاقد الحيوية إنما هو كل ما ينتمى إلى جماعة أخرى غير جماعتنا . فبرجسون قد أخذ الملول على أنه علة ، في حين أن «الجمود» الذي يعتبره هو الأصل في الضحك ، ليس النتيجة «مشتقة» *dérivée* مرجعها إلى اختلاف العادات الجمعية . وإذا كان برجسون قد اعتبر الضحك ضرباً من «التقويم الاجتماعي» ، فإنه دوبرل يرى أن الأدنى إلى الصواب أن يقال إنه ضرب من «الجزء الاجتماعي» *Sanction Sociale* . والسبب في ذلك أن الضحك لا ينطوى فقط على معنى الطرد والاستبعاد ، بل هو قد ينطوى أيضاً على معنى القبول والاستحسان^(١) .

١٤ — أما إذا انتقلنا إلى دراسة الضحك في المواقف الاجتماعية المختلفة ، فإننا سنجد أن فرويد يقرر أن الشيء المزهلي أو «الكوميدي» ليس هو الذي يكون في حاجة إلى جمهور (لأنه قد يكون في استطاعتنا أن نتذوقه ونستمتع به بمفردنا) ، وإنما الذي يحتاج بالضرورة إلى «جمهور» ، هو «النكتة» أو «الملحة» *Witt. Esprit* . فالنكتة تتطلب (على أقل تقدير) مجتمعاً صغيراً يتكوّن من ثلاثة أشخاص :

(١) cf. E. Dapréel: «Le Problème Sociologique du Rire», in «Revue Philosophique», 1928. (cité par Ch. Lalo op. cit., pp. 195—197)

راوى النكتة (وهو فى العادة أقلهم ضحكاً) ، والشخص الذى تروى عنه النكتة ، أو تُحكى عنه الدعابة ، أو تُصَبُّ على رأسه السخرية ؛ ثم المستمع الذى يقوم بدور الشاهد أو الحكم (والذى قد يكون فرداً أو جماعة) . وإذن فإن « النكتة » فيما يرى فرويد تفترض وجود ضرب من التماسك الاجتماعى — أو شبه الاجتماعى — بين الشخص الذى يرويها والشخص الذى يستمع إليها ؛ لأنه لولا هذا التماسك الاجتماعى أو تلك المشاركة النفسية لما كان فى وسع صاحب النكتة أو الدعابة أو « النَّقْشَة » (كما نقول أحياناً بالعامية) أن ينجح فى إصابة مرماه ، ووضع الشخص الذى يسخر منه موضع الضحك . وتبعاً لذلك فإن لكل نكتة جمهورها ، بحيث إنه قد يصح أن نقول إن الاشتراك فى الضحك من نكات معينة هو الدليل الأكبر على الاشتراك فى عقلية واحدة أو الانتماء إلى فصيلة نفسية واحدة . ولنضرب لذلك مثلاً فنقول إن الشخص الذى لا تضحكه سوى الدعابات المأجنة والنكات البذيئة قد لا تكون استجابته للفكاهات الراقية والتلميحات الذكية البارة سوى الازدراء وعدم الاكتراث . وهكذا يمكننا أن نقرر بصفة عامة إن الأشخاص الذين يتذوقون فكاهات مشتركة ، ينتمون فى الغالب إلى وسط اجتماعى مشترك^(١) .

cf. S. Freud: «*Wit and Its Relation to the Unconscious*», New-York, Moffat Yard, 1916. (trad. franç., 1930)

وليس أدل على تأثير البيئة الاجتماعية على نوع استجابتنا للمؤثرات الفكاهية ، مما لاحظته كثير من الباحثين النفسيين والاجتماعيين في مجتمعات اللهو والهزل والتسلية ، من سرعة في الاستجابة للفتيات المضحكة ، ونساح في قبول شتى أنواع الدعابة . والواقع أنه حينما يتردد الناس على المسارح أو دور اللهو لسماع بعض المونولوجات الخفيفة والنكات الطريفة ، أو لمشاهدة بعض المسرحيات الكوميديّة والروايات الهزلية ، فإن من المؤكد أن من شأن طبيعة « اجتماعهم » أن تعمل على زيادة ضحكاتهم وسرعة استجاباتهم . وهناك نوع من المسارح في باريس يسمونه باسم مسارح المتنوعات أو الأغاني الخفيفة « *Les Chansonniers* » ، وفيه تعلق صيحات الجمهور الضاحك الذي اعتاد تذوق هذا النوع من الفكاهة ، والتقاط ما فيها من لمحات بارعة ودعابات لاذعة ، وفهم ما تنطوي عليه من سخرية وتهكم واستهزاء . وأما حينما يكون المتفرج من غير رواد هذا النوع من المسارح ، فقد يعجز لأول وهلة عن تقدير ما يستمع إليه من دعابات ، أو هو قد لا يفهم المدلول الخفي لما فيها من إشارات وتلميحات . ولما كان الاندماج في المجتمع هو الشرط الضروري لمشاركة أفراد فكاهتهم وضحكهم ، فإنه ليس بدعا أن يبقى الإنسان في حالة عدم اكتراث حينما يجد نفسه في مجتمع أجنبي تعلق صيحات أفراد إعجاباً بنكتة يراها هو « سخيفة » لا معنى لها ، نظراً لعجزه عن « التكيف » مع الطبيعة الفكاهية لذلك المجتمع . ومن هنا فإن لكل

مجتمع طريقته في الدعاية ، وأسلوبه في التفكه ، وأنماطه الخاصة في إطلاق النكتة والضحك لها . وهذا ما حدا ببعض الباحثين — كما سنرى فيما بعد — إلى دراسة أخلاق الشعوب من خلال نكاتهم ، فإن من المؤكد أن الفكاهة هي خير مرآة تنعكس عليها أحوال كل مجتمع وما مر به من أحداث ، وما اكتسب من مقومات ، وما اندمج في خلقه من سمات .

يبد أن التجارب قد دللتنا على أن بعض الأوساط الاجتماعية قد تسبب في ارتفاع نسبة النكات « السخيفة » أو الفكاهات المبتذلة ، نظراً لأن من شأن الوسط الاجتماعي في بعض الأحيان أن يضعف لدى الأفراد القدرة على الحكم والتمييز ، أو أن يعمل على الحد من قوام النقدية . وكثيراً ما يهتق الفرد لنكتة يستمع إليها في بيئة اجتماعية معينة ، بينما هو قد لا يستجيب لها بأكثر من ابتسامة باهتة حينما يكون بمفرده . ومع ذلك فقد لوحظ في مناسبات أخرى أن من شأن بعض الأوساط الاجتماعية أن تعمل على تنويع أفانين النكتة ورفع مستوى الفكاهة ، إذ تكون الجماعة متحفزة لتلقف النكتة البارة الممتازة ، وأطراح النكتة المعادة المبتذلة ؛ فتعلو صيحات الجمهور عندئذ مذبذبة بالنكتة « السخيفة » (لأنها « قديمة » أو « بايخة » كما نقول بالعامية) ، بينما تشق ضحكاتهم عنان السماء عند سماعهم للنكتة الرائعة التي تنتزع استحسانهم وتلهب أيديهم بالتصفيق ! وقد يكون من الطريف في هذا

الصدد أن يعتمد الباحث إلى دراسة استجابات عدة طوائف متباينة من الجمهور لرواية هزلية بعينها ، أو أن يقوم بدراسة استجابات طائفة اجتماعية واحدة لمسرحية هزلية بعينها في مناسبات مختلفة . وهنا لا بدّ من أن تظهر لنا التجربة على أن استجابات الجمهور تختلف باختلاف آدابه العامة وأنماطه السلوكية وطريقته في الضحك ، كما أنه لا بدّ للتكرار من أن يلعب دوره في التخفيف من حدة استجابة الطبقة الواحدة لرواية بعينها تشهدها للمرة الثالثة أو الرابعة مثلاً . كذلك لوحظ أن ثمة علاقة اطرادية بين شدة الضحك في قاعة المسرح أو السينما ، وبين عدد النظارة الذين يشهدون العرض . وحينما يؤدّى المسرحية الهزلية ممثلون حديثو عهد بفن الكوميديا ، فإن من المؤكد أنه لا بدّ من أن تضعف عاصفة الضحك في المسرح : إما لأن الممثلين لا يتركون للجمهور من الوقت ما يكفي لتذوق النكتة والاستجابة لها بالضحك ، أو لأن قلة مراتهم ونقص تجربتهم قد يحولان بينهم وبين انتراع استحسان الجمهور ، فلا يندمج الجمهور تماماً في شتى المواقف الفكاهية التي تنطوى عليها الرواية .

من كل هذا يتبين لنا بوضوح أن الجمهور لا يضحك دائماً لنفس الأشياء ، وأنه لا يضحك دائماً بنفس الطريقة . وقد ربط بعض الباحثين بين الضحك واللعب ، فقال إنه كما أن المرء لا يمكن أن يلعب بمفرده ، فإنه كذلك لا يمكن أن يضحك بمفرده ؛ وكما أن اللعب على أنواع ، فكذلك الضحك على أنواع . وليس أدلّ على

ما للمجتمع من تأثير على تقدير الأفراد للفكاهة ، من دراسة الضحك عند صغار الأطفال : فقد أثبتت هذه الدراسة سوء ذوق الطفل في تقدير الفكاهة ، فضلاً عن انطواء المواقف المزلية لدى الأطفال على الكثير من الاتجاهات الوجدانية غير المرغوب فيها اجتماعياً . والحق أن علماء النفس الذين اهتموا بدراسة الفكاهة عند الطفل قد تحققوا من وجود هوة كبيرة تفصل ذوق الأطفال في تقدير الفكاهة عن ذوق البالغين (خصوصاً من بين معلمهم) . وتبعاً لذلك فإن الأطفال قلما يطمثون إلى ذوق الكبار فيما يختارون لهم من مجلات ، أو ما يجبرونهم على مشاهدته من أفلام ، أو ما يستحسنونه لهم من وسائل تلية . وحينما يصرّ بعض الوالدين أو المربين على أن يفرضوا أذواقهم الفنية على أطفالهم ، فقد يترتب على ذلك أن يتبادى هؤلاء في رفض كل ما يختاره لهم الكبار من قصص أو مطالعات أو روايات فكاهية أو أفلام سينمائية . . . الخ . ولكن الملاحظ عموماً أنه بمجرد ما تكتمل التنشئة الاجتماعية للطفل ، فإنه سرعان ما يكتسب ذوق البالغين في تقدير الفكاهات والاستجابة لثقى المؤثرات المزلية ، ومن ثمّ فإننا نقول إنه قد تطبع بالروح الفكاهية المميّزة لمجتمع الخالص^(١) .

cf. Flugel: «Humor and Laughter»; in «Handbook (١) of Social Psychology», 1954, Vol. II., Edited by G. Lindzey, pp. 730-731.

١٥ - وقد يكون من نافلة القول أن نقرر أن للضحك والفكاهة علاقة وثيقة بالقيم النهارية في المجتمع من جهة ، والقيم المقدسة التي تحيطها الجماعة بالإجلال والاحترام من جهة أخرى . فالمجتمع الذي يقدس النظام العائلي ، ويرفع من شأن السلطة الزوجية ، كما هو الحال مثلاً عندنا في الشرق العربي ، لا يمكن أن يسمح لأفراده بأن يحملوا من موضوع « الخيانة الزوجية » موضوعاً فكاهياً تدور حوله الكثير من الروايات الهزلية والنكات المضحكة ، كما هو الحال في بلد مثل فرنسا مثلاً . والمجتمع الذي يحترم شخص « الحماة » ، ويضع في يدها الكثير من السلطات ، كما هو الحال في الصين مثلاً ، لا يمكن أن يأذن لأفراده بأن يتخذوا من « الحماة » موضعاً للسخرية ، كما يحدث في كثير من الفكاهات الأوربية والأمريكية^(١) . الخ . والمجتمع الذي تنزعزع فيه سلطة رجال الدين ، قد تتحول كل نكاته نحو الكهنة والرهبان وأصحاب العاثم السود ، كما هو الحال اليوم في المجتمع الفرنسي مثلاً . والمجتمع الذي يعنف فيه الصراع بين الطبقات ، قد تتخذ فيه الطبقة الكادحة من « الفكاهة » سلاحاً تلمن به الطبقة البورجوازية ، فتسفن في ابتكار النكات التي تسخر فيها من عادات أهل تلك الطبقة وأنانيتهم وطعمهم وحبهم للاستغلال . الخ . والبلد الذي ينقسم أهله إلى قرويين

Ch. Lalo: «*Esthétique du Rire*», Paris, Flammarion, (١)
1949, pp. 203-204.

وسكان مدن ، قد يسخر فيه المدنيون من الريين الذين يريدون أن يظهرُوا بمظهر المتأقين (خصوصاً أيام الأحاد في البلاد الأوروبية) ،
بينما يسخر أهل الريف من سكان المدن حين يطوفون بقرام للسياحة
وتمضية العطلات . وهكذا نرى أن كل طبقة تدافع عن قيمها ، متخذة
من « الفكاهة » أداة تستعين بها على إظهار قيم غيرها بمظهر « البدع »
المستهجنة . وحينما تسخر الطبقة البورجوازية من العامل الذي يتأنق
في ملبسه ، فكان لبان حالها يقول : « إنك لتبدي من الأناقة
ما هو كثير على من كان في مثل طبقتك ! »

ولسنا في حاجة إلى أن نبين ما للنكتة من علاقة وثيقة بشتى
الظواهر الاجتماعية : فإنه لمن الحديث المعاد أن نقول إن الصراع الطبقي
يخلق النكات الاجتماعية ، والكبت الجنسي يولد الكثير من الفكاهات
الجنسية ، والنقر يعمل على ظهور الكثير من النكات العدوانية ، والثقافة
العصبة تزيد من أصالة النكتة وتصل روح الفكاهة ... إلخ . وقد اهتم
بعض الباحثين بدراسة العلاقة بين الحرب والفكاهة ، فأظهرنا قوم منهم
على أن الفكاهة نفسها مظهر من مظاهر العدوان ، وقالوا إنها تمد أهلها
بإحدى الوسائل الفنية البارعة في محاربة العدو ؛ بينما عني آخرون بأن
يكشفوا لنا عن التطورات التي تطرأ على روح الفكاهة لدى الأفراد
والجماعات إبان الحروب والأزمات الساسية . ولعل من أهم مظاهر التطور
التي تطرأ على الفكاهة في زمن الحرب ، اختفاء مظاهر العداء بين

طوائف الشعب الواحد ، مما كانت تكشف عنه نكاتهم العديدة بما فيها من سخرية وتهكم من قِبل الطبقة الواحدة ضد غيرها من الطبقات . وهكذا تمحى النوادر التى يتناقلها الناس عن الأقليات — كاليهود أو الزوج — وتختفى النكات التى تتسم بطابع التعصب أو العداء أو الازدراء . وعلى الرغم من أن « العدو المشترك » هو الذى يصبح إبان الحرب موضع سخرية الشعب ، ومثار نكاته وفكاهاته ونوادره ، إلا أن الملاحظ بصفة عامة أن هذه الفكاهات قلما تميل إلى تصوير العدو بصورة الخضم الضعيف الذى لا حول له ولا طول ، خثية أن تسرى بين أفراد الجمهور روح الاستهتار ، فتضعف المقاومة الشعبية وتفتقر الجهود الحربية . وإذن فليس من الضرورى أن تؤدى روح الفكاهة إلى إضعاف روح الجدّ (*Seriousness*) لدى أفراد الجماعة ، بل قد تترد روح الفكاهة على الجمهور نفسه ، فتتحه عن طريق الدعاية إلى مضاعفة جهده وزيادة مقاومته ، حتى يتسنى له القضاء على ذلك الخضم العنيد الذى يصب عليه جام غضبه . وقد يتجه عدوان الجمهور الفكاهى — فى بعض الأحيان — نحو « المواطن الانعزالى » الذى يستغف بقبضة بلاده ، أو الذى يهز كتفيه فى غير ما اكتراث بالمسئولية الوطنية .

وصفوة القول أن معظم الباحثين مجمعون على القول بأنه وإن كان الضحك ظاهرة فسيولوجية تدخل فى صميم تكويننا البيولوجى باعتبارنا بشراً ، إلا أنه فى الوقت نفسه ظاهرة نفسية وثيقة الصلة بكل ما يحيط

بالأفراد من ظروف اجتماعية . وإن الضحك ليتأثر — كغيره من الظواهر — بشتى عوامل التغير الاجتماعى ، ولكنه هو نفسه قد يكون بمثابة أداة تعيننا على تحقيق ذلك التغير الاجتماعى . وقد رأينا أن الموضوعات المضحكة تختلف باختلاف المجتمعات ، كما أن التغير الاجتماعى الذى يطرأ على مختلف الأوساط من شأنه أن يعكس آثاره على موضوعات فكاهتها . فليس بدعا إذن أن يقول أحد الباحثين إنه ليس ثمة ضحك ، بل هناك ضروب شتى من الضحك ، فإن الضحك ليس « جنسا » ، بل هو مجموعة من « الأنواع » ...^(١) . ونحن نضيف إلى هذه العبارة ، أنه ليس ثمة « ضحك فى ذاته » ، بل هناك نماذج مختلفة من الأفراد الضاحكين والمجتمعات الضاحكة .

Cf L. Dugas: «Psychologie du Rire», Paris, 1902-; (١)
pp 166-167

الفصل الخامس

مشكلة تحليل الضحك

١٦ — إذا ألقينا نظرة عامة على البحوث الكثيرة التي كتبها الفلاسفة وعلماء النفس في دراسة الضحك، فإننا نجد أن المشكلة الرئيسية التي استرعت انتباه معظم هؤلاء الباحثين لا تكاد تعدو محاولة « تحليل الضحك ». ومعنى هذا أن السؤال الجوهرى الذى أثاره هؤلاء المفكرون هو ضرورة الوقوف على السبب أو الأسباب التى تبعثنا على الضحك. وهذا ما عبّر عنه ودورث بقوله : « إن أعسر مشكلة تواجهنا حينما نكون بصدد دراسة الضحك هى أن نحدد بلغة علم النفس العام نوع المنبة الذى يستثيره . »^(١) ولكن بعض الباحثين الذين حاولوا تفسير الضحك قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى اعتباره مجرد حدث طبيعى بين غيره من أحداث الطبيعة، فلم يعد الضحك فى نظرهم فعلا أو عملية، بل أصبح شيئا أو موضوعا. وهكذا انصرفوا إلى دراسة كوميديا الطبيعة، وحاولوا أن يفسروا الضحك باعتباره حدثا تولده الطبيعة فى الإنسان. وبعبارة أخرى فقد وقع فى ظن هؤلاء المفكرين

R. S. Woodworth : «Psychology, A Study of (١) Mental Life», pp. 157-8.

أن مصادر الفكاهة كاملة في الطبيعة ، وأنه ليس على الباحث الذي يريد أن يفسر الضحك سوى أن يزيح النقاب عن تلك العلة الطبيعية التي تولد لدينا استجابة الضحك^(١) .

يبد أننا حينما نقول مع برجسون أو غيره من الباحثين : « إن المضحك أو المزلى هو كل ما يتصف بكذا أو كذا » ، فكأننا نتصور أن ثمة مصادر طبيعية للضحك ، على نحو ما توجد مصادر طبيعية للكهرباء مثلاً . ولكن الواقع أنه ليس ثمة شيء مضحك في ذاته *En-soi* يكون من شأنه دائماً أبداً أن يظل كذلك في شتى الظروف وكافة الأحوال . وآية ذلك أنه ليس ثمة فعل واحد ، أو ليس ثمة تصرف واحد ، يمكن أن نسمّيه بأنه « مضحك » أو « مزلى » *Comique* في حد ذاته . ولعلّ هذا هو ما عناه أحد الباحثين المعاصرين حينما قال : « إنه ليس ثمة مصادر للهزل في الطبيعة ، وإنما المصدر الوحيد للهزل كامن في الشخص الضاحك نفسه . »^(٢) . فليس في وسعنا إذن أن نبحث في الطبيعة الخارجية عن « العلة » أو « المؤثرات » التي تولّد لدينا استجابة الضحك ، وإنما لابدّ لنا من أن ندرس الضحك باعتباره ظاهرة

Cf. F. Jeanson: «Signification Humaine du Rire», (١) 1950, pp. 27—29.

Marcel Pagnol; «Notes sur le Rire», Paris. (٢) Nagel, 1947, pp. 14—17.

بشرية ، لا يؤثر فيها « الوسط » على « الذات » إلا بقدر ما تفهمه وتستطيع أن تحيله إلى « موقف » *Situation* ^(١) . ومعنى هذا أنه ليس ثمة قوى هزلية موضوعية تهيء فتحدث لدينا من الخارج استجابة الضحك ، وإنما نحن نضحك حينما نريد أن نستجيب لبعض المواقف البشرية بلغة الضحك التي تنطوى على دلالة اجتماعية يفهمها الآخرون . وعبثا يحاول الباحثون أن « يفستروا » الضحك أو أن « يعلّوا » الفكاهة ، فإنهم لن يستطيعوا أن « يفهموا » هذه الظاهرة الإنسانية باعتبارها مجرد « معلول » لحدث في « ذاته » كوميدي . وهذا ما عناه بودلير حينما كتب يقول : « إن الهزلي ، أو ما يمتلك القدرة على إضحاكنا ، إنما يمكن في الضاحك نفسه ، لا في موضوع الضحك بحال من الأحوال » . ويضرب بودلير لذلك مثلاً فيتساءل قائلاً : ما الذى يضحكنا — مثلاً — في منظر ذلك الرجل المسكين الذى تنزل قدمه فيتدحرج على الأرض ، وتتسخ ملابسه ، ويصاب برضوض في كل جسده ، أو قد تنكسر عظمة من عظامه ؟ إنه لمشهد أليم ، ولكننا مع ذلك ما نكاد نرى هذا المنظر ، حتى نتفجر ضاحكين ، دون أن نقوى على كبت انفعال الضحك الذى يستولى علينا ، ولو أننا نفذنا إلى أعماق فكر الشخص الضاحك في مثل هذه الحالة لوجدنا أنه

J. P. Sartre: «L' Etre et le Néant», Paris, (١)
Gallimard, 1949, p. 660.

في الحقيقة إنما ينطوي على كبرياء لا شعورية . ومعنى هذا أن نقطة البدء في الموقف الذي نحن بصدده إنما هي « الذات » أو « الأنا » ، وكان لسان حال الشخص الضاحك يقول : « أما أنا ، فأننا لا أقم في الطريق ، وأنا أسير دائماً بخطى ثابتة ، وأنا أملك قدمين راسختين ، ولست أنا بالشخص الذي يرتكب مثل هذه الحماقة فلا يرى الإفريز أولاً يلح الحاجز الذي يحد الطريق ^(١) » .

ولكن على الرغم من أن بودلير يأبى أن يأخذ بالنظرية الكلاسيكية التي تقول بوجود موضوعات هزلية توارثها لدينا الضحك (من الخارج) ، إلا أن بودلير مع ذلك لا يقلع نهائياً عن محاولة تفسير الضحك ، بل كل ما هنالك أنه يقدم لنا تفسيراً ذاتياً يركن فيه إلى العوامل الباطنة ، بدلاً من الاستعانة بالعلل الخارجية أو العوامل الموضوعية . وهكذا نجد أن بودلير يقرر أن الضحك هو في صميم الأمر بمثابة النتيجة التي تتولد لدى الإنسان عن فكرة امتيازه الخاص أو تفوقه الشخصي . ولا شك أن هذه النظرية لا تخرج عن كونها مجرد « تفسير » للضحك ، ولو أننا هنا بإزاء تفسير بالأسباب (المقولة) *Raisons* لا بالعلل (الخارجية) *causes* . — وعلى كل حال ، فإن محاولة بودلير إن هي إلا سعى نحو

Baudelaire: «*Curiosités Esthétiques*», De l'Essence (١١)
du Rire; Calmann-Lévy, Paris, 1884, t. II., p. 370.

« تفسير » الضحك ، على غرار ما فعل من قبل كل من ديكارت واسبينوزا وكنت ، وما فعل من بعد كل من برجسون وفرويد ومارسل بانيول ؛ فهي دراسة لتلك الظاهرة البشرية بمنهج لا يصلح إلا للدراسة ظواهر العالم الفزيائي . ومن هنا فقد ذهب بعض الفلاسفة الوجوديين الذين درسوا الضحك إلى ضرورة التخلص من كل وجهة نظر علمية متطرفة *Scientiste* في دراسة هذه الظاهرة ، من أجل العمل على « فهمها » بالنظر إلى « غاياتها » *Fins* . ومعنى هذا أن الضحك في نظرهم إن هو إلا ظاهرة شعورية ذات طابع قصدي *Intentionnel* ، ولو أن « القصد » هنا يكون في بادية الأمر مجرد حدث معاش *Vécue* ، لكي لا يلبث من بعد أن يصبح متعلّلاً . وإذا كان من العبث — في رأى هؤلاء الوجوديين — أن نفتر ذلك « القصد » *Intention* بالبحث عن علله أو أسبابه ، فذلك لأنه ليس ثمة سوى مناسبات أو ملابسات أو ذرائع للضحك ؛ بمعنى أن الضحك يعبر أولاً وبالذات عن « اتجاه » الموجود حينما يكون يازاء « موقف » معين ^(١) .

١٧ — من كل ما تقدم يتبين لنا أنه قد يحسن بنا أن نطلع عن محاولة « تفسير » الضحك ، أو البحث عن « علل » للفكاهة ، لكي

F. Jeanson: «La Signification humaine du Rire», (١)
Seuil, 1950, p. 114,

نقتصر على النظر إلى الملابس أو الترائع التي تكتنف تلك الظاهرة .
ولو أننا حاولنا أن « نفهم » الضحك باعتباره ظاهرة نفسية ذات دلالة
إنسانية ، لتبين لنا أن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هنالك من
مواقف بشرية . وإذا كان من العبث أن نجتريء في فهمنا للضحك
والفكاهة بتطبيق نظرية واحدة نحاول عن طريقها أن نتأول شتى
المواقف البشرية المضحكة ، فذلك لأن الحياة البشرية هي من السعة
والتعقد بحيث أنه قلما تنهض نظرية واحدة بتأويل ما تنطوي عليه
مواقفها الكثيرة من قيم ومدلولات . فالمرء قد يضحك لكي يثبت
لنفسه والآخرين تفوقه على غيره ، وهو قد يضحك حتى يشجع نفسه
في موقف يتطلب قسطا غير قليل من الشجاعة والبطولة ، وهو قد
يضحك لكي يغطي عجزه عن حل مشكلة ما ، وهو قد يضحك على
أثر نجاحه من خطر مُحقق ، وهو قد يضحك لكي يعبر عن تهلهله
وفرحه ، وهو قد يضحك حين يرى شخصا متأنقا يزل فيهرى على
الأرض كما يتدحرج الحجر . إلخ . وإذن فإن الملابس التي تحيط
بظاهرة الضحك هي أعقد وأكثر من أن تحيط بها نظرية واحدة أو أن
يستوعبها مذهب واحد . وقد رأينا من قبل كيف حاول فالتين
Valentine في كتابه « سيكولوجية الطفولة المبكرة » (سنة ١٩٤٢)
أن يمحصر بعض تلك الملابس ، فاستطاع أن يجمع حوالى خمسة عشر
موقفاً رأى أن لها نظائرها عند البالغين أيضاً ، وجميعها مما نستجيب له

بالضحك في الظروف العادية . وقد عنى أحد الباحثين الإنجليز —
الآ وهو بدنجتون — بتلخيص أهم الآراء المشهورة في تعليل الضحك ،
فاستطاع أن يحصرها في حوالي ٥٧ نظرية مختلفة في تفسير تلك الظاهرة
البشرية المعقدة التي استرعت اهتمام المفكرين منذ عهد أفلاطون حتى
يومنا هذا^(١) .

وللإحاطة بصفة عامة في هذا الصدد أنه يندر أن نجد بين جمهور
الباحثين الذين اهتموا بدراسة تلك الظاهرة مَنْ يقنع باتهاج منهج
سلفه في تفسير الضحك ، أو من يكتفي باعتناق أحد مذاهب السابقين
عليه في شرح طبيعة الفكاهة . وما دام الباحثون قد اختلفوا فيما بينهم
إلى هذا الحد ، فإنه قد يكون من خطئ الرأي أن نساير مذهبا بعينه
في فهمه لتلك الظاهرة البشرية المعقدة ، أو أن نشايح فلسفة بعينها في
تفسيرها لما تنطوي عليه تلك الظاهرة من دلالة . ولكن الباحث
قد يجد نفسه مدفوعاً — من حيث يدرى أو لا يدرى — إلى أن
يلتمس شيئا من التنظيم في وسط ذلك الخضم الهائل من النظريات
المتضاربة التي خلفها لنا الفلاسفة وعلماء النفس ممن عنوا بدراسة هذه
الظاهرة . وهو لو أمعن النظر في تلك الآراء الكثيرة التي لا تكاد

R. Piddington: «The Psychology of Laughter», (١)
London, Figurehead, 1933, appendix.

تجمع على شيء ، لتحقيق أن تضاربها ليس من الخطورة بما قد يقع في ظننا لأول وهلة ، إذ أن ثمة عوامل مشتركة تتردد على ألسنة الباحثين حيناً بعد حين ، وإن كانت تظهر في كل مرة بصورة خاصة ، ويُنظر إليها في كل مرة من زاوية مختلفة^(١) .

وهكذا نجد أن الضحك في نظر الكثير من الباحثين يقترن في العادة بمجموعة من المنبهات أو المؤثرات الفسيولوجية — كالغدغة مثلاً — ويصاحب في كثير من الأحيان ظاهرة السرور أو الانشراح العام (Euphoria) . ويكاد معظم الباحثين الذين درسوا ظاهرتي الفكاهة والضحك يجمعون على أنهما تنطويان على عنصر لهُو أو لعب (Playfulness) باعتبار أنهما ليستا وليدتي حاجة بيولوجية ملحة . كذلك يقرر عدد غير قليل من علماء النفس أن للضحك والفكاهة دلالة اجتماعية واضحة ، نظراً لأنهما — كما أسلفنا فيما تقدم — متأثران بالوسط الاجتماعي المباشر والإطار الحضاري العام . — أما فيما يتعلق بطبيعة الموقف الفكاهي فإن الرأي يتجه إلى القول بأنه ينطوي على عنصر « مفاجأة » أو « عدم توقع » ، بينما يرى آخرون أن الضحك مرتبط ارتباطاً وثيقاً بظاهرة « الاسترخاء المفاجيء » التي يحدث فيها

Flugel: «Humor & Laughter», in «Handbook of Social Psychology», t. II., p. 712.

انتقال سريع من حالة الجذ والتوتر إلى حالة اللهو والانطلاق . —
أما فيما يتعلق بالميل الانفعالية والغريزية التي يتصل بها الضحك ،
فإن معظم علماء النفس يميلون إلى حصرها في الخوف ، والجنس ،
والعدوان ، والإحساس بالانتصار أو التفوق . — فإذا ما انتقلنا
إلى المجال الذهني ، وجدنا أن الغالبية العظمى من الباحثين تقرر
أن الضحك كثيراً ما يتولد عن المفارقات ، وعدم التمييز بين المتناقضات
والمختلفات ، والتأليف بين العناصر المتنافرة ، ووضع الشيء في غير
موضعه ... الخ .

تلك هي أهم الاعتبارات التي تتلاقى عندها نظرات الباحثين ،
وإن كان ثمة اختلاف بينهم حول مدى أهمية كل عنصر من العناصر
التي أتينا على ذكرها ، فضلاً عن أنهم غير متفقين حول طبيعة العلاقات
الموجودة بين شتى هذه العناصر التي تدخل في تكوين ظاهرتي الفكاهة
والضحك . هذا إلى أن البعض منهم يأبى أن ينسب إلى الضحك معنى
معيناً أو دلالة خاصة ، بل يذهب إلى أنه يخلق معناه الخاص في عين
اللحظة التي يحدث فيها ؛ وهؤلاء يربطون الضحك بالحرية البشرية
فيقولون إن ضحكى حز ، وهو يعبر عن اختياري لنفسي باعتباري
« موجوداً لذاته » يشعر بأنه أسمى من « الموجود في ذاته » (سواء
كان هذا الموجود هو الماضي أو البدن أو العالم نفسه) . ولنا بمعرض
شرح هذه النظرية الوجودية في الضحك ، ولكن حسبنا أن نقول إنها

لا تريد أن تدرس « الضحك » باعتباره « موضوعاً » ، بل باعتباره سلوك « ذات » ، أعني باعتباره « فعلاً » يقوم به الشخص الذى « يضحك » . وهذا ما عبّر عنه أحد الوجوديين حينما قال : « إننى لا أضحك بسبب حادث هو فى حدّ ذاته مضحك ، وإنما أنا أضحك وفقاً لمقصد خاص ، وإذاً أفعل هذا فإننى أجعل الحدث الذى أضحك بمناسبة يبدولى هزلياً أو باعثاً على الضحك » ^(١) . وربما كان من بعض مزايا هذه النظرة إلى الضحك أنها تريد أن تفهم الظاهرة التى نحن بصددّها فى ضوء الاتجاه العام للسلوك البشرى نفسه . فالوجوديون يأبون أن يربطوا الضحك ربطاً مباشراً بمجموعة من الموضوعات الطبيعية أو المواقف الموضوعية ، لأنهم يرون أن كل نوع من أنواع الضحك إنما يشتق صبغته الخاصة من المقصد المعين الذى تتخذه الذات بمناسبة ما يعرض لها من أحداث . حتا إن ثمة « ضحكا اصطلاحياً » أو عُرفياً *Rire Conventionnel* يعبر عن اتجاه وجدانى أولى (أو قبل) *Apriori* وهو الضحك الاصطناعى الذى يعد ضرباً من الغش أو الخداع (مادمنّا نتصنع فيه أشياء ليست من الحقيقة فى شيء) ، ولكن ثمة ضحكا آخر يمكن أن نعدّه بمثابة الضحك الإنسانى الحقيقى ، ألا وهو ذلك الضحك

F. Jeanson : « Signification humaine du Rire » , (١)
Paris, Seuil 1950, Ch. II. (Le Rire, phénomène intentionnel), p. 88 — & Ch. IV. (Le Rire et la liberté) pp. 148—197.

الذى يعتبر عن مقصد الذات حين تريد أن تضع نفسها في مستوى معين من المستويات ، أو أن تنسب إلى نفسها قيمة معينة من القيم ، كما يحدث مثلاً حينما نضحك في مناسبة ما من المناسبات حتى تثبت لأنفسنا تفوقنا وسموتنا . وليس الضحك في نظر الوجوديين مجرد فعل منعكس ، كما أنه ليس ثمرة لتصميم إرادي ، وإنما هو يقتزن دائماً بضرب من « الغائية » *Finalité* التي تخلع عليه معناه ، والتي بدونها لا بد من أن يفقد كل صبغة إنسانية . وإذا كان البعض يتوهم أن الضحك ظاهرة تصاحب الانشراح وترجم عنه في مستوى مواز له ، فإن بعض الوجوديين يقرر أن المرء لا يضحك إلا لكي يعرب عن انشراحه ، أو لكي يوجد هذا الإنشراح في بعض الأحيان ، أغنى لكي يصبح منشراحاً بالفعل ! وهكذا يأبى الوجوديون أن يجيبوا على السؤال التقليدي: « لماذا نضحك ؟ » بكلمة « لأن » (*Parce que*) ، لكي يردوا عليه بكلمة « لكي » *Pour* . والفارق بين الإجابتين أن الأولى تنطوي على معنى « العلية » ، بينما الثانية تحمل معنى « الغائية »^(١) .

١٨ — وثمة طريقة أخرى التجأ إليها بعض الباحثين في دراسة الفكاهة والضحك ، فلم يهتموا بدراسة مثيرات الضحك أو ملاماته ،

*P. Jeanson : «Signification humaine du Rire», (١)
Paris, Seuil 1950, Ch. II (Le Rire, phénomène intentionnel), p. 88 — & Ch. IV. (Le Rire et la liberté) pp. 148—197.*

ولأننا قصرنا جهودهم على استقصاء الطبيعة العامة للعمليات الذهنية التي تنطوي عليها ظاهرة الضحك . وهذا ما فعله مثلا ايزنك في كتابه « أبعاد الشخصية » (الذي ظهر عام ١٩٤٧) ، حيث نجده يتخذ التقسيم الكلاسيكي للحالات الشعورية إلى حالات إدراكية ، وجدانية ، وتزوعية ؛ فيحاول أن يظهرنا على ما في ظاهرنا من الفكاهة والضحك من عناصر عرفانية ، وانفعالية ، وإرادية ، مع اهتمامه في الوقت نفسه بمراعاة التداخل القائم بين هذه العمليات النفسية الثلاث . وقد حاول ايزنك أن يصنف النظريات التقليدية في تفسير الضحك ، بحسب نوع الجانب السيكولوجي الذي أكد كل باحث أهميته على حاب غيره من الجوانب ، فقال : إن الغالبية الكبرى من هذه النظريات تضغط بشدة على العناصر الإدراكية في ظاهرة الضحك ، كعنصر المفارقة ، أو عنصر التباين بين الأفكار ، أو عنصر الخداع العقلي ... الخ . ويُدخل ايزنك في عداد المفكرين الذين حرصوا على تأكيد الجانب الإدراكي في الضحك شيثرون ولؤلؤ وكنت وشو بنهور وسبنسر ولبنس ورنوفيه ويرات ... الخ . أما أولئك المفكرون الذين يؤكدون أهمية الجانب التزوعي في ظاهرة الضحك فإنهم يربطون الضحك بإشباع بعض الرغبات كالرغبة في التفوق أو الاستعلاء أو الغرور أو ما شابه ذلك . وربما كان في استطاعتنا أن ندخل في عداد هؤلاء أفلاطون وأرسطو وهوبز

وهيجل ولا منيه وبرجسون وغيرهم . وقد حاول أحد الباحثين المحدثين —
ألا وهو لودفتشي — في كتابة « سر الضحك » أن يرد شتى مظاهر
الضحك إلى علة أصلية واحدة ، فقال مع هويز بأن الضحك « عزة فجائية
تهبط علينا نتيجة لشعورنا بسمونا ورفعة شأننا ، إما بالقياس إلى الآخرين
من هم في حالة ضعف وقصور وضعة ، أو بالقياس إلى أنفسنا نحن في
حالة سابقة من حالات نقصنا وضعفنا وتخلفنا » . ويمضي هذا المؤلف
في تحليل الضحك ، فيقول بأنه تعبير عن ضرب سام من ضروب
التكيف ، ثم يسوق لنا حوالي ٣٦ حالة يتولد فيها الضحك ، مبتدئاً
من الحالة التي تنشأ عن استنشاق غاز أكسيد النتريك ، ماراً بحالات
الدغدة ، والانشرح المتولد عن السكر ، والعدوان ، وحالات عدم
الاحتشام *Indecency* ، حتى يصل إلى حالات المحاكاة ، والتنكر ،
والمفارقة ، والتورية . . . الخ . وكل هذه الحالات — في نظر الباحث
المذكور — لا تخرج عن كونها مظاهر لما أطلق عليه اسم
« التكيف السامي » *Superior adaptation* .

أما المظهر الوجداني للفكاهة والضحك فقد عني بإظهاره بعض
الباحثين ممن استرعت انتباههم المقومات الانفعالية والشحنات الوجدانية
الكامنة في ظاهرة الضحك . وهؤلاء الباحثون يربطون في العادة بين

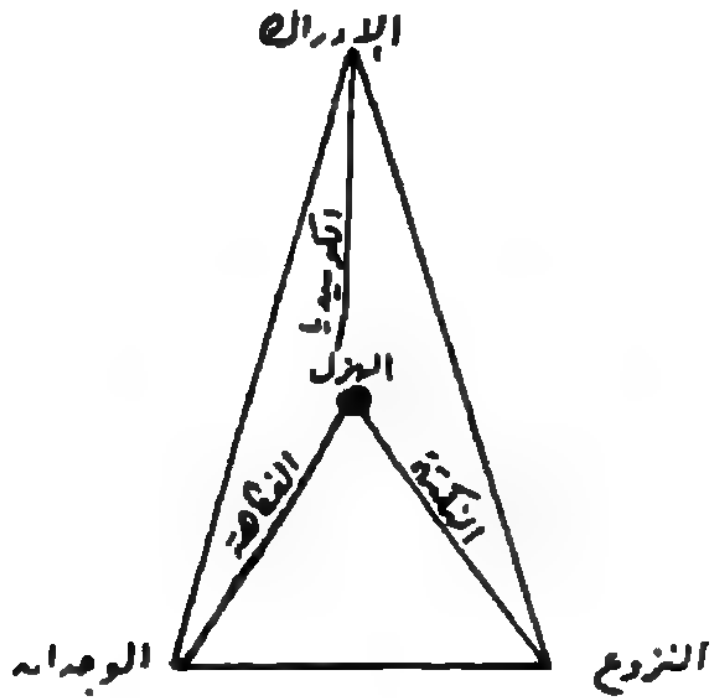
Cf. A. Ludovici: *The Secret of Laughter*, London, (١)
Constable, 1932.

الضحك وبين السرور الخالص ، أو السرور الممتزج بانفعال آخر كأنفعال الخوف أو الغضب مثلاً . وهناك قوم منهم يعدون التباين القائم بين العواطف بمثابة عنصر جوهري هام في فهم عملية الضحك . ويدخل في عداد هؤلاء ، ديكارت وهارتلى ومكدوجل وهوفدنج وغيرهم .

وقد حرص بعض الباحثين على تأكيد أهمية عدة جوانب مختلفة في الضحك ، فاهتم كل من ريو ، وسلى ، وستيانا بجانبين من جوانب الضحك ، بينما أكد فرويد أهمية الجوانب الثلاثة معاً . وهكذا أكد فرويد أهمية الجانب « النزوعي » حينما قال إن ما هو هزلى *Comique* إنما ينشأ عن الاقتصاد في انفاق طاقة الكف أو النزع *Inhibition* ، ثم عاد فأكد أهمية الجانب « الوجداني » حينما عرف الفكاهة *humour* بأنها ظاهرة ترجع إلى الاقتصاد في العواطف ، بينما نراه يؤكد أهمية الجانب « الإدراكي » حينما يعرف « الهزلى » أو الكوميدي بأنه مظهر للاقتصاد في التفكير . ولكن نقطة الضعف في نظرية فرويد هي أنها تقوم على نظرية سبنسر ليس *Spencer - Lipps* الآلية في « الاقتصاد » *économie* ، في حين أن هذه النظرية دخيلة تماماً على شتى آراء فرويد الأخرى ، كما لاحظ إيمان *Eastman* بحق في كتابه « روح الفكاهة ^(١) » .

M. Eastman: «The Sense of Humor», New-York, (١)
Scribner, 1921.

أما أيزنك فإنه يعرض علينا نظرية توفيقية يحاول فيها أن يوفق بين تلك الجوانب الثلاثة من ظاهرة الضحك ، موضحاً هذه النظرية برسم يمثل مثلثاً متساوي الضلعين على النحو التالي :—



وهنا يستعمل أيزنك كلمة « المزج » بمعنى عام ، ويقول إن العناصر الإدراكية والوجدانية والنزوعية تدخل هي الثلاثة في تركيب « المزج ». ولكن أثر أحد هذه العناصر الثلاثة قد يزيد عن أثر العنصرين الآخرين في كل حالة من الحالات الخاصة ، فتقترب الدعابة في هذه الحالة من الزاوية التي تمثل العنصر الغالب . ويطلق أيزنك بصفة عامة اسم « الفكاهة » *humour* على العنصر الوجداني ، واسم « النكتة » *wit* على العنصر النزوعي ، واسم « الكوميديا » *Comic* على العنصر

الإدراكى . وهو يعترف بأن هذه التسميات لا تخلو من نقص ، ولكنها توضح مع ذلك الجانب الغالب من بين المقومات الثلاثة للضحك (فى كل حالة من الحالات) . ولو أننا نظرنا إلى المثلث الذى يبين علاقة الجوانب الثلاثة من الفكاهة بمضاهيا بانبعض الآخر ، لوجدنا أن الجانبين الوجدانى والنزوعى أقرب فى علاقتهما الواحد بالآخر منهما بالجانب الآخر — ألا وهو الجانب الإدراكى — . وربما كان السبب فى ذلك يرجع إلى أن ثمة تداخلاً بين هذين المظهرين من مظاهر الحياة النفسية ، خصوصاً فى مضمار الهزل حيث تبرز الفكاهة بالنسبة^(١) .

ولسنا نريد أن نتابع ايزنك فى تقسيمه لمقومات الفكاهة والضحك إلى عناصر وجدانية ، ونزوعية ، وإدراكية ؛ فإننا نعتقد أن بين هذه الجوانب الثلاثة من التداخل والتشابك والاتصال أكثر مما وقع فى ظن ايزنك ، ولكننا نميل إلى الاعتقاد مع فلوجل *Flugel* بأن هذا التقسيم قد يعيننا إلى حدٍ ما على تصنيف النظريات السيكولوجية العديدة فى تفسير الضحك ، أو هو قد يساعدنا على حصر الملاحظات الكثيرة التى تقتن

cf. H. J. Eysenck: «Dimensions of Personality». (١)
 London, 1947, Routledge & Kegan Paul. (trad. franç.
 sous le titre «Les Dimensions de la Personnalité», par
 M^{me} D. Mazé & M^{me} Blize, Paris, P. U. F., 1950, pp.
 252—254.)

في العادة بهذه الظاهرة^(١) . وإذن فنحن لا نريد أن نأخذ بالتقسيم الكلاسيكي للحالات الشعورية إلى إدراك ، ووجدان ، ونزوع ، وإنما كل ما هنالك أننا سنحاول الكشف عن العناصر العرفانية ، والانفعالية والإرادية التي قد تدخل في تكوين المواقف الفكاهية ، مع بيان ما بينها من تداخل وظنى وتفاعل دينامي . وسنبداً فيما يلي بدراسة العنصر الوجداني في الضحك ، فإن الباحث الذي يحاول فهم هذه الظاهرة ، لا بد من أن يعنى بادی ذی بدء بالجانب الانفعالی من الضحك ، باعتباره تعبيراً عن حالة الابتهاج أو الغبطة أو السرور^(٢) .

Cf. Flugel: «Humor and Laughter»; in «Handbook (١) of Social Psychology», Edited by O. Lindzey, Addison-Wisley Co, 1954, Vol. II., pp. 712 — 713.

ولابد لنا في هذا المقام من أن نعطى لكل ذي حق حقه ، فلنجل احترامنا بالجيل للأستاذ فلوجل الذي أفدنا من دراسته للكاهة والضحك العمى الكثير .

Ch. Darwin: «The Expression of the Emotions in (٢) Man & Animals», London, Watts, 1948, Ch. VIII, pp. 98—99.

الفصل السادس

العصر الوجداني في الضحك

١٩ — حينما درسنا ظاهرة الضحك لدى الطفل ، فقد تبين لنا بوضوح أن الضحك يظهر لدى صغار الأطفال — باديء ذي بدء — باعتباره تعبيراً عن اللذة أو السرور أو الانشراح . وليس من النادر أن نشهد لدى الكبار مثل هذا النوع من الضحك ، فقد يضحك الشخص البالغ حينما يستحم في البحر ، أو حينما يهبط بسرعة من فوق جبل عال تعصف به الرياح ... الخ . والواقع أن ثمة ضحكا بدائياً لا يكاد ينفصل عن شعورنا بالراحة الجسمية أو الرفاهية العضوية ، بدليل أننا قد نبسم أو نضحك لمجرد شعورنا بلذة الحياة أو متعة البقاء . — وحينما تقوى في نفوسنا حماسة الشباب وسورته ، فقد تتماهى في الضحك لمجرد إحساسنا بالفتوة أو الشباب أو القوة الجسمية ! ولكننا مع ذلك قد لا نجد أى أثر لهذا الضحك البدائي لدى بعض القبائل البدائية أو الجماعات المتوحشة ، بدليل أن بعض الأقوام في جنوب إفريقيا كثيراً ما تستخدم الضحك وسيلة للتعبير عن الدهشة أو القلق أو التعجب ، بل قد تعبّره عن شعورها بالحزن العميق في بعض الأحيان . وأما عندنا نحن المتحضرين فقد عمات العوامل الحضارية عملها ، فأصبح للضحك من الدلالات

الاجتماعية والمعانى العقلية ما جعله يفقد مضمونه البدائى الأسمى ، وأصبحنا اليوم قلما نضحك للتعبير عن شعورنا بالرفاهية أو الراحة أو السعادة . هذا إلى أننا قد نجد لدى بعض الأفراد فى المجتمعات الحديثة والبدائية على السواء ، ضرباً من الضحك الذى لا يمكن اعتباره تعبيراً عن شعور حقيقى بالبهجة أو السرور ، ألا وهو الضحك المستهزئ^(١) .

يبد أن هذا لا يمنعنا من أن نقرر أن الضحك هو فى جانب منه مظهر من مظاهر البهجة أو السرور أو الارتياح أو الانشراح . وحسبنا أن ننظر إلى البلهاء وضعاف العقول لى نتحقق من أن الضحك عديم إن هو إلا مجرد تعبير عن الشعور بالقبطة أو السعادة . والضحك عند البلهاء هو أكثر التعبيرات الانفعالية تردداً ، لأن الأبله يضحك حين يُقَدَّم إليه الطعام ، ويضحك حين يُدَاعَب ويُلاطَف ، ويضحك حين تُعرض على ناظره بعض الألوان الناصعة ، ويضحك أيضاً حين تُعزَف على مسامعه بعض المقطوعات الموسيقية . . . الخ . ومعظم البلهاء لا يكادون يُفهمون فكراً ، ولكنهم يشعرون باللذة ويعبرون عن شعورهم هذا بلغة الابتسام أو الضحك . ولو شئنا أن نقسم الضحك الذى نحن بصدده هنا ، بحسب درجة عموميته ، لقُلْنَا إن ضحك السرور

Cf. K. Young : «Personnality & Problems of (١) Adjustment», London, Kegan Paul & Routledge, 1962, 2^{ed.}, p. 66.

قد ينبعث عن حالة انشراح عامة ، أو هو قد يحدث بفعل مؤثر سار من نوع خاص ، أو نتيجة لموقف اجتماعي ملائم يبعث على الشعور بالارتياح . وليس من السهل في كثير من الأحيان أن نتميز بين الحالتين السابقتين : لأن من شأن حالة « الانشراح » العامة في بعض الأحيان أن نجعلنا نتقبل بسرور بعض المؤثرات أو المواقف التي لم نكن نأبه بها في العادة ، أو التي لم نكن نجد فيها أية لذة في ظروف أخرى هذا وقد لاحظ دارون أنه ليس ثمة موضع للتمييز بين حالات السرور وعواطف المشاركة لدى القردة العليا ، فإن انفعال السرور عند الحيوان كثيراً ما يقتن بانفعال آخر أو عاطفة أخرى تولدها في نفسه المشاركة الوجدانية أو التعاطف . وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذه الملاحظة تصدق أيضاً على بنى البشر ، فإننا حينما نحب شخصاً قد نجد لذة كبرى في مصاحبته والاستمتاع بحضرتة ، وبالتالي فإن انفعال السرور عندنا قد يسير جنباً إلى جنب مع عاطفة الحب أو المشاركة الوجدانية .

٢٠ — وليس العنصر الوجداني الوحيد الذى يدخل في ظاهرة الضحك هو عنصر الارتياح والانشراح أو الغبطة والسرور ، بل هناك عنصر وجداني آخر قد لا يقل عنه أهمية ، ألا وهو عنصر اللهو والمرح والتسلية واللاواقعية ... والواقع أننا لو نظرنا حتى إلى ظاهرة « الدغدغة » نفسها ، لوجدنا أنها تنطوي على عنصر لهو أو لعب ، مما دفع بعض

الباحثين إلى القول بأن في كل المواقف الفكاهية على اختلاف أنواعها « عنصر هو » واضح من شأنه أن ينأى بالإنسان عن حياة الجد والواقعية والنشاط الغائى — وقد استعرض بدنجتون *Pliddington* كل الملاحظات الباعثة على الضحك لدى صغار الأطفال ، فاستطاع أن يبين أنها جميعا تنطوى على عنصر سار مشوق ، وأنها لا تتطلب أية استجابة نوعية سريعة من جانب الجهاز العضوى . والظاهر أن انعدام الجدية في حالة الضحك ، بسبب انعدام الحاجة البيولوجية الملحة ، هي الخاصية العامة المميزة لشتى المواقف الفكاهية . وهذا ما لاحظته فرويد حينما قال إن المواقف الفكاهية ، مثلها في ذلك كمثل حالة اللهو أو اللعب ، تقوم دائما على « مبدأ اللذة » *Pleasure Principle* ، وتكاد تخلو من كل أثر من آثار الواقع الجدى المتجهم . — أما حينما يتغير الموقف فتتخذ المسألة صبغة جدية تستلزم مواجهة بعض المشكلات الهامة الملحة ، فهناك يمتنع الضحك (إذ تصبح المسألة — كما نقول — مما لا يحتمل الدعابة أو الهزل) . وهكذا لا تلبث حالتنا النفسية أن تتغير تماما ، فتحول طاقتنا التي كانت مستوعبة بتمامها في الضحك ، لكي تتجه نحو مسلك آخر يكون أكثر واقعية وأظهر نفعية . — والحق أن الصبغة اللاواقعية المميزة للفكاهة هي مما يتجلى بوضوح في شتى أنواع الدعابة والمزاح ، ابتداء من حالات الطرب والانشراح *Hilariousness* التي نلتقي فيها

بأشخاص لا يكادون يعيشون في دنيا الناس بما فيها من تبعات وآلام ،
وكأنما هم في حلم ، مازين بحالات التفكه والدعابة والتوريات والألاعيب
اللفظية والفكاهات السخيفة ، حتى نصل في خاتمة المطاف إلى
« الفكاهة » الراقية التي تنطوي على إنكار للواقع — بالمعنى الدقيق
الذي نسه إلى هذه الكلمة (كلمة *Humour*) فرويد وغيره من
علماء النفس — .

ولو أننا أنعمنا النظر في الموقف الفكاهي بصفة عامة ، لتبين لنا
بوضوح أن الوظيفة الأولى التي يقوم بها إنما هي تخفيف أعباء الواقع عن
كواهلنا ، وتخليصنا — إلى حين — من بعض تبعات الحياة اليومية
الجدية . وهذا فولتير — الفيلسوف الفرنسي الساخر — يؤكد أهمية
الضحك في هذا الصدد فيقول : « لو لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس
أنفسهم ؛ فويل للفلاسفة الذين لا يسيطون بالضحك تجاهيهم ، لأن
العُيُوس في نظري مرض عُضال » ! . والحق أن اللذة الكبرى التي
يجدها المرء في الفكاهة والضحك إنما ترجع في الجانب الأكبر منها إلى
هذا الشعور بالتححرر من الواقع والتخلُّل من الحياة الجدية ، عن طريق
الهزل والتفكه والمزاح . — ونظراً لما في المواقف الفكاهية من إنكار
للواقع أو تجاهل له ، فقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن الفكاهة
تقوم في حياتنا النفسية بدور أو وظيفة تشبه إلى حد ما وظيفة اللا شعور

(على نحو ما يتبدى في الأحلام — مثلاً — أو في الأعراض العُصائية) ؛ وهذا ما قرره فرويد نفسه في دراسته للنكتة وعلاقتها باللاشعور^(١) . — هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى فإنه لما كان اللهو واللاواقعية هما من أخصّ خصائص العقلية الصغيرة غير الناضجة — أعنى عقلية الطفل الذى لم يكتمل بعد نضجه النفسى والعقلى — فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن فى المواقف الفكاهية — على اختلاف أنواعها — شيئاً من النكوص أو الارتداد نحو مرحلة سابقة من مراحل النمو ، وكأن البالغين يريدون عن طريق الضحك أن يعودوا إلى طفولتهم المبكرة ، حتى تسقط عنهم تبعات الحياة الجدية ، وترتفع عنهم مشاغل المعيشة العادية . — ولكن الفكاهة تختلف عن الأحلام والأعراض العُصائية فى أنها لا زالت تحت ضبط الإرادة ، لأن الذات الشاعرة فى حالة الضحك لم تغلب على أمرها ولم تُحوّل عن طريقها ، بل كل ما هنالك أنها تسمح لنفسها عندئذ بضرب من الاسترخاء *relaxation* ، حتى تتخلص — إلى حين — من الضغط الثقيل الذى يفرضه عليها الواقع بتبعاته الجسام . ومن هنا فإن للفكاهة — فى نظر كثير من الباحثين — طابعاً سويّاً صحياً ، باعتبارها وسيلة نافعة للتهرب وقتياً من بعض مشاغل الحياة وهمومها العادية . وهذا ما عبّر عنه الباحثان

cf. S. Freud: «Wit and Its Relation to the Unconscious», New-York, Moffat Yard, 1916.

الأمريكيان ستانلي هول (Stanley Hall) وألين (Allin) حينما كتبوا يقولان : « إن العالم الواقعي ليصبح [في لحظة الضحك] وكأن لا وجود له ، أو كأنما هو قد أصبح نسياً منسياً ؛ وأما شعورنا بوجود غيرنا من الناس بما لهم من صفات ، فهذا أيضاً لا يلبث أن يزول ؛ وهكذا لا تعود أذننا الموجود تسمعان سوى الموضوع المضحك وحده ، ولا تعود عيناه تشهدان سوى ذلك الشيء الذي استثار ضحكك . وينسى المرء كل همومه وآلامه ، بل وحتى أوجاعه الجسمية نفسها ، لكي يعود بعقله آلاف السنين إلى الوراء فيجد نفسه في لحظة سريعة خاطفة ، في العهد الذهبي الأول للإنسانية ! » . ويعلق لالو على هذه العبارة بقوله : « أجل ، فإن الحياة هي الفردوس المفقود ، وأما الضحك فهو الفردوس المستعاد أو المردود » ^(١) *Le Paradis Retrouvé* .

... لقد كان فولتير يقول إن السماء قد أرادت أن تموضنا عن بعض ما ابتلئنا به من محن في هذه الحياة ، فنحننا الأمل *L'espérance* والنوم *Le sommeil* ؛ ولكن كننت يعلق على هذه العبارة فيقول : « إنه ما كان أخرى فولتير بأن يضيف إليهما الضحك *Le Rire* » ^(٢) .

Cf. Ch Lalo: *«Esthétique du Rire»*, Flammarion, (١) 1949, p. 96.

E. Kant: *«Critique du Jugement»*, traduit par (٢) Gibelin, Vrin, 1961, p. 151.

والواقع أن الضحك إذ يلقى على الواقع ستار اللاواقعية *L'irréalité* ، وإذ يرفع عن هموم الحياة ما فيها من جدية *sérieux* ، فإنه يهون على الإنسان عبء الحاضر ، ويعدّه لمواجهة المستقبل بروح البشر والترحاب . ولا نرانا في حاجة إلى أن نؤكد ما للضحكة من فعل سحرى في شفاء النفس ، فإن التجربة نفسها لتدلنا على أننا نستطيع بالابتسام والضحك أن نأخذ من الحياة أكثر مما نستطيع أخذه بالتعطيب والعبوس . وقد روى لنا أحد الأطباء النفسانيين أن سيدة عقيماً كانت تتردد على عيادته ، وكانت لفرط يأسها وقنوطها قاب قوسين أو أدنى من المرض العقلى . ولم ينجح الطبيب فى علاجها عن طريق التحليل النفسى ، فاتفق معها على أن تروى له قصة مضحكة كلما جاءت له للزيارة . وكان تنفيذ هذه الخطة عسيراً فى البداية ولكن السيدة أخذت تجد فيها رويداً رويداً شيئاً من اللذة . وقبل أن ينتهى علاج تلك المرأة على هذه الطريقة ، كانت المريضة قد ولعت بجمع الحكايات وبرعت فى روايتها . وهكذا ردت الفكاهة إليها بشاقتها وسعادتها .

هذا وقد لاحظ لوس *F. M. Loos* فى دراسته لعلاقة « روح الفكاهة » ببعض المتغيرات فى الشخصية ، أن أولئك الذين يتمتعون بحسن فكاهى يحىء ترتيبهم فى العادة متأخراً نسبياً فى سلم الأشخاص المرعّضين للأمراض النفسية . — ومهما يكن من شيء ، فإن طابع اللهو أو اللاواقعية الذى تميّز به المواقف الفكاهية يكاد

يكون هو الإطار الثابت الذى يكمن من وراء شتى الخصائص والمميزات الأخرى للفكاهة والنكتة . وسواء أكان هذا الطابع طبيعياً تلقائياً ، أم اصطناعياً تعويضياً (هروياً *Escapist* كما نقول أحياناً) فإنه لابد من أن يكون مائلاً فى جميع الحالات لخاصية أساسية تميز كلاً من الفكاهة والضحك^(١) .

٢١ — أما إذا حاولنا الآن أن ندرس العلاقة بين الضحك والانفعال ، فإننا سنجد أن بعضاً من الباحثين — وفى مقسمتهم برجسون — يفترون على القول بأن العدو الأكبر للضحك هو الانفعال *Emotion* . ومعنى هذا أن الضحك — فى نظر هؤلاء — هو ظاهرة إدراكية تقترب بانعدام الحساسية الوجدانية ، لأن الوسط الطبيعى الذى تنمو فيه إنما هو « اللامبالاة » أو « عدم الاكتراث » . ويستطرد برجسون فيقول إننا لو تصورنا مجتمعاً يتألف من عقول محضة ، لما كان فى استطاعتنا أن نتصور أهل هذا المجتمع وهم يبتكون ، ولكن من المؤكد أنهم سيعرفون الضحك ! والواقع أن الشخص الذى يشغل نفسه بكل ما يحدث من حوله ، والذى يشارك غيره أفكارهم وأفعالهم وعواطفهم ، سرعان ما يعتاد أن ينسب قيمة إلى أتفه الأحداث ، وسرعان ما يجد نفسه مضطراً إلى أن ينظر إلى كل ما فى الوجود نظرة

*Flugel: «Humor & laughter», in «Handbook of Social (١)
Psychology», Vol. II., 1954, p. 714.*

جدية . وأما الشخص الذى يقف من الحياة والمجتمع موقف الناظر التأمل ، فإن كثيراً من الأحداث الدراماتيكية التى تقع تحت ناظره سوف تظهر له بمظهر الكوميديا المضحكة . وحسبنا أن نذكر آذاننا عن سماع أنغام الموسيقى ، لكى يبدو لنا الراقصون فى حلبة الرقص بمظهر موجودات هزلية تبعث على الضحك والسخرية . وهكذا يقرر برجسون أن الشرط الضرورى الذى يتطلبه الحدث حتى يكون كوميدياً ، إنما هو أن نخدّر قلوبنا إلى حين . والسبب فى ذلك — على حدّ تعبير برجسون نفسه — هو أن الشيء الهزلى أو المضحك إنما يخاطب العقل المحض^(١) .

ويتابع بعض الباحثين المعاصرين برجسون فى فهمه للعلاقة بين الضحك والانفعال ، فيقول مارسل پانيول — مثلاً — إن ثمة عاطفتين أساسيتين من شأنهما حتماً أن توقعا الضحك ، ألا وهما الشفقة والخوف . ويشرح پانيول نظريته فيقول إن الشفقة حينما تستولى علينا لتعاطفنا مع موجود بشرى حلت به نكبة ، فإن من المؤكد أنها لا بدّ من أن تضع حدّاً لانفعال الضحك الذى قد يستولى علينا فى ظروف أخرى حينما نفرح لما يلمّ بخصمنا من محن ، أو لما يحلّ به من نكبات . حقا إن الحدود التى تفصل الضحك عن الشفقة هى حدود ملتبسة غير واضحة ، ولكن

H. Bergson : «*Le Rire*», P.U.F., Paris, 69^e (١)
éd., 1949, pp. 3-4.

الشفقة والضحك هما في العادة خُصمان يتناوبان حياتنا الوجدانية واحداً بعد الآخر . أمّا الخوف فهو الانفعال الكفيل بخنق الضحك في سرعة البرق ، لأننا ما نكاد نشعر بضغفنا وقصورنا ، حتى نكف في الحال عن الضحك . وحينما يجد المرء نفسه في مأزق حرج ، فإنه سرعان ما يتجهّم ويقطب جبينه ؛ وهذا هو الموقف الذي يعبر عنه الفرنسيون أحياناً بقولهم : « أقسم لك يا صديقي بأنه لم تكن لدى عندئذ أية رغبة في الضحك » !^(١) فالشخص الذي يشعر بالخوف ، لأنه يحسّ بضغفه أو عجزه عن مواجهة الموقف ، قلماً ينفجر ضاحكاً . . . وهكذا يخلص يانيول إلى القول بأن الضحك يتوقّف حيث يبدأ الخوف أو الشفقة^(٢) .

وأما مكدوجال فإنه يذهب — على العكس من ذلك — إلى أن العلاقة وثيقة بين الضحك من جهة والتعاطف أو المشاركة الوجدانية من جهة أخرى : لأنه لما كان للانفعالات الرقيقة دور هامّ في صميم حياتنا النفسية ، فقد اخترعت الطبيعة حيلة بيولوجية هي « الضحك » تقينا بها آثار الشفقة البالغة والتعاطف الزائد ، مما كان يمكن أن تتعرض له بسبب ما لدينا من قدرة على التأثر الانفعالي والمشاركة الوجدانية لآلام

(١) نص العبارة بالفرنسية : « *Mon dieux, je te jure que je ne rigolais pas.* »

Marcel Pagnol : « *Notes Sur Le Rire* », Paris, (٢)
Nagel, 1947, pp. 118—119.

الآخرين . فالضحك هو ضرب من المناعة النفسية التي تحول بيننا وبين التأثير بما يعرض للغير من مصائب صغرى ونكبات بسيطة يمّا نشهده حولنا فى كل لحظة ، وما قد نجد أنفسنا مضطرين — بحكم كوننا كائنات اجتماعية — إلى أن نشارك فيه ونأخذ بقسط منه . ومعنى هذا أن الضحك — فى نظر مكدوجال — استجابة للألم لا للسرور ، نظراً لأن مفتاحه هو المواقف التى تسبب لنا الضيق أو الكرب أو الألم إن لم نضحك . فنحن نضحك حتى نخفف عن أنفسنا أعباء الانفعالات الرقيقة والتأثرات الوجدانية البالغة وعواطف الشفقة المفرطة . ومن هنا فإنه لا بد من التفرقة بين الابتسام والضحك : لأن الأول منهما رد فعل للسرور ، بينما الثانى رد فعل للألم . وقد يقوم الضحك بوظيفة تعويضية كما هو الحال مثلاً حينما نضحك لما مئينا به من فشل أو تعثر ، أو كما يحدث أحياناً حينما نجد أنفسنا يزاء موقف مهين لكرامتنا أو معرقل لحركتنا أو معطل لنشاطنا . — وحينما تضحك سيدة أنيقة على أثر انزلاق قدمها فى الطريق العام واتساخ ثوبها بالغبار أو إصابة وجهها برذاذ من الوحل ، فإن من المؤكد أن ضحكها فى هذه الحالة هو ضرب من « التعويض الراقى » (على حدّ تعبير لودفقتشى *Ludovict*) الذى تستلزمه ضرورة مواجهة مثل هذا الموقف ، وإن كان مكدوجال يضيف إلى ذلك أن الإطار العام للضحك هنا هو الضيق أو الألم أو الكرب *Distress* ، إذ لو لم تضحك تلك السيدة لانفجرت باكية

أو لنهضت ساخطة لاعتة ١ — وهكذا نرى أن مكدوجال يطرح الرأي القائل بأن الضحك هو تعبير عن اللذة أو السرور ، لكي يقرر أن الشيء المضحك — على العكس من ذلك — ليس بالموضوع السار ، وإنما هو موضوع لو لم نستجب له بالضحك لسبب لنا الضيق أو الألم . فالوظيفة الأساسية للضحك هي وقايتنا من آلام المشاركة الوجدانية التي قد تترتب على تأثرنا بتصائب الغير على نحو ما تتأثر بمصائبنا الشخصية . والنظرية الحقيقية في تفسير الضحك إنما تلخص في هذه العبارة ، ألا وهي أن الضحك هو الترياق الواق من التعاطف أو المشاركة الوجدانية^(١) .

ولو أننا رجنا إلى شهادة أصحاب الفكاهة وأهل النكتة ، لوجدنا أنهم يشتركون مع مكدوجال في تقرير وجود علاقة بين الضحك والألم ، أو بين المواقف الفكاهية والمأساة أو اللراما . وهذا شارلى شابلن نفسه يقول : « إن الناس ليتعاطفون معى بحق حينما يضحكون : فإنه ما يكاد الطابع التراجيدى لأى حدث يزيد عن الحد ، حتى يصبح الموقف بأكمله باعثاً على الضحك » . ومعنى هذا — كما قال مكدوجال تماماً — أن الضحك نجىء في الوقت المناسب ، حتى يهبنا شيئاً من المناعة ضد تلك الجرعة الزائدة من الألم أو المأساة ١ ويقول والت دزنى

W. Mc Dougal : « *An Outline of Psychology* », (١)
Methuen, 1928, London, pp 165—170

Walt Disney : « إن الناس كثيراً ما يتعاطفون حين يضحكون . والملاحظ أنه لما كان من دأب الأطفال أن يتعاطفوا بشكل مبالغ فيه ، فإنهم قد يجدون أنفسهم مضطرين في بعض الأحيان إلى أن يغلقوا أعينهم حينما يكونون يإزاء بعض المواقف المروعة »^(١) . ولكننا في هذه الأمثلة لسنا إلا يإزاء انتقال من الضحك إلى التعاطف ، لا العكس . — فإذا ما تساءلنا عن السبب الذي من أجله قد نضحك عند رؤيتنا لبعض الأحداث السادية الوحشية التي نشهدها في الرسوم المتحركة (مما قد يولد لدينا الشعور بالخوف أو الهول أو الفزع أو على الأقل التأثير والتعاطف في الظروف العادية) ، وجدنا أن السر في ذلك هو أننا نعرف جيداً أننا لسنا يإزاء مخلوقات حقيقية وآلام واقعية ، بل نحن في موقف « هو خالص » أو « تسلية صرفة » ، بدليل أن سلوك الشخصيات المائلة في تلك الرسوم المتحركة سرعان ما يدأبنا على أنه لم يلحق بها أى ضرر أو لم يصبها أى أذى . وقد يتصور الطفل لأول وهلة أن الحيوان المسكين الذى سقط من علوة شاقق — في أحد أفلام والت دزنى — لا بد من أن يكون قد تهشم ومات ، فإذا به يراه ينهض بسرعة أمام ناظريه لكي يواصل حركاته البارة في خفة ونشاط .

Cf. R. Ghosh : « An Experimental study of (١) humor. » ; London University, 1939. — Abstract in « British Journal of Educ. Psych. », 1939, IX, 98. —

وهكذا لا يملك الطفل في مثل هذه المواقف سوى أن يضحك لتلك المفاجآت السريعة التي تنتقل به من التعاطف إلى الضحك ، وبالعكس . . .

ولو أننا أنعمنا النظر في هذا النوع من الضحك الذي ترتبط فيه الفكاهة بالتعاطف أو المشاركة الوجدانية ، لوجدنا أنه لا يتوقف على أى تغير في الموقف الخارجى ، بل هو يتوقف على اتجاهنا الوجدانى أو حالتنا النفسية . وآية ذلك أن الموقف الخارجى قد يبقى على ما هو عليه ، كما فى حالة السيدة التى زلت قدمها فوقعت على الأرض فى الطريق العام ، وأدى وقوعها إلى اتساخ رداءها بالغبار وإصابة وجهها برذاذ الوحل . هنا نجد أنه لا سبيل إلى تغير الموقف الناجم عن سقوط تلك السيدة : لأن رداءها قد اتسخ بالفعل ولم يعد لها حيلة فى ذلك ، وإن كان فى وسعها عن طريق الاتجاه الوجدانى أو الحالة النفسية أن تستغف بهذه الكارثة البسيطة أو أن تهون من شأن تلك المصيبة الصغرى ، وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى كثير من المواقف الأخرى التى قد يظل فيها عنصر المأساة أو الإهانة أو الخطورة أو الجدية على ما هو عليه ، وإن كان فى وسعنا عن طريق الضحك أن نزود أنفسنا فى مثل هذه الأحوال بضرب من « المناعة النفسية » التى تجعلنا نستغف — ولو إلى حين — بما يترتب على الموقف من آثار سيئة . وأما حينما نمجز عن مواجهة ما يعرض لنا من أحداث سيئة بمثل هذه « الآليات الدفاعية » التى

تنطوى على عنصر الفكاهة والسخرية والاستخفاف، فإننا نظل متأثرين
بجدية الموقف، وتكون استجابتنا بعيدة كل البعد عن التسليم بالأمر
الواقع أو العمل على تقبله بروح الاستخفاف^(١).

وكثيراً ما يواجه الإنسان مواقف الخوف والقلق والهلع بأن يتفجر
ضاحكاً. وفي مثل هذه المواقف تظهر بوضوح أهمية كل من العوامل
الداخلية والخارجية؛ وذلك لأنه حينما يضحك الإنسان لمواجهة المواقف
الخطيرة التي يتعرض لها، فإنه بلا شك إنما يحاول عن طريق الضحك
أن يرفع من روحه المعنوية أو أن يعمل على تقوية حظه من الشجاعة.
وهناك حالات أخرى قد يضحك فيها الإنسان لمجرد أنه استطاع أن
ينجو من خطر محقق، أو أن يهرب في اللحظة الأخيرة من موت محتوم.
وكثيراً ما ينفجر الجنود (في الخطوط الأمامية) في ضحك شبه هستيري،
على أثر انفجار بعض القنابل على مقربة منهم، وتسببها في قتل عدد
من زملائهم! وقد روى لنا أحد الباحثين الإنجليز كيف أن سيدة
طاعنة في السن، خرجت ترقص ضاحكة في الشوارع، على أثر انفجار
قنبلة شديدة أطاحت بالمنزل المجاور لمسكنها، فكانت تقهقه بصوت
مرتفع وهي تقول: «لقد أصبحنا الآن في الخطوط الأمامية؛ أجل،
لقد أصبحنا الآن في الخطوط الأمامية!»

Flugel : « *Humor & Laughter* » ; in « *Handbook* (١)
of *Social Psychology* Vol. II., pp 715—716

ولكننا ما نكاد نتحدث عن هذا النوع الأخير من الضحك ،
حتى نجد أنفسنا قد تجاوزنا العنصر الوجداني المحض ، لكي نتعرض
للحديث عن العنصر النزوعي الذي يتخذ فيه الضحك دور « الآليات
الدفاعية » . والواقع أن الاتجاهات الوجدانية قد تلعب في حياتنا النفسية
دور « الآليات الدفاعية » ، فليس بدعا أن نجد فرويد وغيره من
الباحثين يتحدثون عن نوع من الفكاهات فيه تنظر الذات إلى همومها
العادية ومشاكل حياتها اليومية بشيء من التحرر الرواق والاستغفاف
الهزلي . وسنرى فيما يلي كيف يمكن أن ترتبط الفكاهة ببعض حالات
الخوف والقلق والخصر النفسي على نحو خاص ، وكيف يؤدي الضحك
في مثل هذه الأحوال دور « إنكار الواقع » والسموّ بنا نحو آفاق
« الأنا الأعلى » .

الفصل السابع

العنصر النزوعي في الضحك

٢٢ — رأينا من قبل كيف حاول هربرت اسپنسر أن يفتقر السبب الذي من أجله يعتبر السرور عن نفسه بلغة الابتسام والضحك ، بقوله إن السرور طابعا ديناميكيا يجعل منه طاقة زائدة لابد من أن تلتص لها بعض المنافذ . ومعنى هذا أن اسپنسر قد وجد في « الضحك » مخرجا نافعا تفيض عبره قوتنا العصبية الزائدة التي لو ظلت حبيسة لكانت مصدر خطر كبير على حياتنا النفسية . ولكن إذا كان اسپنسر قد حرص على تأكيد عنصر « إطلاق الطاقة » الذي يتم عن طريق حالة الانشراح العام *Euphoria* ، فإن ثمة باحثين آخرين قد عُنوا ببيان وظيفة الضحك باعتباره وسيلة للإفراج عن بعض الطاقات الجزئية التي كانت قد عُيِّتت لمواجهة موقف جدى ، ثم زال الخطر على حين فجأة ، أو تبدل الموقف نفسه بما لم يكن فى الحسبان ، إما لأسباب خارجية ، أو لأننا أنفسنا لم نلبث أن تحققنا من أن الأمر لم يكن من الخطورة بما وقع فى ظننا . وليس من اليسر عمليا أن نفرق بين حالات « الانطلاق » الكلية العامة ، وحالات « الانطلاق » النوعية الخاصة ، لأن المرء قد يكون يزاء موقف تم فيه عملية تحرير الطاقة نتيجة لمظرف

خاص مؤقت ، أو هو قد يمرّ بفترة طويلة من العنت والإرهاق تعقبها على حين فجأة حالة تفريغ للطاقة المكبوتة (كما يحدث مثلاً حينما يندفع بعض التلاميذ إلى الطريق العام فرحين متهللين لخروجهم من المدرسة) ، أو هو قد يجد في الضحك شيئاً من التحرر الوقتي من أسر بعض مظاهر الكبت أو القمع الواقعة عليه بصفة شبه مستمرة (كما في حالة النكات الموجهة ضد بعض المواضع الاجتماعية أو القيود الثقيلة المفروضة على الناس نتيجة لبعض الظروف الاقتصادية أو السياسية . . . الخ) ، أو هو — أخيراً — قد يشعر بانطلاق الطاقة نتيجة لحالة مرزور عامة أو لشعور غامض بالسعادة . — ونحن نلاحظ أن الباحثين الذين يؤكدون عنصر « تفريغ الطاقة » نتيجة لحالة « الانسراح العام » يسلّون أيضاً بوجود حالات نوعية خاصة قد يتم فيها ضرب من التحرر الجزئي للطاقة عن طريق بعض المواقف الفكاهية العارضة . وهذا ما قرره اسبنسر نفسه حينما ذهب إلى أن عنصر « المفارقة » *Incongruity* قد يتدخل على حين فجأة في موقف ما من المواقف ، فيهيّط به من مستوى جدى رفيع ، إلى مستوى هزليّ وضعيف ، وعندئذ لا تلبث الطاقة المعبأة التي لم تعد لازمة لمواجهة الموقف الجديد أن تنطلق عن طريق الضحك . — وهما يكن من شيء ، فإن عنصر إطلاق الطاقة — سواء أكان فجائياً أم غير فجائى — هو العنصر الغالب الذى يكاد يميّز جميع أنواع الفكاهة ، بحيث قد لا نكون مغالين

إذا قلنا إنه لا يقل أهمية وعمومية عن صفة اللهو أو اللاواقعية التي سبق أن قلنا إنها قدما تنفصل عن الموقف الفكاهي بصفة عامة .

بيد أن الاعتراف بأهمية هذا العنصر لا يلبث أن يقودنا — كما لاحظ فلوجل — إلى إثارة مشكلة هامة ، وتلك هي مشكلة الوقوف على الطبيعة الدفينة لشتى الانفعالات ومظاهر الإجهاد العقلي التي تنطلق حينما نجد لها منفذاً عبر الفكاهة والضحك . وهنا نجد أن بعضاً من المفكرين قد حاول أن يحل هذه المشكلة بالرجوع إلى ميل أصلي واحد ، أو انفعال رئيسي قائم بذاته ، يفسر عن طريقه عملية «تفريغ الطاقة» . ولكن ربما كان الأدنى إلى الصواب أن يقال إن أى ميل انفعالي — كائناً ما كان — يمكن أن يندمج في الموقف الفكاهي ، فيؤاد لدينا استجابة الضحك ، كما لاحظ برت *C. Burt* في بحثه الموسوم باسم « سيكولوجية الضحك » . وهكذا قد يكون في وسعنا أن نتميز بين ضروب مختلفة من الضحك ، تبعاً لنوع الانفعال الذي ينطلق أو يتحرر عن طريق الموقف الفكاهي . فانفعال الغضب والخصام يولد الفكاهات العدوانية والنوادر التهكمية والدعابات الساخرة ، والشعور بالنقص يثير بعض النوادر الخفيفة التي تتسم بطابع الحياء والحجل ، والميل الجنسية تعمل على ظهور النكات المأجنة المقترنة بالتعبيرات الفاضحة أو التلميحات الرمزية ، والتقرز يؤدى إلى ظهور ضرب من المجون الرايلي (نسبة إلى

الكاتب الفرنسي رابليه^(١) ، وبعض الفككات البذيئة التي تدور في معظمها حول موضوع « الإخراج »^(٢) . واذن فإن طابع الفكاهة يتوقف على نوع الميل الذي تحرّره ، أو طبيعة الانفعال الذي تطلقه ؛ وبالتالي فإن الفكاهات تختلف فيما بينها بحسب نوع الوظيفة النفسية والاجتماعية التي تؤديها في حياتنا كأفراد وجماعات . ومن هنا ، فقد يكون من الأهمية بمكان — بالنسبة إلى الباحث الذي يتصدى لدراسة الفكاهة والضحك — أن يعنى باستقراء الشحنات الانفعالية المختلفة التي تطلقها الفكاهة في شتى صورها ، بدلا من أن يقتصر على تقرير أهمية عنصر واحد من عناصر الضحك ، أو جانب واحد من جوانب الفكاهة .

٢٣ — وربما كان أهم ميل من الميول التي ينطوى عليها العنصر النزوعى في الفكاهة والضحك هو الميل الذى عبّر عنه توماس هوبز حينما قال بأن الأصل في الضحك هو شعورنا بالتفوق أو الاستعلاء أو الامتياز . وقد ترددت هذه النظرية من بعد عند ديكارت واسبينوزا وبودلير واستندال وبين Bain وجروس Groos ومارسل بانويل M. Pagnol وغيرهم . وقد سبق لنا أن أشرنا فيما تقدّم إلى الرأى الذى ذهب إليه لودففى Lindoole حينما ارتأى أن فى الضحك شيئا من القدر أو التشقى من الآخرين . وقد قرّر هذا الباحث أيضا أن

(١) Rabelais (١٤٩١ - ١٥٥٣)

(٢) أى الفككات المتعلقة بالناظر أو البراز Scatological.

الشعور بالتفوق الذى يقترن بالضحك كثيراً ما يكون مجرد « محاولة تعويض » يراد بها تغطية خوفنا من التعرض لحالة « الدونية » أو « النقص » ، كما يحدث مثلاً حينما نجد أنفسنا فى موقف مبهين يدعو إلى السخرية ، فنضحك على سبيل الدفاع عن النفس . أما مارسل بانيول فإنه يقول : « إن الضحك إنما هو نشيد انتصار ، لأنه تعبير عن استعلاء وقتي يكتشفه فى نفسه على حين فجأة ذلك الشخص الضاحك حينما يتحقق من تفوقه على الشخص الذى يسخر منه ^(١) » . ويعود بانيول فيقسم الضحك إلى نوعين : « ضحك إيجابى » *Rire Positif* يقرر أنه هو الضحك الحقيقى ، الصحى ، المنعش ، الموقى ، وهذا هو الضحك الذى ينبعث عن شعور المرء بتفوقه على خصمه أو على جماعته أو على العالم كله ، أو على نفسه ؛ « وضحك سلبى » *Négatif* يقرر أنه ضحك حزين متجهّم غليظ القلب ، وهذا هو الضحك المتولد عن شعور المرء بنقص الآخر أو ضعفه أو ضعفه ، أعنى أنه ضحك الاحتقار أو الازدراء أو الانتقام أو التشفى . وبين هذين القطبين النائيين يقع « الضحك المكتمل » الذى هو مزيج من النوعين السابقين ، وفيه يضحك « الإنسان » من كل قلبه ، بل بنفسه وجسمه معاً ، كما يحدث مثلاً حينما يفرح المرء باسترداد بلاده من قبضة الأعداء ، وارتداد الناصبين

Marcel Pagnol : « Notes sur Le Rire », Paris, (١)
Nagel, 1947, pp. 42-43.

عنها مدحورين منهزمين . والذين شهدوا خروج آخر جندي أجنبي من ميناء بورسعيد ، بعد العدوان الإنجليزي — الفرنسي العاشم على أرض الوطن ، يستطيعون أن يحزنوا بحق عن دموع الفرح التي انسكبت من عيون الوطنيين ، ممزوجة بفرحة التشفى من ذلك العدو الغاصب الذى سولت له نفسه أن يدوس أرض الوطن .

ويحاول بعض الباحثين أن يفسروا لنا الأصل فى هذا النوع من الضحك ، فترام يربطون بين التفوق و « العدوان » *Aggression* ، بدعوى أننا قد « نكشف عن أسناننا » ، لا لى نعبّر عن غبظتنا أو مودتنا ، بل لى نعرب بطريقة رمزية (مرجع بلا شك إلى آثار الوحشية الأولى القديمة) عن شعور العداء أو الرغبة فى المهاجمة . ويذهب بعض الباحثين إلى حدّ أبعد من ذلك ، فيقرر أن ضحكات بعض الناس لا زالت تنطوى حتى اليوم على شيء من الوحشية التى تتسم بها جماعات آكلى اللحوم البشرية . وأصحاب هذا الرأى يصدّون ضمنا بأن الضحكة الأولى للبشرية هى ضحكة الاستيلاء على الفريسة والاستمتاع بنشوة الانتصار . ويضيف البعض إلى هذا أن للابتسامة طابعا وجدانياً تناقضياً *Ambivalent* ، وأن الأصل فى شتى أنواع الفكاهات هو الضحك المتولد عن الانتصار فى معركة جسمية بدائية^(١) .

Cf. Charles Lalo : « *Esthétique du Rire* », (١)
Flammarion, 1949, pp. 54 — 55.

ولكننا حتى إذا لم نسلم بهذه النظرية في تفسير الضحك ، فإننا لا بد من أن نعترف بأن الإنسان كثيراً ما يضحك لشعوره بالتفوق على خصمه أو الانتصار على غريمه ، خصوصاً حينما تجيء صروف القدر فتُنزل به الكثير من صنوف الزاياة والتحقير . وقد كان الإنسان البدائي يضحك لما يصيب غيره من عاهات وأمراض وعيوب جسمية ، فلما صقلت الحضارة البشرية روح الإنسان الفكاهية ، أصبح من النادر اليوم أن يسخر الإنسان المتحضر من عيوب الآخرين الجسمية ، أو عاهاتهم الخلقية ، أو مصائبهم المادية . ومع ذلك فإن الضحك قد يتولى علينا حينما نرى الرجل القزم أو العملاق أو الأحمق أو صاحب الأنف الكبير ، وإن كنا قد نحاول في مثل هذه الأحوال أن نكتم ضحكنا حتى لا نبدو بمظهر « الإنسان الشرير » الذي يسخر من نقائص مخلوقات آدمية تفسد . وحينما يلتم بأحد هذه المخلوقات المشوهة أى حادث بسيط مما يثير الضحك في العادة (كأن تزل قدمه ، أو يصيبه رذاذ الوحل في الطريق) فإننا قلما نسمح لأنفسنا بالضحك ، لأننا نشعر بأن مثل هذا المخلوق العاجز المسكين ليس منا بالقرين المنافس ، ومن ثم فإننا لا نفرح لما يلتم به من محن أو نكبات . وأما فيما عدا ذلك ، فإن الإنسان المتحضر لا زال يضحك لمصائب الناس الصغرى ، وما قد يعرض لهم من عثرات بسيطة ، وما قد يتردّدون فيه من مزالق سيكولوجية أو اجتماعية ، خصوصاً حينما يكون وقوعهم في مثل هذه المآزق بسذاجة

وحسن نية . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يرتكبه بعض الطلبة من أخطاء غير مقصودة في أوراق الإجابة أثناء الامتحان ، نتيجة لتسرّعهم في الكتابة ، وعدم انتباههم إلى ما قد يقعون فيه من مزالق لفظية . وهكذا قد يجد المصحح نفسه بإزاء بعض التوريات الطريفة التي تثير الضحك لما تحتله من معان جنسية (مثلاً) ، مما جرى على قلم الطالب بحسن نية . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما مارواه لنا أحد الباحثين الإنجليز من أن طالباً جامعياً كتب يقول (في معرض نقده لمنهج سيكولوجي اقترحه أحد علماء النفس لاستجواب الأطفال بمجموعة من الاختبارات اللفظية) : « لا شك أن عشرة آلاف طفل سنوياً هو عدد ضخم بالنسبة إلى رجل واحد ؛ وخمس دقائق يقضيها مثل هذا الرجل مع كل طفل هي بطبيعة الحال فترة قصيرة جداً لا تكفي لتأدية عمل متقن بالنسبة إلى كل طفل على حدة » ! ولا نرانا في حاجة إلى القول بأن المضحك في هذه العبارة هو احتمالها لمعنيين *double Entendre* ، فإنه لمن الواضح أنها تخفى وراء تعبيراتها الساذجة ضرباً من التورية الجنسية التي تثير ضحكنا لأن الكاتب لم يقصد إليها مطلقاً .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن الإنسان حينما يضحك لما يلم بالآخرين من محن تجلبها عليهم بعض القوى الطبيعية أو بعض العوامل اللاشخصية ، فإن ضحكه في مثل هذه الأحوال قد يكون وليد شعوره الدفين بأن هذه المحن أو المصائب هي جزاء حق لهم . وهنا يدخل

عنصر « الدار » أو « الانتقام » ، فيضاعف من حدة عاصفة الضحك لدى النظارة ، كأن تهبّ عاصفة شديدة فتطيح بقبة رجل أرستقراطي شامخ بأنفه ، أو ترفع ذيل ثوب هفّاف ترتديه سيّدة أنيقة معجبة بنفسها ، أو تحمل إلى أعماق اليمّ لباس البحر الجميل الذي تتأهب عادة حساء لارتدائه . . . الخ . ولعلّ من هذا القبيل أيضاً ما يرويه فلوجل من أن عاصفة شديدة هبت يوماً على مدينة ساحلية من مدن الشاطئ الجنوبي لبريطانيا ، فأطاحت بقبة رجل أسود اللون كان راكباً في الدور العلوي بإحدى السيارات الصومية ؛ وطارَت القبة في الهواء إلى أن استقر بها المطاف على مقربة من رجل وزوجه كأننا يسيران في الطريق ، ولكن أحداً منهما لم يتنازل بالتقاط القبة ، لجرّد أنها كانت ملكاً لرجل ملوّن ! وتشاء الصدف أن يتمكن الرجل الأسود من استعادة قبعته في نفس اللحظة التي هبت فيها على حين فجأة عاصفة أخرى شديدة لم تلبث أن انتزعت قبة تلك المرأة وحملتها بعيداً إلى أن اختفت بها مع موجات البحر العاتية ! وينظر المرء إلى هذا المشهد ، فلا يسهو أن يضحك ملء رثتيه ، لأن الطبيعة قد انتقمت للرجل الأسود المسكين ، فجعلت تلك المرأة المتكبرة تدفع ثمن صلفها وترفها .

ويعلق الكاتب الإنجليزي على هذه القصة فيقول إن الذين لم يشهدوا من هذه السلسلة الفكاهية من الأحداث سوى الحلقة الأخيرة منها فقط ، لم يستجيبوا للموقف بالضحك ، نظراً لأن عنصر

« القصاص » *Talion* المتضمن في هذه القصة لم يستثن لهم ، في حين منعهم الأدب أو التعاطف من أن يستجيبوا للموقف استجابة الضحك .

والواقع أن نيميسيس *Nemesis* إلهة النعمة كثيراً ما تتكفل بإضحاك الناس ، خصوصاً حينما تسخر من عليّة القوم على مرأى من عامة الناس فتطامن من حدة صلفهم وكبريائهم ، وتكسر من شوكة غرورهم وتعاليمهم . وهكذا قد يصيب رذاذ الوحل حلة بيضاء يرتديها رجل متألق ، أو قد ينكسر كعب حذاء تلبسه سيدة متجلمة ، أو قد تتعطل سيارة فخمة تركبها جماعة من الأثرياء . . . الخ . ونحن حينما نشهد منظرًا من هذه المناظر فإننا لا نتألم أنفسنا من الضحك ، وكأن لسان حالنا يقول : « فلننظر هل سيشمخون بأنوفهم بعد هذا » ! والواقع أن ثمة إحساساً كامناً بالحسد أو الغيرة أو العداوة يمكن من وراء هذا النوع من الضحك ، بدليل أنه لو وقعت مثل هذه الأحداث لأناس بسطاء عاديين ، لما خطر ببالنا أن نضحك ، في حين أننا ننفجر بالضحك حينما تقع مثل هذه الأحداث لقوم متكبرين من أهل الطبقة الأرستقراطية . وهذا النوع من الضحك هو ما أطلق عليه پانيول اسم « الضحك السلبي » لأننا لا نضحك فيه بسبب تفوقنا واستعلائنا ، بل بسبب نقص الآخرين وضعفهم . وربما كانت أعلى صورة من صور هذا النوع من الضحك هي

تلك التي تضحك فيها الضحايا بسبب شنى الجلاد نفسه^(١) !
وهناك حالات أخرى قد يستولى فيها علينا الضحك ، نتيجة
لشعورنا بأننا في جو خائق من الرسميات ، كما قد يحدث أحيانا في بعض
الاحتفالات الرسمية أو الاجتماعات الجدية أو المناسبات الدينية ، إذ قد
لا يقوى المرء عندئذ على كتمان رغبته في الضحك ، وكأن خطورة
الموقف هي التي ولدت لديه — على سبيل التناقض — استجابة الضحك .
وهكذا قد يحدث أن ينفجر المرء ضاحكا في كنيسة أو محفل رسمي أو
موكب جنازة أو في أية مناسبة جدية أخرى . وهذه الواقعة إن دلت
على شيء ، فأما تدلنا على وجود قرابة خطيرة بين الشيء « الجليل »
Sublime الباعث على الاحترام ، والشيء « المضحك » Ridicule الباعث
على السخرية . وليس يكفي لتفسير مثل هذه المواقف أن نهيب بشعور
« العدوان » ، وإنما يجب أن نتذكر دائما أن الأطراف في تماس ،
وأن الصبغة الجدية لأي موقف إذا زادت عن الحد ، فإنها لا بد من
أن تستحيل إلى صبغة هزلية^(٢) .

٢٤ — فإذا عمدنا الآن إلى دراسة العلاقة بين الفكاهة وبين
بعض حالات القلق أو الحصر النفسي Anxiety ، وجدنا أن الفكاهة

Marcel Pagnol : « Notes sur Le Rire », Nagel, (١)

Paris, 1947, p. 106-7.

J. C. Flugel : « Humor & Laughter », in (٢)

« Handbook of Soc. Psych. », Vol II., p. 716.

هنا قد تقوم بدور « الفيلسوف الساخر » الذى يلتقى جلائل الأمور بروح
الهزل والاستخفاف ، أو بروح الاستهانة وعدم الاكتراث ، كما أظهرنا
على ذلك فرويد فى بحث قيم له عن الفكاهة ظهر عام ١٩٢٨^(١) .
وفى هذا البحث نرى صاحب مدرسة التحليل النفسى يستعين بنظريته
فى « الأنا الأعلى » *Super - Ego* ، فيقرر أن « الأنا » *Ego* قد
يتخذ فى حالات الضيق أو القلق أو الحصر النفسى وجهة نظر « الأنا
الأعلى » ، ومن ثم فإنه قد ينجح عن هذا الطريق فى أن ينظر إلى هموم
الأنا العادية ومشاعلها الطبيعية بشيء من « التحرر الرواقى » الذى لا يخلو
من نبل وسمو . — ولكى يدلل فرويد على صحة نظريته ، نراه يهيب
ببعض الأمثلة الموضحة ، فيروى لنا بعض « نكات المشقة » *Gallows* ،
Humour ، كقصة ذلك المحكوم عليه بالإعدام الذى اقتيد إلى غرفة
المشقة صباح يوم الاثنين (وهو أول أيام الأسبوع فى البلاد المسيحية) ،
فابتدر منفذى الحكم بقوله : « حقا إنها لبداية طيبة للأسبوع » ! . وثمة
قصة أخرى تروى عن أحد المحكوم عليهم بالإعدام ، فقد سئل قبل تنفيذ
الحكم عليه ، عما إذا كان لديه شيء يريد أن يقوله ؛ فما كان منه إلا
أن أجاب : « أجل ، قولوا للقاضى على لسانى إنه قد يكون أحسن صنعا
بما أصدر على من حكم ، فر بما يكون فى الإعدام — رغم كل شيء —

S. Freud : «Humor» ; in «International Journal (١)
of Psych.» , 1928, IX, 2-6.

عظة وعبرة لى . « ا والمضحك فى هاتين القصتين أن المحكوم عليه بالإعدام يتجاهل موته تماماً ، وأنه يفترض أن الأمور تسير كالمعتاد ، وكأنما هو لا يكثر بما سيوقع عليه من حكم بعد حين ، أو كأنما هو ينكر الواقع ويستخف تماماً بهيبة الموقف ^(١) !

وثمة نادرة أخرى يرويها أحد الباحثين عن بحار ضربت غواصته أثناء الحرب الأخيرة ، فوجد نفسه بين أمواج المحيط على ظهر سُلّام صغير تتقاذفه الأنواء . ولح البحار سفينة ركاب قادمة من بعيد ، فصاح فى بحارتها قائلاً : « إيه يارفاق ، هل أتم سائرون فى طريقى ؟ » . وفى هذا المثل أيضاً نجد أن ثمة إنكاراً واضحاً للحقيقة ، أو تجاهلاً تاماً لخطورة الموقف ، وكأن كل شيء يسير كالمعتاد ، أو كأن ليس ثمة ما يهدد حياة المتكلم ا . ولكن فرويد يلاحظ أن فى « إنكار الواقع » عن طريق النكته ضرباً من السمو الأخلاقى الذى يرجع إلى ما يقوم به « الأنا الأعلى » من دور هام فى صميم هذا النوع من أنواع الضحك . « فالأنا الأعلى » فى مثل هذه الحالات يعامل « الأنا » كما يعامل الشخص البالغ الرحيم طفلاً ألت به بعض المصائب الصغرى أو الكوارث البسيطة ، إذ يبين له فى ضوء خبرته الشخصية الناضجة كيف أن تلك الأحداث البسيطة هى مما لا يستحق كل هذا الاهتمام ا وكان « الأنا الأعلى »

Cf. Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», Ch. III., pp. (١)

يريد أن يأخذ بيد « الأنا » ، فيوجه إليه الحديث في محبة وحنان قائلاً له : « اسمع يا صاح ؛ إن كل ما يبدو لك خطيراً عظيم الشأن لا يخرج في صميمه عن كونه الأعيب أطفال ، فاعلم إذن أن هذا الشيء التافه لا يستحق منك سوى المزح والمزاح » . وهكذا نرى أن فرويد ينسب هنا إلى « الأنا الأعلى » وظيفة أخرى تختلف عما نسب إليها في كتابه السابق الموسوم باسم « الأنا والهو » (*The Ego & the Id*) (الذى ظهر قبل ذلك بخمس سنوات) ، وذلك لأن الأنا الأعلى هنا يقوم بوظيفة التشجيع والتبرير والتسوية ، فيأذن للأنا بالرجوع إلى حالة الطفولة التى يتحقق فيها إنكار الواقع أو إعادة الحكم على الحقيقة . ولهذا يقول فرويد : إن من شأن هذا التفسير الجديد للفكاهة أن يدلنا على أن هناك حقائق أخرى لا زال أمامنا أن نعرفها وتدارسها عن طبيعة « الأنا الأعلى » . — وعلى كل حال ، فقد يكون فرويد محقاً في قوله بأن الفكاهة تؤدي دوراً رئيسياً هاماً في صميم حياتنا النفسية ، لأنها باستبعادها لإمكانية الألم ، تتخذ مكانها بين الأساليب الفعالة التى ابتدعها عقل الإنسان للتحرر من قسرة الألم ، فتقف إلى جوار العصاب والهذاء والنشوة والكبر والتجرّد والوجد الصوفى . . الخ . ولكن الفكاهة تتميز عن هذه الأساليب المختلفة التى قد نلتجئ إليها لدفع الألم ، بأنها تنطوى على عنصر أخلاقى واضح يتمثل في كونها تعمل على تحريرنا ورفع مستوانا النفسى ، فهى من قِمت أداة فعالة تحافظ على كيان « صحتنا

النفسية .^(١) ويقرر فرويد - في موضع آخر - أن الفكاهة ترتد بنا إلى تلك الحرية السعيدة المنطلقة التي كنا نستمتع بها إبان الطفولة قبل أن تتكون لدينا أية رقابة أو أى رقيب . فالوظيفة الأولى للفكاهة هي استعادة عهد الانسراح العام (*Euphorie*) البدائي الذي كنا نجمل فيه المزاح ، ولا نعرف الهزل ، ولا نملك القدرة على تأليف النكتة ، ولا نشعر بالحاجة إلى الفكاهة حتى نستمتع بلذة الحياة . ويستطرد فرويد فيقول : إن العلاقة وثيقة بين الفكاهة والحلم ، لأن كلاً منهما ينطوي على ضرب من الارتداد نحو حياة الطفولة ، من أجل التملص - ولو إلى حين - من كل تلك الحدود أو القيود التي تفرضها علينا الحياة الجدية . ومعنى هذا أننا نجد في « الضحك » نكوصاً نحو الأسلوب الطفلي في المعيشة بما فيه من أحلام برّاقة وخيالات سعيدة وتهاويل جميلة ؛ وهذا هو السبب في ربط فرويد للفكاهة بالحلم^(٢) .

٢٥ - وثمة حالات أخرى تقوم فيها الفكاهة أيضاً بدور « إنكار الواقع » ، فضلاً عن أنها قد لا تخلو أحياناً من كل أثر من آثار التوكل أو الاستسلام (*Resignation*) ، وإن كانت تنطوي على « عنصر عدواني » ينأى بها عن ذلك النوع من الفكاهة الذي وصفه فرويد

(١) *Freud: «Humor» ; «International Journal of Psych»* 1928, IXp. 5.

(٢) *Cf. Freud: «Wit & its relation to the unconscious»* (٢) N-Y, Moffat Yard, 1916.

بأنه « عامل سموي أخلاق » ، ونعني بها تلك الحالات التي يتجه فيها الميل العدواني إما نحو الذات أو نحو الآخرين . وهنا نجد أن « الأنا الأعلى » أقل رحمة بالذات منه في الحالات السابقة ، وأشد نزوعاً نحو العدوان بصفة عامة ، ومن ثم فإنه قد يتجه نحو معاقبة نفسه والقصاص من ذاته ، أو هو قد يتجه نحو إدانة الآخرين واضطهادهم دون أدنى رحمة أو شفقة . وقد درس ريك *Reik* (١٩٢٩) نماذج لهذا النوع من الفكاهة ، فوقف بحثاً بأكمله على دراسة « الفكاهة اليهودية » التي تنطوي في معظم الأحيان على نواذر ونكات تدور حول اليهود أنفسهم ، إما باعتبارهم شعباً أو باعتبارهم أفراداً . وكان فرويد قد سبق هذا الباحث إلى دراسة بعض نماذج للفكاهة اليهودية ، فأنهى من بحثه إلى القول بأن بني إسرائيل هم في فكاهاتهم من أكثر شعوب العالم انتقاداً لأنفسهم « *Auto - Critique* » . وهذا ما يؤكد ريك سرّة أخرى حينما يقرر أن الفكاهة اليهودية تنطوي على شعور بنقائص الذات وعيوب النفس ، وكأن « الأنا الأعلى » عند اليهودي يريد أن يدعو « الأنا » إلى إلقاء بعض النظرات النقدية على المثالب والنقائص الكامنة في أسلوب المعيشة وطرق التعامل لدى اليهود . ولكن وراء هذه الروح النقدية التي تعبّر عنها الفكاهة اليهودية تكمن ميول عدوانية حادة ضد النفس ، وهذه بدورها تكشف عن ميول عدائية قوية ضد الشعوب الأخرى (أو ضد « الكفار » *Gentils* على حد تعبير اليهود

أنفسهم) ؛ إذ أن هذه الشعوب هي التي تسببت في ظهور تلك « القلائص اليهودية » التي تهكم عليها فكاهات اليهود أنفسهم . وكان لسان حال الفكاهة اليهودية يقول لتلك الشعوب : « انظروا كيف خلقتم منا موجودات تعسة ، ضعيفة ، شاذة ، ضيقة الأفق ، غليظة القلب ، مقلّدة على نفسها وعلى الآخرين ا » .

والواقع أن اليهود إذ ينتقدون أنفسهم — في نكاتهم العديدة — إنما ينتقدون خصومهم وظالمهم ، ممثّلهم في ذلك كبثّل الشخص الـ«وداوى *Mélancholique* الذي يتجه نقده الذاتى — كما لاحظ فرويد — لا نحو ذاته ، بل نحو الموضوع المُبغض الذى امتصّه واستدّججه فى ذاته . وقد شرح ريك الآلية السيكولوجية التى تقوم عليها هذه العملية ، فسرّد علينا قصة ذلك اليهودى الذى جلس إلى مائدة واحدة يلعب القمار مع أحد الأشخاص ، فظل يفاغله وينش فى اللعب ، دون أن يفتن إلى ذلك زميله . وأخيراً ضاق اليهودى نفسه ذرعاً بهذا الوضع ، فانفجر صائحاً فى زميله : « يالك من رفيق أحق ، حتى تقبل اللعب مع شخص . . . ارتضى أن يلاعب شخصاً مثلك ا » . ففى هذه النكتة يتوقع السامع أن يقول اليهودى : « حتى تقبل اللعب مع شخص مثلى » ، ولكن ذيل النكتة هو الذى يكشف لنا عما فيها من وخز ، لأن عدوان اليهودى لا يرتدّ إلى نفسه ، بل يتجه صوب زميله فى اللعب ، باعتباره مسئولاً عن تماديه هو (أى اليهودى)

في النفس ا . وهكذا نرى أن العدوان الذي تنطوى عليه أمثال هذه النكات يتضمن انتقالاً من « النقد الذاتى » المحض إلى نقد الآخرين باعتبارهم موضوعات مُبَغَضَة تمتعها الذات *Introjected* — . وهذه الحالة شبيهة بما يحدث في أمراض الهوس حيث يستمد المريض لذته من عملية تحرر مفاجيء يتخلص فيها من « الموضوع العدائى » المُستَدْمَج في ذاته ، وهو الموضوع الذى طالما ران عليه كحمل ثقيل بفيض ، فكان سبباً في شعوره بالإثم وفي توجيهه للعداء نحو نفسه . ومعنى هذا أن « النقد الذاتى » الذى تنطوى عليه الفكاهة اليهودية إن هو إلا انتصار على الخضم نفسه باعتباره موضوعاً خارجياً قد امتصته الذات واستدجمته في صميم كيانها^(١) .

وقد لا يقف العدوان في أمثال هذه النكات عند حدود الخصوم البشرىين ، بل هو قد يمتد أيضاً نحو قوة أخرى غير بشرية تتخذ في نظر اليهود صورة الطاغية الأكبر ، ونعنى بهذه القوة « الله » نفسه ا ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن يهودى هجوز من أنه قال في لحظات احتضاره : « انصتوا يا أبناءى : لقد ظلت طوال حياتى أعمل وأكد وأقتر على نفسى وأحرمها شتى اللذات ، آملاً أن أجد يوماً في الحياة الأخرى شيئاً أفضل يعوضنى عن كل ما افتقدت . والآن لن أتردد في أن أضحك طويلاً لو أتى وجدت أنه ليس ثمة شيء هناك

Flugel: «*Humor & Laughter*»; «*Handbook of Soc. (١) Psych.*», Vol. II., p. 718.

أيضاً ١ . ويعلق فلوجل على هذا المثال بقوله : إن وراء المظهر السطحي للنقد الذاتى ، على نحو ما تكشف عنه شكوك هذا اليهودى المحتضر حول قيمة العمل المضى فى الحياة ، ومدى حكمة الحرمان والتقتير الشديد ، تكن نزعة شكية عدائية تتجه نحو الدين ، بل نحو الله نفسه باعتباره الخادع الأكبر الذى يضل عباده بالوعود المعسولة التى لن تتحقق يوماً ! وقد لا يمثل العداء هنا بطريقة سافرة مكشوفة ، ولكنه يتخفى وراء تلك الشكوك التى يثيرها هذا اليهودى العجوز لأول مرة بعد حياة مليئة بالعمل والنشاط والحرمان والتقتير . وبينما نجد فى مثال المحكوم عليه بالإعدام (الذى أقر قبل شنته موقف قاضيه) أن ثمة تخلياً من جانبه عن ميوله العدوانية السابقة ، نجد فى مثال اليهودى المحتضر أن ثمة عناصر عدوانية تمردية تظهر لديه للمرة الأولى ، فتكشف بذلك عن انفجار مفاجئ لطاقتاته العدوانية التى ظلت حبيسة طوال حياته !

٢٦ — أما الميلان الأخيران اللذان ترتبط بهما ظاهرتا الفكاهة والضحك ، فهما الميلان المقترنان بمسائل العلاقات الجنسية والعمليات الإخراجية . وبينما نجد أن باحثاً مثل برجسون قد أغفل تماماً هذا النوع من الفكاهة ، نجد أن فرويد (فى كتابه الموسوم باسم « النكتة فى علاقتها باللاشعور ») يهتم اهتماماً كبيراً بدراسة النكات الجنسية والفكاهات البذيئة ، حتى يقف على دلالتها السيكولوجية ومضمونها الأخلاقى . وقد لاحظ فرويد بصفة عامة أنه إذا كان هذا النوع من

الفكاهة ينطوى على عنصر تخفف أو راحة ، فذلك لأنه يحررنا إلى حين من أسر الأوامر والنواهي الأخلاقية التي تفرضها علينا الجماعة ، فيدع لنا مطلق الحرية في أن نتعرض لتلك المسائل المحرمة أو المحظورة التي اعتدنا في الغالب أن نتجنب الإشارة إليها . وإذا كنا قد درجنا على تسمية النكات الجنسية باسم النكات البذيئة أو القذرة ، فذلك لأنها تنطوى على شيء من الارتداد نحو مرحلة الطفولة التي ترتبط فيها اللذة بالقذارة . والواقع أن النكات التي تنصب على العملية الإخراجية ، تدلنا على احتمال نكوص بعض البالغين نحو المرحلة الإستية . حقا إننا نضحك في العادة من كل خلل أو اضطراب يطرأ على الوظائف الطبيعية (كالتحريك والتنفس والهضم والإخراج والتناسل) لدى الآخرين ، لأن هذا الاضطراب أو الخلل يذكرنا بأننا أسمى منهم ، ما دمنا نتمتع بصحة جيدة ؛ ولكن من المؤكد أن المضمار الأكبر الذي تستطيع فيه الفكاهة أن تصول وتجول إنما هو مضمار الوظائف الإخراجية والتناسلية . ولما نعدم نماذج لهذا النوع من الأدب الفكاهي في الأغاني ، ومقامات بديع الزمان الهمذاني ، وعند الجاحظ وأبي نواس ، وفي بعض جلسات أبي حيان التوحيدي الواردة في « الإمتاع والمؤانسة » ... الخ^(١) . أما في الآداب الأوروبية ، فإننا نجد أمثلة طريفة لهذا النوع

(١) كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٤٢ ، تصحيح أحمد أمين وأحمد الزين (الطبعة الثامنة عشرة) .

من الفكاهة عند تشوسر *Chaucer* الكاتب الإنجليزي القديم ، وعند الأديبين الفرنسيين المشهورين رابليه *Rabelais* وأرمان سيلفستر *Armand Silvestre* . وقد روى لنا بعضهم كيف أن الكباريه الباريسي المشهور « مولان روج » (إلى عهد قريب) كان يستعين على إضحاك الناس باستخدام رجل عجيب كان يظهر على خشبة المسرح فتتعالى قهقهات الجمهور وصيحاته بما لم يسبق له نظير ! وقد كانت كل براعة هذا الرجل إنما تنحصر في قدرته العجيبة على إصدار أكبر عدد ممكن من الأصوات الطبيعية غير المستحبة بنغمت خاصة ، وأسماء متنوعة ، وعلى النحو الذي يروق له ^(١) .

ولا بد لنا من أن نلاحظ أن ممارسة مثل هذه الوظائف الطبيعية لا تستثير أي ضرب من الضحك لدى الجماعات البدائية ، لأن الناس قد اعتادوا أن يمارسوها على الملأ ، وبمطلق الحرية . وأما لدى الجماعات الراقية ، فإن ممارسة مثل هذه الوظائف الطبيعية على الملأ قد تستثير ضحك الناس ، خصوصاً إذا ارتبطت لدى الفرد بعجز تام عن التحكم في أجهزته العضوية ووظائفه الطبيعية ! ولعل من هذا القبيل مثلاً ما قد يحدث للماشق المتلهف الذي يصاب بنوبة إسهال حادة في عين اللحظة التي يلتقي فيها بمعشوقته ، أو ما يحدث للواعظ المتحمس الذي ينبعث

Cf. M. Pagnol : « Notes sur le Rire » Paris, (١)
Nagel, 1947, pp. 69 - 77.

منه صوت غير مستحب في الوقت الذي تشق فيه صيحاته العالية عنان السماء ! وإنا لنستطيع في بعض المجتمعات (كما هو الحال مثلاً في المجتمعات الطبية والعلمية وغيرها) أن نتحدث عن بعض أجزاء من الجسم ، دون أن يستثير هذا الحديث بين السامعين أى همس أو لفظ أو ضحك أو تلييح خفي ، ولكننا ما نكاد نشير إلى هذه الأجزاء من الجسم — في مجتمعات أخرى — حتى ترتسم الابتسامات على الشفاه ، وتغمر العيون بالضحك . . . الخ . فإذا استعمل فرد للإشارة إلى تلك الأجزاء من الجسم كلمات سوقية أو ألفاظاً مبتذلة ، كانت استجابة الحاضرين لهذه العبارات البذيئة إما بالاستفكار والاستهجان ، أو بالابتسام والضحك^(١) . — ولكن ربما كانت اللذة الكبرى التي يجدها الناس عادة في الفكاهة الجنسية بصفة عامة ، إنما هي مظهر لارتياح الأفراد في بعض الأحيان لمخالفة بعض المنوعات ، أو التعدي على بعض المحرمات *Taboos* . ومن هنا فإن المجتمعات تتحرر في العادة من هذا النوع من الفكاهة ، بدليل أنها تفرض على النكات الجنسية رقابة صارمة ، باعتبار أنها تنطوي على عنصر « إغراء » أو « غواية » . ولما كان المستمع لثل هذه النكات يشترك مع رآويها في التلذذ بمخالفة الأوامر والنواهي الأخلاقية ، فإن كثيراً من المجتمعات تحرم نشر هذا

Ch. Lalo: *«Esthétique du Rire»*, Flammarion, 1949 (١)
pp. 220 — 221.

النوع من الفكاهة ، وتشدد في الرقابة على كل فن مكشوف قد يشير إليه من قريب أو بعيد . وكما كان المجتمع أشد محافظة على الآداب العامة ، وأميل إلى استعمال العنف في قمع كل ما يחדش الحياء ، زاد تحريمه لهذا النوع من الفكاهات ، وتضاعفت رقابته على كل ما يشتم فيه روح المجون أو الفحش أو الغواية . ومن هنا فقد ظهرت عندنا الحاجة إلى بوليس الآداب ، كما ظهرت الحاجة إلى الرقابة الصارمة على الأفلام . وقد حلّ فرويد ظاهرة الفحش في التنكيت فذهب إلى أن الفكاهات البذيئة هي عبارة عن استثارة مقصودة يراد بها الإشارة ضمناً أو صراحة إلى بعض المواقف أو الأفعال الجنسية . فالشخص الذي يروي نكتة جنسية في حضرة أشخاص من الجنس الآخر إنما يرمى من وراء ذلك إلى توليد استجابة الخجل أو الحياء أو الغواية أو الإغراء لدى أفراد هذا الجنس . وقد تتخذ عملية التنكيت البذيء طابع « التمرية » ، فيكون موقف راوى النكتة الجنسية من أى شخص من أفراد الجنس الآخر كوقف الشخص الذى يُعزّيه ويكشف عن عورته . وحينما يتجه راوى النكتة أنجاهاً صريحاً نحو شخص من الجنس الآخر يجعله هدفاً لفكاهته الجنسية ، فكأنه في هذه الحالة يريد أن يחדش حيائه حتى يضطره إلى أن يشترك معه في انتهاك حرمة القانون الأخلاقى .

والشاهد في العادة أن النكات الجنسية لا تدور إلا بين أناس

تتقارب أعمارهم وتتحد طبقتهم الاجتماعية ، فهي — مثلاً — قلما تجرى بين والد وابنه ، أو بين رئيس ومرءوس ، أو بين ممول كبير وعُمّال مصنعه . . . الخ . وبينما نجد في الفكاهة العدوانية أنه كثيراً ما تكون العلاقة بين راوى النكتة والمستمع إليها هي علاقة الأسمى بالأدنى ، نجد في الفكاهة الجنسية أن العلاقة بين صاحب النكتة وسامعها هي علاقة الند بالند . ومع ذلك فقد تدخل في النكتة الجنسية بعض عناصر عدوانية كعنصر الانتقام أو القصاص *Retaliation* ، خصوصاً حينما يجد صاحب النكتة نفسه في موقف يضطره إلى الدفاع عن نفسه . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن سائق من أهل الطبقة العليا كان يقود سيارة نقل إبان الإضراب الذي حدث في إنجلترا عام ١٩٢٦ فابتدرته سيدة حانقة من أهل الطبقة العاملة بقولها : « يا لك من لقيط ابن زنا » ، فما كان منه سوى أن أجابها بقوله : « مرحباً بك يا والدتي ، فإنها لمفاجأة سعيدة أن ألتقي بك في هذا المكان » . وثمة نادرة أخرى تروى عن أحد الأمراء من أنه التقى يوماً بغريب يشبهه تمام الشبه فابتدره بقوله : « هل كانت أمك يا هذا تقيم في البلاط الملكي ؟ » ، فأجابه الغريب بيديته الحاضرة : « كلاً يا سيدي ، بل أبي » .

ولكن ربما كان أهم ما تتميز به النكات الجنسية هو كونها تتصف بصفة « الرمزية » ، مثلها في ذلك كمثل الأحلام ؛ وإن كان المفروض في « رمزية » النكتة الجنسية أنها مما لا يستغرق فهمه على

السامع . وإن الجمهور المثقف ليثور في كثير من الأحيان على نظرية فرويد في تفسير الأحلام ، ولكنه هو نفسه لا يلبث أن يضحك ملء شذيقه — في الصالونات الخاصة — عند سماعه لبعض النكات الجنسية التي تتركز على رمزية شبيهة برمزية الأحلام . والواقع أن هناك كثيراً من النكات التي تقوم أولاً بالذات على الرمزية ، بحيث إنه لولا ما فيها من عنصر رمزي ، لما كان لها أى طابع فكاهي على الإطلاق ، بل لكانت مجرد روايات بذئثة وأقاصيص مبتذلة . وأما حينما يعجز السامع عن فهم أو تأويل الرموز التي تنطوي عليها النكتة الجنسية ، فإنه بطبيعة الحال لن يستطيع أن يستجيب لها بالضحك ، لأن هذه النكتة لن تكون في نظره عندئذ سوى هراء محض (كما هو الحال غالباً في الحلم) .

يبدأ أنه على الرغم مما هنالك من خلاف بين الحلم والفكاهة من حيث درجة طواعية كل منهما للفهم أو قابليته للتأويل ، إلا أن « الرمزية » في النكتة تؤدي نفس الدور الذي تؤديه في الحلم ، لأنها تخفى أو تحجب « المعنى المحترم » خلف ستار جدى أو مظهر محترم ، فتسمح بمروره على الرقيب *Censor* . أما حينما لا نكون الرمزية شفافة كل الشفافية ، أعني حينما تكون السكناية مستترة أو مطوية ، فقد يكون في استطاعة صاحب النكتة أن يتخفى وراء المعنى الآخر لعبارة ، وبذلك يصير السامع هو المسئول عن المعنى الجنسي الذي فهمه من تلك

العبارة . وهكذا نرى أن راوى النكتة قد يلقي بفكاهته الجنسية في براءة تامة ، لكي لا يلبث أن يقتصر بسذاجته المصطنعة ، في اللحظة التي يحدس فيها السامع بالمعنى الجنسي ، وكأنما هو لم يقصد قط إلى ذلك « الفحش » الذي وقع في ظن السامع ، وكثيراً ما يلجأ بعض أصحاب الفكاهة أو أهل النكتة إلى هذه الطريقة في إلقاء دعاياتهم ، فترام يعمدون إلى إخفاء معالم تلميحاتهم تحت ستار من البراءة أو الجدية أو الاحترام ، حتى يتركوا السامع هو الذي يسيء الظن بمعاني عباراتهم ، وبذلك يصبح هو المسئول عن تصور المعنى البذيء ، وبالتالي عن خرق القاعدة المحرمة ، ويضحك صاحب النكتة ملء شذقيه حينما يرى الحيرة تستولى على نفس المستمع : لأنه من جهة قد ضلّله فجعله يذهب بعيداً في تفسير مرمى النكتة ، ثم هو من جهة أخرى قد عاد فخرمه متعة التلذذ التام بمخرق القاعدة المحرمة . — أما المستمع نفسه فإنه يضحك (في شبه ارتياح) حينما يعود راوى النكتة فيكفيه مشقة الخروج على القانون الأخلاقي أو الإشارة إلى شيء مدنس معيب ، وبذلك يحدث في نفسه شيئاً من الراحة أو التخفف — *Relief* — إذ يعفيه من التفكير في المعنى الجنسي المحظور . ولكن التحرر من أسر القاعدة الأخلاقية قد تم بالفعل ، حتى بعد هذا التصحيح الذي عمد إليه صاحب النكتة ، ومن ثم فإن كلا من راوى النكتة والمستمع إليها لابد من أن يضحك ،

ما دام التلميح إلى الموضوع الجنسي قد أحدث أثره في نفس كل منها
من طرف خفي^١ :

وكثيراً ما يلتجئ إلى هذه الحيلة في إنحماك الجمهور بعض رجال
الكوميديا في بلاد الغرب ، فترام يشيرون من طرف خفي إلى بعض
المسائل الجنسية ، فما يكاد الجمهور ينفجر ضاحكاً ، حتى يتصنع راوى
النكتة الاستياء ، وكأن الجمهور قد خدش حيائه ، فيتندر المستمعين
بقوله : « أرى أيها السادة أنكم قد أسأتم الظن بي ، فما إلى هذا
قصدت ا » ثم يشرح صاحب النكتة عبارته الملتوية في سذاجة تامة
وبراءة مطلقة ، مُبدئاً استهجاناً لعقلية الجمهور التي أساءت به الفن ا
وقد يلجأ أحياناً إلى مثل هذه الطريقة بعضُ خبثاء الطلبة فيوجهون
إلى أساتنتهم عبارات ملتوية تشير من طرف خفي إلى بعض المعاني
الجنسية ، فما يكاد الأستاذ يُفاجأ بهذه العبارات المشبهة التي لا يدرى
على أى محور ينبغي أن يتأولها ، حتى يبادر التلميذ الخبيث إلى تكملة
عبارته في سذاجة وبراءة ، محوِّلاً مجرى الحديث إلى أمور عادية تافهة ،
وكانما هو لم يكن بفتح من قريب أو بعيد إلى أى معنى جنسى ا وحينما
يكون لدى الطالب من البراعة ما يستطيع معه أن يظهر بمظهر الشخص
الجاد أو حسن النية ، فإن تأثير نكته لا بد من أن يتضاعف في نفوس
زملائه من الطلبة الخبثاء ا

٢٧ — ولو أننا أنعمنا النظر إلى مشكلة « الرمزية » في الفكاهة ،

لتبين لنا أن عنصر اللهو أو العبث أو اللاواقعية الذى تنطوى عليه هو الذى يجعلنا نقبل ما فيها من خروج على الآداب العامة أو النواهي الأخلاقية ، لأننا نعلم أن نخرق القاعدة المحترمة هنا لا يعدو اللهو أو التسلية التى لا تجتمل أى معنى جدى أو أية دلالة خطيرة . وليس أدل على صحة ما نقول من أن الجمهور المثقف الذى تضنيه الأحاديث الجدية والمناقشات العلمية (فى قاعة بحث مثلاً) سرعان ما يقبل عن طيب خاطر على هذا النوع من الفكاهة حينما ينتقل إلى غرفة التدخين المجاورة . وهذا الانتقال الذى يحمل معنى اللهو أو التسلية ، فيبيح لنا المحظور فى لحظات الراحة والاسترخاء ، هو بعينه الذى قد يسمح لنا أحياناً بأن نتذّر على بعض الموضوعات الجدية التى قلما نفكر عادة فى وضعها موضع السخرية ، كوضع الموت أو الجحيم مثلاً . وليس من النادر فى مثل هذه المناسبات أن نجد رجل الدين نفسه يضحك لأمثال هذه الفكاهات ، فى حين أنه لن يقبل بطبيعة الحال فى المواقف الجدية أن يتناول شخص مثل هذه الموضوعات بروح الفكاهة أو السخرية أو التندر ، فيشير إلى الموت أو الجحيم مثلاً بإشارات هزلية تنطوى على الاستخفاف والاستهزاء .

وقد يكون عامل « البُعد عن الواقع الجدّى » هو المسئول فى بعض الأحيان عن تمادى أشخاص محتشمين خجولين فى الكثير من أحلام اليقظة التى تدور حول مسائل الجنس ، على خلاف عاداتهم فى مواقف

الحياة العملية . والظاهر أن الطابع الشخصي الانعزالي لأحلام اليقظة يقوم هنا بدور مماثل لذلك الدور الذي يلعبه عنصر اللهو أو التسلية في حالة الفكاهة . ولكن الفكاهة تختلف من جهة أخرى اختلافا جوهريا عن أحلام اليقظة ، من حيث أنها لا تنطوي على صبغة شخصية انفرادية ، وإنما هي تتسم دائما بصبغة اجتماعية . وهذه الحقيقة تقودنا إلى الاعتراف بأهمية العامل الثانى الذى يظهر أنه يلعب دورا كبيرا في تحديد موقفنا من الرموز الجنسية ، ونعنى به العامل الاجتماعى . والواقع أن فى الاستماع إلى نكتة جنسية عملية « مشاركة فى الإثم » *guilt* تتم بين شخصين أو أكثر ، وهذه العملية هى التى تتسبب فى تراخى آليات « الكبت » ، كما يحدث مثلاً فى حالة الشخصين اللذين يشتركان فى فعل جنسى واحد ، فيعمل اتحادهما معاً على قهر ما فى نفس كل منهما على حدة من دوافع « الكف » . وإذا صح ما يقوله المثل المأثور من أن الحزن المتقاسم تهبط حدته إلى النصف ، فقد يصح أيضاً أن يقال إن الإثم المتقاسم لا بد من أن تهبط حدته كذلك إلى النصف ! وكما أن اللذة المتقاسمة هى لذة متضاعفة ، فإن النكتة الجنسية التى يتبادلها شخصان لا بد أن تولد لهما لذة مضاعفة ! والحق أن راوى النكتة الجنسية والمستمع إليها يجدان لذة مضاعفة فى التأمر على خرق المحرمات ، وإن كانت لهما هنا تقف عند حدّ اللهو

أو العبث أو التسلية ، فتضمن للمجتمع ألا تجيء هذه العملية ضارة أو مؤذية^(١) .

وصفوة القول أن عمليات تفريغ الطاقة عن طريق الفكاهة هي عمليات معقدة متباينة إلى أقصى حد . وليس تنوع تلك العمليات بقاصر على عمومية أو جزئية مصدر التوتر الذي يتم انطلاقه ، أو على طول أو قصر مدة ذلك التوتر ، أو على طبيعة مضمونه الانفعالي ، وإنما يمتد هذا التنوع أيضا إلى صميم الآلية النفسية التي يتم عن طريقها التحرر أو التخفف . وهكذا قد يحدث إطلاق الشحنة الانفعالية نتيجة لإدراك مباشر بأنه لم يعد ثمة مبرر لحالة التوتر ، كما في حالة التهرب من موقف خطر ، أو قد ينطوي التحرر على عملية « تعويض » (بالمعنى الأدلري لهذه الكلمة) كما في حالة الضحك مما ألمّ بنا من سوء حظ أو إهانة ، أو قد يعمل على توليد الراجعة والتخفف في نفوسنا تغير في صميم موقفنا الباطني نفسه ، كما في حالات النكتة (بالمعنى الفرويدي الدقيق لهذه الكلمة) ؛ أو قد يكون السبب الجوهري في إطلاق الطاقة الحية في نفوسنا هو مجرد الارتداد نحو حالة أولية من حالات الطفولة ، كما في الفكاهات الساذجة أو السخيفة القائمة على اللغو أو الهذر أو السلوك الطفلي الساذج ؛ أو قد يكون التحرر أخيراً وليد ضرب من

cf. *Flugel «Humor & Laughter»*; *«Handbook of Soc. Psych.»*, II., 1954, p. 720. (١)

التفاهم الرمزي الذي يتم بين شخصين ، كما في حالة الفكاهات الجنسية التي يقلل فيها عامل المشاركة الاجتماعية من حدة الشعور بالإثم أو القلق . ومهما يكن من شيء ، فإن الملاحظ في كل حالات الفكاهة أن عملية « تفريغ الطاقة » تتم دائماً تحت إشراف « الأنا » ، بعكس ما يحدث في حالات الأعراض العصائية والأمراض النفسية التي لا تنطوي على أى « تنافس ذاتي » *Ego-syntonic* . ومن هنا فقد أجمع كثير من الباحثين على أن الفكاهة هي خير أسلوب يحلّ سوى في تفريغ الطاقة ، بينما ذهب آخرون إلى أن النكتة هي وسيلة فعالة تسمح للأنـا *Ego* بأن يتخلص من تهديدات الـ « هو » *Id* والـ « أنا الأعلى » *Super-ego* عن طريق تغيير نوع الرضا أو الاشباع الذي يسمح به الـ « هو » . وأخيراً يقرر بعض الباحثين أن الفكاهة قد تسمح لنا بتحقيق ضرب من « الانتصار » أو السيطرة على ما كان من قبل مبعث خوف أو رهبة في نفوسنا .

الفصل الثامن

العصر الإدراكي في الضحك

٢٨ — إذا استعرضنا تاريخ النظريات الفلسفية التي تعرض أصحابها للدراسة الضحك، فإننا نجد أن عدداً غير قليل من هذه النظريات يميل إلى تأكيد الجانب الإدراكي — أو العرفاني — *Cognitive* في الضحك، كما يظهر من دراسات شيشرون ولوك وكنت وجان بول (رشت *Richter*) وشوبنهاور وليس ورنوفييه وغيرهم... وهؤلاء الباحثون قد أجمعوا على تفسير الضحك بالتناقض أو الاستحالة أو الانحراف عن المنطق، بدعوى أن أي موقف لا يمكن أن يكون فكاهياً إلا إذا انطوى على ضرب من المفارقة أو التناقض أو الاختلال في القياس. ويربط دوجا *Dugas* بين الضحك واللعب فيقول: « إن كل شيء قد يصبح مثاراً للضحك، ولا شيء قد يكون كذلك. وبيت القصيد هنا هو الزاوية التي ننظر منها إلى الأشياء. فإذا ما نظرنا إلى الشيء من وجهة نظر لاهية، بدا لنا الشيء في الحال باعثاً على الضحك. » وأما المقصود باللهو أو « اللعب » *le jeu* في نظر هذا الباحث فهو استخدام الخيال في النظر إلى الأشياء، بحيث نعامل الواقعي على أنه لا واقعي، ونعامل اللاواقعي على أنه واقعي. ومن هنا فإن « للتناقض » دوراً هاماً في شتى أنواع الفكاهة، لأنه هو الذي يؤكد عامل « اللاواقعية » *L'Irréalité*،

واللاواقعية هي الصفة المميزة للشئ المضحك أو للموضوع الفكاهي بصفة عامة^(١).

ويؤكد باحث آخر هو شاپرو *Chapiro* هذه الصفة اللاواقعية التخيلية التي تميز الضحك، فيقول: إن «الاستحالة التي تكن في صميم الشئ المضحك هي عبارة عن مفارقة حسية عيانية ظاهرة... ولكن، لما لم يكن «المُحال» أى موضع في صميم شعورنا بالواقع، فإنه ما يكاد «المُحال» يُدرك، حتى يبادر الشعور إلى طرده، لأنه يرى فيه علامة على اللاواقعية أو اللاوجود». وإذن فالضحك إنما ينشأ حينما ينفذ «التناقض» إلى صميم شعورنا، فنقع ضحية لذلك «الوهم الكوميدي» *Illusion comique*. ويضرب شاپرو مثالا لهذه «اللاواقعية المزلية» فيسوق لنا قصة عائلة بورجوازية لم تجد بُدًا أثناء حصار باريس من أن تأكل كلبها العزيز، حتى لأموت جوعا، وتجلس ربّة البيت إلى المائدة، وقد احتوى الطبق أمامها عظام الضحية المسكينة، فلا تملك سوى إبداء أسفها على فراق كلبها العزيز بقولها: «يا لأزور المسكين! لو كان معنا الآن، لكان قد اغتبط حقاً بهذه الأكلة الشهية اللذيذة!»^(٢). واللاواقعية في هذا المثال صارخة لا تحتاج إلى تعليق!

(١) cf. Dugas: «*Psychologie du Rire*», 1902, cité par

Lalo, op. cit., p. 94-95.

M. Chapiro: «*L'Illusion Comique*», Paris, 1941, (٢)

(Ibid., pp. 95-6.)

وعلى حين يؤكد شاپيرو ما في المواقف الفكاهية من استحالة وتناقض ولاواقية ، نجد أن باحثاً آخر ألا وهو سُولنير *Saulnier* يقرر أن الضحك هو انتقال من الجدى إلى غير الجدى ، أو هو تذبذب للعقل بين الواقعي واللاواقعي . ومعنى هذا أنه لا يمكن أن يكون الموقف مضحكاً إلا إذا أحدث لدى العقل ضرباً من التذبذب أو التراجع أو الانتقال بين هذين القطبين المتناظرين المتعارضين . فالمعيار الذي يقترحه هذا الباحث لتمييز الفكاهة هو تذبذب الفكر بين الواقعي المُدرَك واللاواقعي المستحيل^(١) .

وكان شو بنهور قد علل الضحك بقوله : إنه مجرد تعبير عن إدراكنا المفاجئ لضرب من التناقض بين مفهوم عقلي تصورناه من قبل وبين بعض الموضوعات الحقيقية التي تكشف عنها الواقع أمامنا على حين فجأة ، فجاء ليس *Lipps* وقرر أن الضحك عملية ربط تتم بين تصورين أحدهما هام عظيم القيمة ، والآخر تافه ضئيل الشأن . والموقف المزلق إنما ينشأ حينما يتحقق المرء من وجود ضرب من « التباين » *contraste* بين التصورين ، أو حينما ينتقل الفكر من إدراك « الشيء العظيم الهام » إلى إدراك « الشيء الصغير التافه » ، أو العكس . ويضرب ليس مثلاً لذلك فيقول : إننا حينما نرى طفلاً صغيراً يرتدى قبعة والده الكبيرة التي

cf. Saulnier: «Le Sens du Comique», Paris, 1940 (١)
Ch. II.

يرتديها في المناسبات الرسمية لا نملك سوى أن نضحك ؛ ونحن هنا نتقل من القبعة الكبيرة إلى رأس ذلك الإنسان الصغير ، فنضحك لمراى الطفل ! وعلى العكس من ذلك حينما نرى شخصاً بالغاً يرتدى لباس رأس صغير مما يلبسه الأطفال عادة ، فإننا في هذه الحالة نتقل من الرأس الكبير إلى لباس الرأس الصغير ، فنضحك لمراى القبعة ! ويخلص ليس من هذا إلى أن الكوميديا إنما تنشأ حينما نكون في انتظار شيء حائل بالمعنى ، نتيجة لإدراكنا لموقف كلئ يحملنا على توقع ذلك الشيء ، فلا نلبث أن نجد أنفسنا يإزاء شيء تافه لا يحمل أى معنى لإدراكنا أو عاطفتنا أو فهمنا . . . فالضحك إنما ينشأ عن انحراف مجرى الأحداث أو سياق الحديث أو منطق التصورات عما كان الإنسان يتوقعه انحرافاً فجائياً مباغتاً . وكل انتقال من قطب الكبر أو العظمة أو الجلال إلى قطب الصغر أو التافهة أو الصغار لا بدّ من أن يستثير لدينا الضحك . ولولا إدراكنا لهذا « التباين » الصارخ بين القطبين ، لما استجبنا للموقف بالضحك^(١) .

٢٩ — والواقع أننا لو استرجعنا ما سبق لنا قوله عن أهمية « الرمزية » في الفكاهة ، لتبيّن لنا بوضوح أهمية العنصر الإدراكي في الضحك ، ما دامت الطبيعة القصوى لهذه الرمزية إنما تقوم على الربط بين عناصر

cf. Charles Lalo : *«Esthétique du Rire»*, Ch. I. (١)
VI Partie, p. 109—110.

هى فى صميمها عقلية وليست واقعية . ومعنى هذا أن الرمزية لا تخرج
فى الحقيقة عن كونها مظهراً خاصاً من مظاهر تلك العملية النفسية التى
يتم فيها ضرب من الخلط (أو المزج) بين أشياء مختلفة أو أحداث متباينة
أو ميول متنوعة ، ونعنى بها عملية « التكثيف » *condensation*
(كما يسميها علماء التحليل النفسى) . ويذهب بعض الباحثين فى هذا
الصدد إلى أن عملية « التكثيف » هى التى تضمن لنا توفر عنصر
« الإيجاز » *Brevity* الذى قال عنه شكسبير إنه « روح » الدعابة
أو النكتة . وكثير من الكلمات اللاذعة أو « القفشات » البارة التى
نضحك لها من كل قلوبنا ، لا تعدو هذا النوع من الفكاهة ، لأنها
تقوم فى جوهرها على نوع من الإيجاز البليغ الذى يخفى وراءه نقداً لاذعاً ،
كأن نعرف « النصيحة » بأنها « أرخص نقد متداول » و « الجملة »
بأنها « أحب ضروب الرياء إلى الناس » و « الجبان » بأنه « من إذا
نزل بساحته خطر داهم ، كان عقله فى رجليه » ، و « الأناني » بأنه
« كل امرئ قاسد النوق ، اهتمامه بنفسه أكثر من اهتمامه
بى أنا » إلخ .

وليست « التوريات » اللفظية *Puns* سوى الأعيب لغوية تقوم
أيضاً على عملية « التكثيف » ، لأننا هنا نحمل اللفظ الواحد معنيين ،
فنجعل الذهن ينتقل فى لحظة واحدة من معنى إلى آخر ، وبذلك نتزعج

منه استجابة الضحك. والأمثلة عديدة لا حصر لها على هذا النوع من النكات ، وهي جميعاً تقوم على ازدواج المعنى أو التلاعب اللفظي ، وفي كتب الأقدمين شواهد كثيرة على هذا الضرب من الفكاهات اللغوية . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري من أنه ركب ذات يوم سيارة أحد الأصدقاء ، فتمطلت بهما السيارة لخلل طرأ على أسلاكها الكهر بائية . وهبط الشيخ من العربة ، وسار في طريقه لا يلوى على شيء فأله صديقه : « رايح فين يا شيخ عبد العزيز ؟ » ، فأجابه الشيخ : « رايح أركب سيارة حسنة السير والسلوك » . وهناك نكتة أخرى من هذا النوع تدور حول مقابلة تمت بين « لمبة غاز » و « لمبة كهر باء » ، فقد أرادت الأولى منهما أن ترحب بالثانية ، فقدمت لها « سيجارة » ، وعندئذ قالت لها « لمبة الكهر باء » : « متشكّرة جداً ، أنا ما بادخنش » وكثير من النكات الجنسية التي تستثير لدينا الضحك إنما تعتمد على هذا النوع من التلاعب اللفظي . وإن القارئ ليتذكر بلا شك كثيراً من الفكاهات الجنسية التي تلعب فيها « التورية » الدور الرئيسي ، ولكن كاتب هذه السطور يستمّح للقارئ المذرف أن يروى له نكتة من هذا القبيل أتيح له أن يستمع إليها عَرَضاً : فقد وقف المترو القادم من مصر بمحطة كوبري الليمون في طريقه إلى مصر الجديدة ، وكان

« الكسارى » مشغولاً بالتطاعم إلى فتاة كانت تذرع المحطة جيئة وذهاباً ، ولم يكن فيها من جمال سوى بروز صدرها الناهد ا وفى تلك اللحظة بالذات سأله ركب : « منشية البكرى من فضلك ؟ » ، فأجابه المحصل وهو يواصل تطلعه إلى الفتاة : « لا ، الصّدر بَسْ » ا

وقد اختلف الباحثون فى تعليل السبب الذى من أجله تستثير التوريات فحكنا ، فذهب برجسون إلى أن التلاعب اللفظى هو فى نظرنا مظهر من مظاهر إطلاق العنان للغة ، وكأنّ اللغة عندئذ تنسى أو تنفاسى ذاتها الحقيقية ، فتريد هى أن تتحكم فى الأشياء ، بدلاً من أن تدع الأشياء تتحكم فيها . ومعنى هذا أن التلاعب اللفظى فى نظر برجسون هو الدليل على انحراف اللغة انحرافاً مؤقتاً ، وكأنّ الألفاظ تريد هى الأخرى أن تلهو وتعبث ؛ وهذا اللهو أو ذلك العبث هو السرّ فى فحكنا^(١) . أمّا بانيول فإنه يقول : إن الأصل فى اللغة أن تكون الخادمة للطبيعة للفكر ، تسيره وتطاولعه وتلين له . فإذا ما أصبحت اللغة هى الحاكمة للسيطرة على الفكر ، بدا لنا الشخص الذى يتكلم على هذا النحو وكأنما هو غمور يهذى أو محموم « يَهْلُوس » ا وحينما تتاح للمرء الفرصة لأن يشهد ضرباً من المساجلة اللفظية بين شخصين يتحكم فيهما منطق الألفاظ ، فإن أول ما يخطر على باله هو أن كلا منهما ليس

H. Bergson: «Le Rire», Ch. II., Le Comique de (١)
Mots, 1946, p92.

بالشخص الذى يُسيّر عقله ويتحكم فيه تفكيره . وهكذا قد يعدّ المرء نفسه « أسمى » من أمثال هؤلاء الأفراد الذين ينزلون بأنفسهم إلى مستوى المخلوقات العابثة التى تسخر من نفسها بمحض إرادتها^(١) .
يبدّ أننا نرى أن فى أمثال هذه التعليقات الظاهرة « التورية » أو التلاعب اللفظى تعثفا لا مبرر له لأن كل ما هنالك أن عنصر اللهو أو اللعب *jeu* المائل فى هذه العمليات الذهنية التى تقوم بها هو الذى يولد لدينا استجابة الضحك . فليست التورية عملية آلية نخضع فيها لمنطق اللغة وحدها — كما وقع فى ظن يانيول — بل الصحيح أنها عملية ذهنية تنطوى على « إيجاز » و « تكثيف » (بالمعنى السيكلوجى لهذه الكلمة) . وإذا كان بعض الباحثين من أمثال شوبنهاور ورنوفيه قد ذهبوا إلى أن الضحك — عموماً — هو انتصار للعُحال أو اللامعقول على المنطق أو المعقول ، فإن من واجبنا أن نصحح هذه المقالة بأن نقرر أن الضحك ليس بمثابة تعطيل للعقل وإنكار للمنطق، وإنما هو منطق من نوع خاص ، وبرهنة عقلية هى نتج وَحْدِها آية ذلك أن « التورية » التى يعدّها البعض بمثابة تعطيل للفكر هى فى صميمها عملية ذهنية تخفى تحت قناع « التلاعب بالألفاظ » نزوعاً خفياً يحاول أن يتسرّ تحت رداء المعنى المزدوج . ولو أننا استرجعنا المثل الذى سقناه لتورية

M. Pagnol : «Notes sur le Rire», Nagel. 1947, (١)
Le feu de mots, pp. 96 - 97.

طريقة تفوه بها تلميذ صغير حينما قال : « كل من ينظر إلى ألعنه ،
ألا لعنة الله على الناظر ! » ، لوجدنا أن في هذا المثال تعبيراً عن رغبة
ذلك التلميذ الصغير في تحدّي السلطة والخروج على النظام ، بدليل أن
« التورية » هنا هي التي تسمح له بأن يسب الناظر ، لاعناً في شخصه
كل « ناظر »^(١) .

وقد تكون الفكاهة أحياناً وليدة فهم حرفي للكلمات ، فتستثير
الضحك لما يكُن وراء هذا الفهم الحرفي من دلالة سيكولوجية كالنكتة
التي يرويها فرويد عن يهودي سئل يوماً : « هل أخذت حماماً ؟ »
فما كان منه إلا أن أجاب : « كلاً » ، ولكن لم ؟ هل نقص
واحد ؟^(٢) — وهذا الرد إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن صاحبه
شخص يهتم بالكسب أكثر مما يهتم بالنظافة ، بدليل أن أول معنى
قد تبادر إلى ذهنه هو فهم كلمة « يأخذ » بمعنى « يسرق » ، وقد يكون
الباعث على الضحك أحياناً هو جهل الشخص بمعنى اللفظ الذي
يستخدمه ، كما في حالة الأدعياء والمتقمرين ، خصوصاً أنصاف العلماء

(١) يحلو لبعض التلاميذ أحياناً أن يسوا أقرانهم تحت ستار الفكاهة ، فيرى
الواحد منهم — مثلاً — يقول لزميله : « إذا كنت أنت صاحب هذا العمل فلك أن
تغفراً ! » ، ولك أن تغفراً ! ! . وفي هذا امثل ، تجعل بوضوح لغة النطق باللفظ
المحرم أو المنوع !

*Have You taken a bath ? — No, Why? Is there (٢)
one missing?*

منهم ممن يحلو لهم أن يستخدموا الكثير من الكلمات الأجنبية في غير معانيها الأصلية . ونحن نذكر كيف كانت المجلات الفكاهية عندنا إلى عهد قريب جداً تجد في شخص « غنى الحرب » مادة خصبة للتندر والسخرية . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن أحد أثرياء الحرب من أنه زار الكثير من البلاد الأجنبية ، فلما قال له بعضهم : « إذن فأنت تعرف جغرافية خير معرفة » ، أجاب بقوله : « كلاً مع الأسف ، فإنه لم تتح لي الفرصة لزيارتها » .

وثمة قصة طريفة رواها لي أحد الأصدقاء فقال : إن رجال التربية والتعليم عندنا حاولوا منذ نحو ثلاثين سنة أو أكثر أن يدخلوا « علم النفس » ضمن برامج التعليم الابتدائي ودخل المدرس أحد فصول السنة الأولى الابتدائية ، فشرع يشرح لهم معنى كلمة « علم » ، ثم راق له بعد ذلك أن يسألهم عن معنى كلمة « نفس » ، فقال لهم : « مين فيكم يا شطّار يعرف معنى إيه نفس ؟ » . وهنا رفع تلميذ صغير يده طالباً الإجابة ، ثم عاد فأنزلها بسرعة . فقال له المدرس : « انت يا شاطر يا اللي في الآخر ، عايز تقول حاجة ؟ » فأجابه التلميذ : « لا ، عيب يا أفندم » . وعاد المدرس يسأله : « إيه هو اللي عيب يا شاطر ؟ » . فقال التلميذ : « أصل « نفس » يعني حمامة ا » وعاد المدرس يستوضحه : « حمامة إيه يا ولد ؟ » ، فإذا بالتلميذ يجيبه : « أصل ماما لما باجى أعمل زى الناس ، بتقول لي عيب يا ولد غطى نفسك » .

ولا نرانا في حاجة إلى أن نقرر أن الخطأ اللفظي أو اللساني كثيراً ما يكون باعثاً على الضحك ، فإن هذه حقيقة نعرف جميعاً كيف يستغلها في كثير من الأحيان كُتّاب الروايات الهزلية ومؤلفو المونولوجات الفكاهية . وكثيراً ما تكون التراجم الحرفية (من لغة إلى أخرى) مناسبة طريفة لإثارة الضحك ، خصوصاً حينما نجىء الترجمة ركيكة مفككة ، أو حينما نجىء منطقية على تورية غير مقصودة . . . الخ . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن فتاة إنجليزية من أنها علّقت على قصة ضبط فيكتور هيجو متلبساً بجريمة زنى *En flagrant délit* بقولها *d'adultère* « *M. Hugo a été pris flagrant dans le* » وقد جمع بيرسون وتيلور في كتابهما المسمى باسم « الفرنسية المكسورة »^(١) مجموعة من الدعايات اللفظية الناشئة عن الخلط الطريف بين اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وألحقا بها بعض الرسوم الكاريكاتورية المناسبة ، فترجما مثلاً العبارة الفرنسية « *Mise en scène* » (ومعناها إخراج فني بالعربية) بالجملة الإنجليزية « *There are mice in the rivers* » ورسموا إلى جوارها صورة لفتاة مرتعبة ، وقد رفعت هُذُب ثوبها ، مُشمرة عن ساقها ، على شاطئ "نهر السين" ، أمام كاتدرائية نوتردام ! كذلك ترجموا التعبير الفرنسي « *Plis aller* » بالجملة الإنجليزية

F. S. Pearson & R. Taylor: «Fractured French» (١)
London, 1951.

يمثل محطة ريفية من محطات السكة الحديدية الفرنسية ، وبها دورة مياه كُتب عليها « رجال » من ناحية ، و « سيدات » من ناحية أخرى . وفي هذا المثال الأخير ، نجد أنفسنا يازاء فكاهة تقوم على الربط بين لفتين ، وتستند إلى الجمع بين الصورتين اللفظية والبصرية .

٣٠ — وهذا النوع من الفكاهة يقودنا إلى الحديث عن الضحك القائم على إدراك المفارقة أو التنافر أو انعدام التجانس ، كما في الكثير من روائع الفكاهة الكلاسيكية المعروفة . والفكاهة هنا إنما تنحصر في التأليف بين عناصر متباعدة في الواقع ، أو المزج بين حقائق متباينة بطبيعتها ، أو التوفيق بين ظواهر متنافرة في العالم الخارجي . والأمثلة عديدة لا حصر لها على هذا النوع من الفكاهة ، خصوصاً لدى الأطفال ، كما يظهر من النكات العديدة التي تتضمنها في العادة مجلات الصغار في شتى المجتمعات . والظاهر أن المفارقات ، بصرية كانت أم سمعية ، تحتل مكانة كبرى في عالم الفكاهة ، لا عند الأطفال وحدهم ، بل عند البالغين أيضاً ، بدليل أن نسبة كبرى من النكات التي نضحك لها في حياتنا العادية إنما تقوم على عنصر التنافر أو عدم التجانس . فنحن نضحك حيناً نرى مشهداً يتجلى فيه التنافر بين « الشخص » و « البيئة »

Cf. Ch. Lalo: «Esthétique du Rire», 1949. Paris, (١)

Flammarion, p. 176

(أو « الموقف ») ، كأن نرى شخصاً يستدير ليخاطب صديقه الواقف إلى جواره على محطة الترام فإذا به يتحدث إلى حمار أمسك به صاحبه على مقربة منه ، أو كأن نرى شخصاً بديناً ضخم الجثة يضع فوق رأسه الكبير المتشامخ طر بوشاً صغيراً لا يصلح إلا لطفل ، أو كأن نرى كلباً يدخل الكنيسة وينفذ إلى الهيكل وقت الصلاة . . . الخ . وقد روى لنا شوپنهاور أن الممثل الهزلي جاريك *Garrick* كان يؤدي يوماً دوراً تراجيدياً على خشبة المسرح ، فلم يستطع أن يكتم ضحكاته حينما تطلع إلى النظارة فوجد أن أحدهم كان قد خلع شعره المستعار ، ووضع على رأس كلبه العزير الذي كان يحتمل المقعد المجاور له !

ولا بد لنا من أن نلاحظ أن المفارقة وثيقة الصلة بالاستحالة ، فإن عنصر المبالغة أو التهويل إذا انضاف إلى عنصر التناقض أو المفارقة لم يلبث أن يخرج بالموقف كله إلى عالم آخر هو عالم الاستحالة . وقد سبق لنا أن رأينا كيف أن من شأن بعض النكات أن تنقلنا إلى عالم خيالي يحررنا — إلى حين — من عالم الحقيقة . وهنا نتخذ النكتة طابع التفكير البدائي ، فنكون يازاء ضرب من الحلم أو الهذاء أو الابتكار السكينوفريني^(١) . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يرويهِ الكثيرون من أهل الفكاهة عندنا (خصوصاً أصحاب برنامج ساعة لقلبك) ، كأن

(١) نسبة إلى مريض الكيزوفرنيا *Schizophrenia* (أو اللصام) الذي يترن في العادة بين الملوسات والهذات ومظاهر البعد عن الواقع .

يقول أحدهم إنه ركب طائرة من نوع ردى ، فكان الركاب يُضطرون بين الحين والآخر إلى أن ينزلوا جميعا لكي يدفعوا بالطائرة إلى الأمام ، فما تكاد الطائرة تمشى قليلا حتى تعود إلى التوقف ، وهكذا دواليك — والواقع أننا كثيرا ما نتفجر ضاحكين حينما يروى لنا أحدهم نكتة ساذجة تنطوى على استحالة مادية أو عقلية ، وكأنما نحن نحمد لذة كبرى في أن نعود بعقولنا إلى مرحلة الطفولة التي كنا نستمري فيها أحاديث الجن والعفاريت ، وأخيلة ألف ليلة وليلة ، وكثيرا ما تكون صيغة « المبالغة » وحدها كافية لاستثارة عاصفة من الضحك لدى النظارة أو المستمعين كأن يقول ممثل هزلى في معرض التدليل على بدانة سيدة إنه تصب في اللفة حولها ولم يستطع إكمال الدورة ، أو كأن يدل على بقاء حلاقه الكسول بأن يقول إنه ما كاد يفرغ من عملية الحلاقة حتى كان شعره قد نبت من جديد . . الخ . ونحن في مصر نملك ثروة ضخمة من الأمثال العامية التي تستثير ضحكنا لما فيها من عنصر إغراق أو تهويل ، كهذا المثل الذى يبالغ فى وصف حب المصريات للنسل فيقول : « حبل ومرضة ، وجرة أربعة ، وطالعة الجبل ، طالبة الحبل » ، أو كذلك المثل الآخر الذى يبالغ فى تأكيد حب الأمهات لأبنائهن وإعجابهن بهم ولو كانوا فى دمامة القردة فيقول : « الخنفسا شافت ولادها ع الحيط ، قالت للجيران أمّا لولى وملّضم فى خيط » . ويدخل فى هذا النوع من الفكاهة تلك النكات الكلاسيكية القائمة على « القشر والمفر » ،

كَأَن يَقُول أَحَدُهُمْ إِنَّهُ رَأَى « قَنِيْطَةَ » نَمَتْ فِي حَقْلِهِ بَلَغَ وَزْنُهَا عِدَّةُ قَنَاطِيرٍ ۚ وَرَدَّ عَلَيْهِ أَحَدُ الْمَسْتَمْعِينَ فَقَالَ لَهُ إِنَّهُ رَأَى « وَعَاءً » يُصْنَعُ ، يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَسَعَ لِأَهْلِ مَدِيْنَةٍ بِأَسْرَاسِهَا . . . وَعَادَ الْأَوَّلُ يَكْذِبُهُ ، فَرَدَّ عَلَيْهِ الثَّانِي بِقَوْلِهِ : لَعَنَهُ صُنْعُ لَطِيخٍ قَنِيْطَتِكُمْ ۚ ۱ — وَنَكَاتُ « الْفَشْرِ » مُتَدَاوِلَةٌ عِنْدَنَا بَيْنَ النِّسَاءِ بِصِفَةِ خَاصَةٍ ، نَظَرًا لِمَا عُرِفَ عَنْهُنَّ مِنْ نَزْوَعٍ نَحْوِ الْمِبَالْفَةِ ، وَحُبِّ التَّفَاخُرِ وَالْمِبَاهَاةِ ، وَمِيلٍ نَحْوِ الْإِسْتِرْسَالِ فِي أَحْلَامِ الْيَقِظَةِ ، أَوْ الْخَلْطِ بَيْنَ الْوَاقِعِ وَالْحَلْمِ ۚ

وَالظَّاهِرُ أَنَّ كُلَّ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ الْعَدِيدَةِ مِنَ الْفِكَاهَةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى « الْمَفَارِقَةِ » إِذَا تَنَطَّوَتْ فِي صَمِيمِهَا — كَمَا أَسْلَفْنَا — عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الْإِرْتِدَادِ أَوْ النِّكُوصِ نَحْوَ مَرَحَلَةِ الطُّفُولَةِ ، بِمَا فِيهَا مِنْ حُبِّ لِلْهُوِّ وَاللَّعْبِ ، وَتَعْبِيرٍ عَنِ الْخَيَالِ الْخَلْصِ وَالْقُدْرَةِ الْمَطْلُوقَةِ *Omnipotence* . وَتَبَعًا لِذَلِكَ فَقَدْ تَكُونُ الْفِكَاهَاتُ الْقَائِمَةُ عَلَى الْمَفَارِقَةِ هِيَ أَكْثَرُ أَنْوَاعِ الْفِكَاهَةِ تَعْبِيرًا عَمَّا سَمَّاهُ فَرْوَيْدُ بِاسْمِ « الدَّعَابَةِ الْبَرِيْثَةِ » *harmless* ، فِي حِينٍ أَنَّ ثَمَّةَ فِكَاهَاتٍ أُخْرَى يُطْلَقُ عَلَيْهَا صَاحِبُ مَدْرَسَةِ التَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ اسْمَ « الدَّعَابَةِ الْمُفْرَضَةِ » *tendentious* ، وَتِلْكَ هِيَ الْفِكَاهَاتُ الَّتِي تَشْبَعُ فِي نَفْسِنَا بَعْضُ الْمَيُولِ الْعَدَوَانِيَّةِ أَوْ النَّوَازِعِ الْجِنْسِيَّةِ أَوْ الْأَغْرَاضِ الشَّخْصِيَّةِ . وَيَذْهَبُ بَعْضُ الْبَاحِثِينَ إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْفِكَاهَةِ الْبَرِيْثَةِ ضَرْبٌ مِنَ الْإِرْتِدَادِ نَحْوَ مَرَحَلَةِ الطُّفُولَةِ ، بِمَا فِيهَا مِنْ حُبِّ لِلْهُوِّ وَتَعَلُّقٍ بِاللَّهِوِّ وَمِيلٍ إِلَى التَّسْلِيَةِ ، فَذَلِكَ

لأن الإنسان البالغ قد يشعر أحياناً بحاجة ملحة إلى الاستخفاف بالمنطق والسخرية من الواقع ، وكأنما هو يريد أن يبدل أقل جهد عقلي ممكن ، أو أن ينتقل بنفسه إلى مستوى آخر من مستويات التفكير في الواقع .

يبد أن استخفاف الإنسان بالمنطق لا بدّ من أن يتخذ صورة منطق جديد يختل فيه القياس فيكون هذا الاختلال نفسه باعثاً على الضحك . ونحن نعرف قياس إيسميندس الكريتي *Epménide le crétois* الذى يقول فيه إن كل أهل كريت كاذبون ، وبما أن إيسميندس نفسه من كريت ، إذن فهو كاذب ؛ ومن ثمّ فإن أهل كريت صادقون ، وبما أن إيسميندس نفسه من كريت فهو صادق ، وهلم جرّاً وهناك مغالطات أخرى من هذا النوع تستثير ضحكنا لما فيها من منطق زائف كالقياس الذى يقول : — كل نادر غالى الثمن ؛ وبما أن الحلّى الرخيصة نادرة ؛ إذن فالحلّى الرخيصة غالية الثمن ! ولعل من هذا القبيل أيضاً تلك المغالطة التى يعمد فيها الإنسان إلى الاستخفاف بالرياضة (رمز الدقة واليقين المطلق) فيقول : إن الزجاجاة الفارغة إلى نصفها تساوى الزجاجاة الممتلئة إلى نصفها ، فإذا افترضنا أن سعة الزجاجاة هى لثرواحد أمكننا أن نقول إن $\frac{1}{4} = \frac{1}{2}$ ، وباستبعاد المقام المشترك (الأو هو ٢) نصل إلى النتيجة التالية : $ز م = ز ف$ ، أى أن أن الزجاجاة الممتلئة تساوى الزجاجاة الفارغة . وثمة مغالطة رياضية أخرى نستطيع فيها أن

ثبت أن $١ = ٢$ ، فنقول : $س^١ - س^٢ = س^٢ - س^٣$: ٩
 $س (س - س) = (س + س) (س - س)$. وبالقسمة
على $(س - س)$ نصل إلى النتيجة التالية : إذن $س = س + س$
 $١ = ١ + ١$.

وفي كل هذه المغالطات ، نجد أن عقل الموجود الناطق يريد أن
يلهو ويلعب ، فهو يستخف بالمنطق ويتلاعب بالقياس ويسخر من
الرياضة ، وكأنما هو يريد أن يعبر عن ضيقه بتلك القواعد العقلية
الضارمة التي تطرد دائماً على نسق واحد ، وكأنما هو يريد أن يضع
لنفسه منطقاً آخر يرتاح إلى ما فيه من مرونة وحرية وانطلاق !
... ويرى لنا في هذا الصدد أحد الباحثين أن شاباً يهودياً اسمه

« جاكوب » دخل يوماً دكاناً بائع حلوى ، لكي يشتري قطعة من
« البقلاوة » . ولكنه لم يلبث أن وجد أن قطعة « الكنافة » الكبيرة
تباع بنفس الثمن ، فطلب إلى البائع أن يستبدل بقطعة « البقلاوة »
قطعة من « الكنافة » . وأخذ الشاب قطعة الحلوى واتجه نحو باب المحل
قاصداً الخروج ، فصاح فيه البائع : « ولكنك لم تدفع ثمن قطعة الكنافة
التي تحملها ! » فأجابه الشاب : « معذرة يا سيدي ، ولكنك تنسى
أنني أخذتها بدلا من قطعة البقلاوة ! » وعاد البائع يقول : « ولكنك
لم تدفع ثمن قطعة البقلاوة ! » ، فأجابه اليهودي : « تجباً لك يا سيدي !
وهل تريدني على أن أدفع ثمن شيء لم آخذه ! »

ولو أننا أنعمنا النظر في هذه القصة ، لوجدنا أن « المغالطة » التي تنطوي عليها ليست مجرد تعبير عن اللهو واللعب ، وإنما هي مغالطة خبيثة مفرضة . والواقع أن تقسيم الفكاهة إلى « فكاهة بريئة » و « فكاهة مفرضة » سرعان ما يثير مشكلة سيكولوجية هامة ، وتلك هي مشكلة « البراءة » المزعومة التي ننسبها إلى بعض الفكاهات . وهنا يقرر بعض الباحثين أنه مهما كان من أهمية عنصر اللهو أو التسلية البريئة في كثير من الفكاهات ، فإنه لا بد من أن يكون ثمة « غرض » أو « ميل » يكمن وراء ذلك المظهر البريء . وسواء أكان هذا الميل جنسياً أم عدوانياً أم معبراً عن أية رغبة أخرى ، فإن من المؤكد أنه كامن وراء الكثير من النكات البريئة التي قد يتصنع أصحابها السذاجة وحسن النية . وتحضرنى في هذه المناسبة قصة المعلم الذي كان يراجع الواجب المنزلي لأحد التلاميذ فقال له : « إننى لأعجب حقاً كيف استطاع شخص واحد أن يقع في كل هذا العدد الكبير من الأغلاط ! » فما كان من التلميذ سوى أن أجابه بقوله : « كلا يا سيدي ، إنه لم يكن شخصاً واحداً ، فقد ساعدنى أبى فيه » . وقد روى لى أحد تلاميذى الطرفاء أنه كان يشرح يوماً درساً في التربية الوطنية ، فظل يتحدث طويلاً عن التضحية والإيثار وبذل الذات ، ومضى يبين لتلاميذه كيف أن المواطن الصالح الذى يضحي بنفسه في سبيل أمته لا بد من أن ينظر بنعمة الخلود ، وكيف أن الرجل الوطنى الصادق الذى يبذل من ذات نفسه للآخرين هو الذى يبقى

اسمه مُخلداً في صفحات التاريخ . . . الخ . وفي ختام الدرس أراد صاحبنا أن يستمع لتلاميذه النجباء تلك المبادئ الأخلاقية السامية فسألم قائلاً : « والآن يا أبنائي ، بماذا نسمي الشخص الذي يضحي بنفسه في سبيل الآخرين ؟ » . وهنا صمت التلاميذ جميعاً ، فنادى المدرس يقول لهم : « الشخص الذي يضحي بنفسه وبمصلحته في سبيل بني وطنه . . . يبقى شخص إليه ؟ . . . شخص خا . . . خا . . . » . وهنا وقف تلميذ خبيث وقال له : « خائب يا أفندم » ! وللقارىء بعد ذلك أن يحكم على مدى سخرية هذه الإجابة بما فيها من تهكم لاذع على المدرس الألعى وقصته عن الخلود والخالدين !

حقاً إن درجة البراءة أو الخبث في الفكاهة قد تختلف من نكتة إلى أخرى ، ومن شخص إلى آخر ، فإن من المؤكد أن بعض فكاهات الصغار قد تخلو أحياناً من عنصر الخبث وسوء النية (كقصة الطفل الصغير الذي سأل جدته قائلاً : متى تبدأين يا جدتي العريضة في لعب الكرة ؟ ، فأجابته الجدّة : إنني يا صغيري المحبوب لا أستطيع أن أفعل ذلك ! فقال لها الطفل : ولكن أبي قال إنه سيشتري لنا سيارة حيناً تبدأ جدتك في لعب الكرة !) ، ولكن من الواضح أن ثمة نكات تستمد كل ما فيها من طابع فكاهي مُضحك مما يشيع فيها من خبث وسوء طوية ! والواقع أن سلم الفكاهة يتدرّج ابتداءً من

تلك النكات الساذجة التي تنسجم بروح البراءة وحسن النية ، حتى تلك النكات المفرضة التي تتجلى فيها روح الخبث وسوء الطوية . والأمثلة عديدة لا تحصرها على هذا النوع الأخير من النكات ، فمن ذلك — مثلاً — ما يُروى عن الزوج المريض الذي سأل زوجته يوماً : « اسمعى يا عزيزتى ؛ إتنى أرى أن (فلاناً) يتردد على بيتنا بكثرة فى هذه الأيام ، فهل تعديننى بعدم الزواج منه بعد موقى ؟ » ، فأجابته الزوجة : « اطمئن يا عزيزى ، فقد سبق لى أن وعدتُ الطبيب الذى يشرف على علاجك ا » . وللقارىء أن يتصور مدى السخرية التي ينطوى عليها هذا الرد ، خصوصاً وأن فيها من المفاجأة اليئة للزوج المسكين ما يكفي لإزالة كل طمأنينة قد تكون فى نفسه عن حسن سير علاجه ا . ويروى لنا فرويد نكتة أخرى من هذا القبيل فيقول : إن زائراً شهد فى حجرة الاستقبال عند جماعة من الأصدقاء صورة معلقة على الحائط تمثل شخصيتين كبيرتين من شخصيات العائلة ، وقد وضعت صورة الواحد منهما على اليمين وصورة الآخر على اليسار فى إطار واحد ضمّ الصورتين . ونظر الزائر فتعرف فىهما على رجلين مشهورين من رجال المال ، فما كان منه إلا أن قال : « ولكن أين المختص *Le Sauveur* ؟ » . والذين يعرفون قصة صلب المسيح ، وكيف أنهم صلبوا لصين معه ، واحداً عن يمينه والآخر عن يساره ، لن يجدوا صعوبة فى أن يفهموا المضمون الخفى لهذه النكتة . ويحاول فرويد أن يتخذ

من هذه النادرة دليلاً على صحة نظريته في الفكاهة باعتبارها ضرباً من الوفّر أو الاقتصاد (*Épargne*) ، فتراه يقول إن صاحب هذه النكتة قد وفرّ على نفسه بهذا التلميح الخفي الإشارة العريضة السافرة ، أو الشتيمة العلنية النابية ، فيما لو أنه قال : « إنّ ما إلّا لسان ا » ^(١) .

٣١ — ولكن أبياً ما كان حظ النكتة من البراءة أو الخبث ، فإن من المؤكد أن العنصر الإدراكي — أو العرفاني — لابد أن يلعب دوراً هاماً في الغالبية العظمى من النكات على اختلاف أنواعها . والواقع أنه لولا ما تنطوي عليه الفكاهة من منطق أو ذكاء أو سرعة بديهة أو حسن مخلص أو براعة في الرد ، لما كانت مثاراً للضحك على الإطلاق . — حقا إن بعض الفكاهات قد لا تخرج عن كونها وسائل للتنفيس عن بعض الانفعالات المكبوتة ، أو الميول المطوية ، ولكن العامل الذهني قلما ينعدم تماماً في أي نوع من أنواع الفكاهة . ونحن نضحك كثيراً لما في بعض النكات من ذكاء أو منطق خاص ، كما هو الحال مثلاً في النكتة التي تروى عن أحد من أنه كان يفرط في شرب الخمر ، فلما قيل له : إن الخمر اتتغار بطنك ، أجاب بقوله : « ولماذا تريدونني على أن أتتحر بسرعة ؟ » ولعل من هذا القليل أيضاً

S. Freud: «Le Mot d'Esprit et ses Rapports avec (١)
l'Inconscient», Paris, 1930, (cité par Lalo: «Esthétique
du Rire», p. 144.)

ما يروى عن برنارد شو : من أنه جلس يوماً في حفلة عشاء إلى جوار فتاة جميلة ، فدار بينهما حديث قالت خلاله الفتاة للفيلسوف الإيرلندى الكبير : « لو تزوج رجل مثلك — يا مستر شو — بامرأة مثلى ، لكان لنا بلا شك أذكى الأبناء وأجملهم ا » ، فإكان من برنارد شو سوى أن ردّ عليها بقوله : « ومن يدري يا آنستى ، فربما ورث أبناؤنا حظي من الجلال وحظك من الذكاء » ١٩

وهناك كثير من النكات التى تتجلى فيها سرعة البديهة أو البراعة فى الإجابة ، بحيث قد يصحّ لنا أن نسميها باسم نكات « الرد حاضر » . وكثيراً ما يكون صاحب النكتة فى هذا النوع من الفكاهة سليط اللسان ، فتتضاف البراعة اللغوية إلى سرعة البديهة ، وتخرج من ذلك النكتة البارة اللاذعة التى لا تدع مجالاً للردّ ا ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما يروى عن أحد الأطباء الجراحين فى أوروبا من أنه كان مشهوراً بأجوره العالية ، فجاءه ذات يوم أحد الأثرياء من رجال الصناعة ؛ وخصه الطبيب الكبير ، فوجد أنه فى حاجة إلى عملية عاجلة . ثم أضاف قائلاً : « أما الأجر فهو ألف جنيه » ا وعندئذ قال الغنى : « ولكن هذا المبلغ كبير ا » ، فأجابه الجراح بقوله : « إذا كان الأمر كذلك فإنا أقترح عليك أن تذهب إلى الطبيب س : فإنه سيطلب منك نصف هذا الأجر ، ثم إنك لن تدفعه ، لأن وريثك هم الذين سيتكفلون بذلك ا » . وقد نلتقى بهذا النوع من النكات لدى بعض الأطفال ،

فنجد في فكاهاتهم قوة ملاحظة وحسن تعليل ، أو سرعة بديهة وبراعة في الإجابة ، أو قدرة على القياس والاستدلال . وتحضرني في هذه المناسبة قصة ذلك القيس الذي ذهب إلى مدينة لم يكن يعرفها من قبل لإلقاء عظة في كنيسها ولما نزل من القطار ألقي في جيبه خطاباً وأراد أن يضعه في البريد . والتقى القيس بصبي صغير ، فسأله أن يرشده إلى مكتب البريد . وقاد الصبي القيس إلى حيث كان مكتب البريد وهنا قال رجل الدين للصبي : « اتق الليلة سألقى عظة في الكنيسة وأنصحك بأن محضرها يا بني لكي أريك الطريق إلى السماء . فتبسم الصبي ونظر إليه ثم قال : « ولكنك يا سيدي لا تعرف حتى الطريق إلى مكتب البريد » ! حقا إن في هذه الإجابة قياساً منطقيّاً واضح النقص ، لأن الطفل يقبس السماء على غيرها من الأماكن التي يمكن الذهاب إليها ، فيخطيء القياس ، ولكن الذي يضحكنا هنا هو على وجه التحديد أن الطفل يقبس قياساً منطقيّاً لا يدري موضع النقص فيه . وكثيراً ما تنطوي ملاحظات الأطفال العادية على بعض الفكاهات الطريفة التي تكشف عن ذكاء وقوة ملاحظة ، كالذي يروي عن طفل صغير جلس يتطلع إلى إحدى الأشجار من النافذة ، وقد بدت عليه علامات الحيرة الشديدة والتفكير العميق . . . فاقتربت منه أمّه ملاطفة ، وسألته عن سبب ما يبدو عليه من الحيرة والتفكير . فأجابها الطفل وهو يتهدّد : « هذه الأشجار يا ماما أمرها عجيب ! إنها تسقط أوراقها في الشتاء الذي يحتاج

فيه الإنسان إلى غطاء يقيه البرد . . . ثم تستعيد أوراقتها في الصيف الذى نُحْتَف فيه ثيابنا من فرط الحرّة « ا . وفى هذا النوع من الفكاهة ، قد تكون فطنة الطفل هى الباعث لنا على الابتسام أو الضحك ، وكأنتا نستكثر عليه تلك البراعة العقلية أو الملاحظة الفلسفية التى قد لا نجد لها نظيراً عند بعض البالغين . ومعنى هذا أن تفكير الطفل بأسلوب الرجل الناضج الذى يديم النظر ويتعمق فى التأمل هو فى هذه الحالة السبب المباشر الذى قد يدفعنا إلى الابتسام أو الضحك .

٣٢ — هذا وقد تمادى بعض الباحثين فى تأكيد أهمية العامل الإدراكى فى الفكاهة والضحك ، حتى أنهم ذهبوا إلى حد إنكار قيمة بعض العوامل الأخرى كالعامل النزوعى أو الوجدانى مثلاً . ولعلّ من هذا القبيل مثلاً ما فعله برجسون حينما ذهب إلى أن الضحك يخاطب منا العقل ، وأن من شأن الانفعال أن يفسد علينا فهم الموقف الفكاهى . ولا شك أن برجسون حينما قرر أن الانفعال والضحك هما على طرفى تقيض ، فإنه لم يعمل حساباً لتلك النكات الكثيرة والفكاهات العديدة التى لا تخرج عن كونها منافذ مباشرة أو غير مباشرة للانفعال ، كما بين لنا بكل وضوح علماء التحليل النفسى فى نظرياتهم عن الضحك باعتباره وسيلة للإطلاق الشحنة الانفعالية المحتزنة .

ولكن ربما كان بعض أفضال نظرية برجسون على الدراسات
السيكولوجية للفكاهة والضحك ، أنها قد أثبتت لنا بشكل قاطع
وجود علاقة وثيقة بين العادات الآلية من جهة والتأثيرات الهزلية من
جهة أخرى . فنحن نضحك حينما نجد أنفسنا يازاء موجودات بشرية
تتصرف كما لو كانت آلات أوتوماتيكية رتيبة الحركة ، أو حينما تقع
أنظارنا على مشاهد يتجلى فيها خضوع بعض الأشخاص لجبرية الطبيعة ،
وكأنما هم مجرد أشياء ينسحب عليها قانون الجاذبية . . . الخ . فإذا كنتَ
جالساً في قطار ، ثم رأيت شخصاً يقدم إلى العربّة ، ومعه الكثير من
الحقائب ؛ ولكنه يريد أن يتثبت من أنه لم يَنسَ شيئاً ، فيقول على
مسمع منك : « أربعة ، خمسة ، ستة ، مرأتى سبعة ، وعمد ثمانية ،
وأنا تسعة » ا ، فإنك عندئذ لا بدّ من أن تستجيب لهذه العبارة
بالضحك ا وإذا كنت تسمع إلى خطبة مؤثرة لواعظ بليغ ما يكاد
يندفع في حماسه ويتدفق في خطابته ، حتى يقطع حديثه لكي يقول :
« آخ يا ناس ، بَسْ لو ما كانتش الجزمة ضيقة وواجبة صوابى
خالص » ا ، فإنك تضحك لهذا الانتقال الفجائى من أمور النفس إلى
أمور البدن ، ومن سموّ الروح إلى مادية الجسد ا وكثير من الفكاهات
المسرحية أو الروايات الهزلية التى تستثير لدى النظارة عاصفة شديدة
من الضحك (كما فى تمثيليات مولير أو لايش *Labiche*) لا تخرج
عن كونها مواقف كوميديّة يتجلى فيها ارتداد بعض الشخصيات نحو

مرحلة الجماد بما فيها من آلية ورتابة واطراد . ومعنى هذا — على حدّ تعبير برجسون نفسه — أن كل انحراف للحياة في اتجاه الآلية لا بدّ من أن يولّد لدينا الضحك^(١) . وسواء اتخذ هذا الانحراف صورة سلوك آليّ رتيب ، أو فعل متكرّر يطرّد على وتيرة واحدة ، أو عبارة مُعادة يردّها اللسان على فترات منتظمة ، أو عادة ميكانيكية يلتزمها الشخص حتى حين لا يكون ثمة داع إليها ، أو « لازمة » حركية يؤدّيها الوجه بين الحين والآخر بصورة آلية مطردة ، فإننا في كل هذه الحالات لا بدّ من أن نستجيب للموقف بالضحك . وإذا كانت الدمى الخشبية (أو الأراجوز) *Marionnettes* كثيراً ما تستثير لدينا الضحك ، فذلك لأننا نجد فيها صوراً آدمية تتحرك حركة آلية محضة . وقد نجد أنفسنا يازاء وجهين متشابهين تماماً ، فنضحك لما بينهما من تشابه ، بينما نحن لا نضحك عند رؤية كل وجه منهما على حدة . والحركة الواحدة يصدرها الخطيب قد لا تستثير فحكنا ، ولكنّها إذا تكرّرت على فترات متقطعة ، لا تلبث أن تصبح باعثة على الضحك ، لأنها عندئذ تصبح بمثابة فعل آليّ يوحى إلينا بسلوك الجهاز الميكانيكيّ الرتيب ! — وهكذا يخلص برجسون إلى القول بأن المزلق هو « الآليّ مصروباً فوق الحيّ » *Du mécanique plaqué sur du vivant*^(٢) .

H. Bergson: *«Le Rire»*, Paris, P. U. F., 67^e éd., (١)
1946, p 26.

Ibid., p. 29. (٢)

يبد أنه ربما كان في استطاعتنا أن نأخذ على برجسون أنه يرى في الضحك مجرد انعكاس في مجرى الرق والتقدم ، مما جعله يقصر الفكاهة على ارتداد الحى نحو مرحلة الجحاد . ولكن ألا يحدث أحياناً أن تكون الصبغة الهزلية معبرة عن انصباب « الحى » فوق « الآلى » ؟ إننا لنضحك مثلاً حينما نرى رسماً كاريكاتورياً قد نجح في أن يبعث الحياة في واجهات منازل متداعية ، كما فعل المصور جان فيير *Jean Veber* حينما رسم وجوهاً بشرية معبرة على واجهات أطلال متداعية في قرية من القرى المهجورة النائية . وحينما نكون يازاء شخصين يهبطان درجا واحداً في الظلام التام ، فيهبط أحدهما بطريقة آلية ، لأنه يعرف جيداً سلم المنزل الذى يمكنه ، بينما يهبط الآخر في تعثر شديد وباحتراس كبير ، لأنه لا يعرف المكان الذى يرتاده للمرة الأولى ، فإن من الواضح في هذه الحالة أن أقل الشخصين آلية هو الذى يستثير ضحكنا . وأما حينما يقول برجسون إن بعض الأعيب الأطفال كثيراً ما تولد لدينا الضحك لما فيها من آلية ، فإنه ينسى أو يتناسى أن « العفريت الذى يطلع من العلبة »^(١) ليس إلا « شيئاً آلياً » صَبَبْنَا فوقه مظهراً من مظاهر الحياة ، ومن ثم فإن هذا المثل دليل ضده لا معه^(٢) .

« Le diable à ressort » (١)

Ch. Lalo: «*Esthétique du Rire*», Flammarion, 1949 (٢)

pp. 182—188.

وقد تصدّى لالو (عالم الجمال الفرنسى المشهور) لنقد نظرية برجسون فى الضحك ، فقال إنها لا تخلو من تعسف أملت على الفيلسوف نزعتة الحيويّة *Vitaliste* . ولا يقبل لالو مبدأ برجسون فى تفسير شتى مظاهر الفكاهة باعتبارها انحرافاً للحياة نحو الآلية ، بل هو يقرّر أن كل ما من شأنه أن ينحرف بأية قيمة كبرى من القيم نحو قيمة أخرى أصغر ، أو نحو حالة انعدام تامّ للقيمة ، لا بدّ من أن يولد لدينا استجابة الضحك . فالوقوف الجدىّ الخطير الذى لا يلبث أن يتكشف عن موقف تافه عديم الأهمية يستثير لدينا الضحك ، والشخص البدين الذى تروّعنا ضخامة جثته فإذا تكلمّ جاء صوته رفيعاً كصوت الطفل أو الفتاة ، لا بدّ من أن يولد لدينا أيضاً استجابة الضحك ، والخطيب المحترم الذى ينتزع إعجابنا بقوة منطقته وبراعة حديثه فإذا به يتوقف عن الحديث لى يخرج حشرة من ظهر قميصه لا بدّ أيضاً من أن يصبح مثاراً لضحكنا ، وهلمّ جرّاً . . . وفى كل هذه الحالات — كما يقول شارل لالو — لا يكون ضحكنا ناشئاً عن تصرف الإنسان كما تتصرف الآلة بغير تمييز بين المتفقات والمختلفات كما زعم برجسون ، وإنما ينشأ ضحكنا عن عملية « هبوط فى القيمة » (*Dévaluation*) تعبّر عن انتقال مفاجئ من نعمة عليا إلى نعمة دُنيا . والهبوط فى القيمة يساوى (فى نظر لالو) التباين + الانحلال^(١) . وهكذا ينتهى هذا الباحث

(١) وهى مادة ماؤها لالو كالآتى :

Contraste + Dégradation = Dévaluation

(١٢ — الضحك)

إلى القول بأن ماهية الفكاهة تنحصر في إظهارنا على المثالب والعيوب حتى نضحك منها ، وليس من شأنها على الإطلاق أن تكشف لنا عن المحاسن والميزات حتى نُعْجَب بها^(١) . — أما الضحك الجمالي (أو الاستطيق) فهو نقد للقيم الفردية والجماعية بمناسبة ظهور تفاوت بين قيمتين من بينها ، وهذا النقد يتخذ صورة نعمتين متنافرتين يأتلف من مجموعهما عمل فني (على شكل روائي أو أدبي أو تصويري أو موسيقي في بعض الأحيان)^(٢) .



وأخيراً نرى أن العنصر الإدراكي في الفكاهة قد يقترن بضرب من التنويه الخفي أو التلميح الذكي ، كأن يشير المرء من طرف خفي إلى شيء أو شخص أو حدث ، دون أن يعرب صراحة عما يقصد ، كما يحدث أحياناً في الكثير من النكات السياسية والفكاهات الحزبية والدعابات الشخصية . وقد لوحظ أن للكثير من المنظمات الجماعية الصغيرة ، والحاقيات الاجتماعية المغلقة ، والعائلات المختلفة كبيرة كانت أم صغيرة ، نكاتنا الخاصة التي تعتمد على التنويه أو التلميح أو الإشارة (Allusion) ، مما قد لا يفهمه أحد من غير أفرادها . وفي مثل هذه الأحوال ، تتخذ الفكاهة طابعاً خاصاً ، فتصطبغ بصبغة المكان والزمان اللذين أحاطا

C. Lalo: *«Esthétique du Rire»*, Ch. II., p. 27. (١)

Ibid., p. 47. (٢)

بنشأتها . وقد يحدث في موسم من المواسم أن تنتشر أغنية من الأغاني ، فتصبح كلماتها على كل لسان ، وحينئذ لابد من أن يضحك الناس حينما ترد كلمات تلك الأغنية على لسان أستاذ أو خطيب أو سياسي (مثلاً) في معرض حديث جدى لا أثر فيه للهزل أو المزاح . وهناك حالات أخرى يصطلح فيها مجموعة من الأصدقاء ، أو يتعارف فيها مجموعة من الطلبة ، على تسمية شخص أو أستاذ باسم معين (غالباً ما يكون هزلياً) ، فإيكاد يقدم إليهم ذلك الشخص حتى يرد أحدهم ذلك الاسم المتعار بصوت خافت ، وعندئذ لا يلبث الآخرون أن ينفجروا ضاحكين .

وقد لوحظ أن « التكرار » كثيراً ما يضعف من قيمة « الصبغة الفكاهية » للكثير من الفكاهات ، نظراً لأنه يقضى على ما فيها من عنصر مفاجأة أو دهشة . ولعل هذا هو السبب في أن الجمهور قد يستخف راوى النكتة المعتادة بأن يصيح في وجهه « قديمة » ! ولكن التجربة قد دلتنا — مع ذلك — على أن « التكرار » نفسه قد يكون باعثاً على الضحك ، كما يشاهد أحياناً في بعض الروايات الفكاهية التي تظل فيها إحدى الشخصيات المسرحية تردد على فترات متقطعة كلمات واحدة بعينها . وهنا قد يحق لنا أن نقول مع برجسون إنه ربما كان السبب في تولد الضحك عن عامل « التكرار » هو ما فيه من آلية ورتابة واطراد . ولكن بينما يتسامح الطفل في الاستماع إلى نكتة مُعادة (لأن عنصر التكرار عنده لا يُفقد النكتة كل قيمتها) نجد أن الشخص البالغ قلما

يرحب بالفكاهة المعادة . ومع ذلك ، فإن بعض الباحثين يميل إلى القول بأن ثمة نكات تظل محتفظة بكل قيمتها الفكاهية على الرغم من هذا التكرار ، ولعل في مقدمتها النكات البريئة الساذجة والفكاهات المتصلة ببعض المتاعب الشخصية . أما النكات التي تفقد قيمتها بالتكرار فهي التي تقوم على سرعة البديهة أو حسن الردّ أو التلاعب اللفظي أو التورية أو « الردّ الخالص » ... الخ . وهناك تجارب خاصة (لا نستطيع الإشارة إليها نظراً لضيق المقام) قام بإجرائها بعض علماء النفس لمعرفة مدى ضيق الجمهور بالنكات المعادة ، ومدى ترحيبه بسماع بعض الفكاهات القديمة . ولكن هذه البحوث قد تكون أدخل في باب علم الجمال منها في باب علم النفس ، لأنها تتصل بالكوميديا الفنية ومدى تذوق الجمهور لها ونوع استجابته لها في كل مرة .

الفصل التاسع

فن الكوميديا ودلالته الجمالية

٣٣ — رأينا فيما تقدم كيف أن ثمة ضرباً من اللهو أو العبث أو الحماسة (*Stupidity*) في تلك المواقف الارتدادية التي تنطوى عليها الفكاهة نظراً ، لما في النكوص نحو مرحلة الطفولة من تخليّ عن روح الجدّ والواقعية والنضج العقليّ . والواقع أنه حينما يستجيب المرء لموقف جديد بروح العادة والروتين ، في حين أن طبيعة هذا الموقف تقتضي العمل على تحقيق ضرب من التكيف العقليّ ، فإن مثل هذا التصرف قد يبعث على الضحك لما فيه من حماقة أو بلاهة أو قصر نظر . ولكن ليس معنى هذا أن سائر الاستجابات العادية غير الملائمة لابدّ بالضرورة من أن تستثير لدينا عاصفة من الضحك ، وإنما ينبغي أن تتوافر في تلك الاستجابات بعض العناصر الإدراكية التي أشرنا إليها من قبل (كالتكيف أو المفارقة أو التلاعب اللفظي . . . الخ) حتى تكتسب صبغة فكاهية يمكن أن تولّد لدينا استجابة الابتسام أو الضحك . وقد يكون من الحديث المعاد أن نقرر أن الضحك عند « الحيوان الناطق » هو في جانب منه عملية عقلية تقتزن بالكثير من مظاهر النشاط الذهني كالفتنة وسرعة البديهة والسخرية والتهكم والقدرة على التلميح

والبراعة في الرد والتفنن في ابتكار الألاعيب اللفظية ... الخ . ولكن ، على الرغم مما في الفكاهة من ازدياد للواقع ، واستخفاف بمنطق الحياة الجدية ، فإن للفكاهة منطقها الخاص الذي قد لا يخلو من كل صبغة عقلية . وربما كانت « الكوميديا » هي أكثر أنواع الفكاهة اعتماداً على العقل ، فإن لهذا النوع من الفكاهة منطقها الخاص الذي يخاطب منا العقل أكثر مما يخاطب العاطفة أو الوجدان .

ولو أننا رجعنا إلى تصنيف بعض علماء النفس لضروب الهزل ، لوجدنا أنهم يقسمونها إلى ثلاثة أنواع هي : « الفكاهة » *Humour* ، و « النكتة » *Esprit* ، و « الكوميديا » *comique* . وقد رأينا من قبل كيف أن هذه الأنواع الثلاثة تقابل في حياتنا النفسية ، على التعاقب ، الوجدان والنزوع والإدراك^(١) . فالكوميديا هي من بين ضروب الهزل جميعاً ، أقربها إلى قطب الإدراك أو العرفان أو المنطق ، وهي بالتالي « فن عقل » يقوم كغيره من الفنون على النشاط الإبداعي . وإذا صح ما قاله دلاكروا من أن الفن صناعة وخلق ، أكثر مما هو وجدان وعاطفة ، فإن من واجبنا أن نطبق هذه الحقيقة على فن الكوميديا فنقول إنه هو الآخر قدرة عقلية على تنظيم الأحلام وبعثها في جسم حي هو ما نسميه بالآثر الفني . ولكن الأثر الفني في حالة الكوميديا

cf. H. J. Eysenck: «Les Dimensions de la Person- (١)
nalité », P.U.F., 1960, p. 258.

ليس تصويراً للقيم العليا المثل الأخلاقية السامية ، وإنما هو تصوير
لمثالب الناس وعيوبهم ونقائصهم ومظاهر ضعفهم في إطار فني ينطوي
على « انجرام معكوس »^(١) — *Harmonie Inversée* .

وإذا كان كثير من الباحثين قد أنكروا على « الكوميديا »
كل طابع فني ، فذلك لأنهم قد ظنوا أن الكوميديا لا يمكن أن
توصف بالجمال ما دامت تنصب على وصف القبح والشرّ وشتى القيم
الأخلاقية الدُّنيا . ولكن هؤلاء ينسون أن « الاستطيقا » —
esthétique — تدرس الجمال والقبح ، وأن العمل قد يكون فنياً على
الرغم من أنه يصور ضرباً من القبح أو الدمامة . ومعنى هذا أن الجمال
والقبح الطبيعيين هما غير الجمال والقبح الفنيين ، وأن ما في الطبيعة من
« قبح » يمكن أن يصبح « جمالاً » في الفن ، كما بين لنا لالوفي دراسته
الكلاسيكية المشهورة للعلاقة بين الفن والطبيعة^(٢) . وقد عبّر المثل
الفرنسي المشهور رودان (*Rodin*) عن هذه الحقيقة عينها حين قال
في أحاديثه عن الفن : « إنه لما يتبادر إلى أذهان عامة الناس أن ما يرونه
قبيحاً في الحياة لا يليق أن يكون موضوعاً للفنان . . . ولكن ما قد يسمّى

(١) Ch. Lalo: *«Esthétique du Rire»*, Paris, Flammarion, 1949, p. 245.

(٢) Ch. Lalo: *«Introduction à l'Esthétique»*, Colin, 1912, pp. 89—105

عادة قبيحاً في الطبيعة يمكن أن يكون لدى الفنان عامراً بالجمال . ونحن في الواقع إنما نسمي « قبيحاً » كل ما كان مشوهاً أو عليلاً أو مصاباً بمرض ، وكل ما كان ضعيفاً أو مبتلى ، أو ما كان منافياً للمألوف . . . فالأحذب قبيح ، والأعرج قبيح ، والفقر في الأسماك البالية قبيح . وقبيح أيضاً روح الرجل الفاجر وسلوكه ، والرجل الخبيث الجرم ، والرجل الشاذ الذي يكون بلية على المجتمع ؛ وقبيح أيضاً روح كل ذئب المطامع . الخ . ولكن دع فنانا مبرزاً أو كاتباً نابهاً يتناول بفنه قبيحاً واحداً أو أكثر مما ذكرنا ، فسرعان ما يتحول على يديه هذا القبيح وسرعان ما ينقلب بلمسة من عصاه السحرية إلى جمال رائع !! إن هذه هي كيمياء الأقدمين ؛ أستغفر الله ، بل إنه السحر المبين ^(١) !

وإذن فليس بدعاً أن يكتب الضحك طابعاً « جمالياً » *Esthétique* ، على الرغم من أنه ينصب في صميمه على وصف القبح وتصوير الشر وعرض الرذائل . وهذا سوانيه *Saulnier* يقرر بصرحة أنه بمجرد ما يتجاوز الضحك المرحلة الفسيولوجية فإنه لا بد من أن يكتب صبغة « استيطيقية » . حقا إن في وسعنا — بمعنى ما من المعاني — أن نقيم ضرباً من التعارض بين الفن والضحك « لأن الفن هو نظام من اللعب *Discipline du jeu* ، بينما الضحك هو على العكس

A. Rodin: « *Entretiens sur l'Art* », Grasset, 1952, (١)
Nouvelle édition., Ch. V, VI.

من ذلك لعبٌ بغير نظام *Jeu indiscipliné* ، ولكن في استطاعتنا من جهة أخرى أن نقرب الكوميديا من الفن ، نظراً لما تنطوي عليه من إبداع فني وهو منظم — . والواقع أن الكوميديا هي « ثنائية في وحدة » أو هي « تنافر في توافق » أو هي « انسجام معكوس » (كما سبق لنا القول) ويمضي سولنييه إلى حدٍّ أبعد من ذلك فيقول : إن الضحك ليس حكماً أخلاقياً ، كما أنه أيضاً ليس من قبيل الحكم العقلي ، وإنما تنحصر كل قيمته فيما له من طابع جمالي أو وظيفة استيطيقية^(١) .

إن الانفعال الذي يستثيره في نفوسنا مرأى العمل الفني أو الشيء الجليل هو انفعال نبيل يرفع النفس ويسمو بها . وآية ذلك أن الانفعال الجمالي إنما يقوم على الانسجام والتوافق والاتزان ، فضلاً عن أنه إنما يُبلى من شأن القيم الإنسانية ؛ أما الضحك فإنه لا يتلذذ إلا بمראى الخطأ والقبح والرذيلة والشر والفشل في شتى صورهِ . فالضحك انتصار لا يشعر بنفسه إلا من خلال الهزيمة ! ومن هذه الناحية قد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن ميكانزم الضحك الذي يقوم على التنافر والمفارقة ، هو عكس ميكانزم الفن الذي يقوم على الانسجام والتوافق . ولكن الضحك لا يلبث أن يكتسب طابعاً « جمالياً » بمجرد ما تنضاف إليه

Cl. Saulnier: *«Le Sens du Comique»*, (cité par (١)

Lalo: *«Esthétique du Rire»*, 1949, p. 245).

روح الترف الفنى كما هو الحال فى « الكوميديا » ؛ فإن الكوميديا هى انتصار للحرية الواعية المنطلقة المبتهجة^(١) .

ويأبى باحثون آخرون أن يخلطوا بين الضحك والكوميديا فيقولون : إن الضحك البدائى التلقائى لا ينطوى فى ذاته على أية قيمة جمالية ؛ وإنما يصبح الضحك ذا قيمة « استيطيقية » حينما نتجسج فى أن نصفه من كل ما علق به من شوائب ذلك الضحك التلقائى البدائى . فالكوميديا هى فلسفة الضحك التى تسمو بالهزلى من المستوى العامى المبتذل إلى مستوى جمالى فنى إنسانى . وإن عبقرية مولير أو شارلى شابلن (فيما يرى سوريو) لتتصرف فى أن كلاً منهما شاعر أو مفكر أو فيلسوف ثاقب البصر ، على الرغم من أنه يمثل هزلى ! وإن البعض ليظن أن الصور الكاريكاتورية التى رسمها دُونميه Daumier جميلة لأنها مضحكة ، ولكن سوريو يقرر — على العكس من ذلك — أن هذه الصور فنية على الرغم من كونها مضحكة ! فالشئ الكوميدي (باعتباره منظوماً على قيمة جمالية) هو على العكس تماماً من الشئ المضحك ؛ لأن ماهيته إنما تنحصر فى ذلك السحر الفنى الذى يشل حركة شيطان الضحك (بهجته الخالية من الجمال) ، دون أن يقضى عليه تماماً ! وهكذا يفرق سوريو تفرقة حاسمة بين « المضحك »

Ibid. (Lalo: op. cit. p. 45) (١)

Le Risible و « الكوميدي » *Le Comique* ، لكي يخلع على الأخير منها فقط طابعاً فنياً باعتباره « ظاهرة جمالية » تستلزم ضرباً من التعبير الفلسفي للضحك^(١) .

٣٤ — والواقع أننا لو أنعمنا النظر إلى فن الكوميديا لتبين لنا أن الوظيفة الرئيسية التي يقوم بها هذا الفن إنما هي تكوين عمل فنيّ أو خلق عالم اصطناعي لا يكون فيه أى موضع لعامل « القلق » أو الحصر النفسى *Angoisse* الذى هو فى العادة مُنبثّ فى صميم عالم التجربة اليومية . ومعنى هذا — بعبارة أخرى — أن مهمة المؤلف الكوميدي إنما تنحصر فى بناء عالم « تكفى رؤيته لتبديد قلاقلنا ومخاوفنا وهمومنا . » وإذا كان قد وقع فى ظن البعض أن فن الكوميديا هو أيسر الفنون منالاً ، فإن من واجبنا أن نقرر — على العكس من ذلك — أنه ربما كان هذا الفن من أعسر الفنون الأدبية قاطبة . والحق أنه قد يكون أيسر للكاتب الروائى أن يستثير دموع النظارة من أن ينتزع ضحكاتهم : فإن أى تأكيد للجانب الدرامى من الحياة سرعان ما يجعل من الرواية « مأساة » تهولنا بأحداثها الأليمة ومفاجئها المتلاحقة . وأما الكوميديا فإنها تتطلب من الحبكة الفنية ، والبراعة فى خلق الشخصيات ، والعمق فى تركيب المواقف الهزلية ، ما يجعل من

Cf. Ch. Lalo: « *Esthétique du Rire* », Conclusion, (١)
pp. 248—244.

« الملهاة » عملا فنيا عسيرا هيهات أن يقوى على ممارسته إلا من كان في عبقرية مولير أو لايش *Labiche* أو مارسل بانبول . . .

بيد أن الملهاة تختلف عن المأساة اختلافاً جوهرياً من حيث أنها تؤدى في حياتنا النفسية دوراً صحيحاً لا نجد له نظيراً في كل ما تقوم به المأساة من أدوار مختلفة في صميم حياتنا . وآية ذلك أن المسرح الهزلى يجد نشاطاً ، ويقوى من روحنا المعنوية ، ويعيد إلينا ثقتنا بأنفسنا ، لأنه يعرض على أنظارنا شخصيات ضعيفة أو منحرفة أو ناقصة تجعلنا نتصور في كل لحظة أننا أسرى من غيرنا بكثير ! ومثل هذا التصور ، حتى ولو كان موقوتاً ، وقائماً على مجموعة من التأثيرات الفنية المصطنعة ، هو مع ذلك شعور طيب ، أو تصور نافع . وإذا نجح الكاتب الروائى في أن يجعل هذا الشعور ينفذ إلى قلب متفرج متعب من جراء عمله اليومى المضنى ، قلق بسبب سوء حاله المادية ، محطم الأعصاب لقرط ما يحمل من هموم عائلية ، فإنه يكون قد أدى له خدمة نفسية قد لا يدانيها أى علاج نفسانى . وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن المسرح الهزلى يقوم بدور اللواء الناجع في حياة بعض المرضى ، كالمصابين بالنورستانيا أو فقر الدم (الأنيميا) أو الهبوط النفسى بصفة عامة .

وإنها لواقعة لا نزاع فيها أن إضحاك شخص يائس فاقده العزيمة ، أعنى شخصاً يظن في نفسه أنه دون غيره من سواد الناس ، ومن ثمَّ

فإنه لا يقوى على مواجهة صعاب الحياة ، إنما هو عمل أخلاقي نبيل ، ومهمة سيكولوجية جديرة بالتقدير . فالكوميديا هي التي ترد إلى الشخص العاجز الذي يعتقد في نفسه أنه أدنى من الجميع ، شعوره بالتفوق على الغير (أو على شخص آخر على الأقل) ؛ وهذا الشعور هو الكفيل بأن يعيد إلى نفسه (ولو إلى حين) الثقة والاطمئنان والشجاعة^(١) .

وقد لاحظ مارسل پانيول أن المسرح الهزلي يُلقي الكثير من النجاح إبان الحرب على وجه الخصوص ، حتى إن بعض المسرحيات أو الأفلام التي كان النقاد يمدّونها في زمن السلم ساقطة أو غير موفقة ، قد تلقى استحسان الجمهور في زمن الحرب أو في عهود الاضطرابات . وربما كان السبب في ذلك هو أن النظارة إبان الأزمات والحروب يكونون بمثابة موجودات ضعيفة متهاككة أنهكها القلق والهمّ وسوء التغذية . . . الخ . فالجمهور في تلك الفترات يكون في العادة متواضعاً قليل المطالب جَمّ التسامح . ونظراً لأنه قد فقد ثقته في نفسه ، فإنه يجد سعادة قصوى في أن يستشعر سموه أو تفوقه على أي جمهور آخر أو على أية مجموعة أخرى من الناس مهما كان من وضاعة شأنها^(٢) .

Marcel Pagnol: «Notes sur le Rire», Nagel, Paris, (١) 1947, pp. 92—98.

Cf. Marcel Pagnol: «Notes sur le Rire», p. 94. (٢)

يبد أن هذه النظرة إلى الكوميديا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتعليل
بانيول للضحك باعتباره وليد مقارنة بين الشخص الضاحك وشخص
آخر . فالوظيفة النفسية التي ينسبها أصحاب هذا الرأي إلى « الكوميديا »
تتوقف على تفسيرهم للضحك باعتباره مظهراً من مظاهر التفوق
أو السيطرة أو الانتصار . ولكننا حتى إذا لم نأخذ بهذا الرأي ، فقد
يكون في وسعنا أن نقرر أن الكوميديا تقوم بوظيفة « تطهير »
catharsis من نوع خاص ، لأنها تصفى نفوسنا — ولو إلى حين —
من بعض مخاوف الموت وأشباح الفناء . وقد سبق لنا أن رأينا في مقدمة
هذا الكتاب كيف أن الكوميديا تفرغ بعض ما في نفوسنا من قلق
وخوف ، فتؤدى في حياتنا النفسية دوراً هاماً حيويّاً يجعل منها أداة
فعّالة من أدوات « الصحة النفسية » .

أما من الناحية الأخلاقية الصرفة ، فقد لا نكون مجانبين للصواب
إذا قلنا إن الكوميديا تمتدح المثل الأعلى وتُغلى من شأنه حين تسخر
من نقيضه ، وتهكم على المنحرفين عنه . فالكوميديا تعاقب الأخلاق
السيئة بأن تسخر منها ، وتجازى الخارجين على العادات الجمعية بأن
تصبّ على رؤوسهم النكات اللاذعة ؛ وهى من هذه الناحية قد تكون
كما قال برجسون بحق أداة اصططنها المجتمع لتأديب أفرادهِ . وآية ذلك
أن الشخصيات التي يتناولها الكوميديون في العادة بالسخرية والتهكم
إنما هى الشخصيات الانعزالية التي تحيا على هامش المجتمع ، أو الشخصيات

المنحرفة التي تنأى بنفسها عن معايير الجماعة . ومن هنا فإن المسرح الهزلي كثيراً ما يتناول بسخريته اللاذعة «المفرور» أو «البخيل» أو «المتوحد» أو «الترفع عن الناس» أو «المتعجرف» أو «الدعي» . . . الخ . وكل هذه الشخصيات التي يروق في العادة للككتاب الهزليين أن يمجسوا في السخرية منها والتهمك عليها ، إنما تشترك في صفة واحدة ؛ ألا وهي عجزها عن التكيف مع الجماعة التي تحيا بين ظهرانيها ، أعنى أنها تتصف جميعاً بصفة « انعدام الروح الاجتماعية » *Insociabilité* ^(١) .

٣٥ — وهنا قد يحقّ لنا أن نقف وقفة قصيرة عند تلك التفرقة المشهورة التي أقامها برجسون بين « المأساة » و « الملهة » حينما قال إن الأولى منهما تتجه دائماً نحو « الفردي » أو « الخاص » ، بينما الثانية منهما لا تتجه إلا نحو « الكلي » أو « العام » . والواقع أن الهدف الذي ترمى إليه « الكوميديا » إنما هو أن تقدم لنا بعض « النماذج العامة » ؛ في حين أن موضوع « التراجيديا » هو في الغالب شخصية واحدة تكون هي المحور الذي تدور حوله كل أحداث الرواية . وحتى حينما تصور لنا المأساة بعض الأهواء أو الرذائل التي تحمل اسماً مشتركاً ، فإنها تدعجها في « الشخصية » ، لدرجة أن أسماءها لا بد من أن تُنسى ،

Cf. Henri Bergson : «Le Rire», P. U. F. 1946, (١)
p. 106.

كما أن سماتها العامة لا بدّ من أن تُمتحى ، فلا نعود نفكر فيها على الإطلاق ، بل نجتزئ بالتفكير في « الشخصية » التي امتصتها واستوعبتها . ولعلّ هذا هو السبب في أن عنوان الدراما غالباً ما يكون اسماً من أسماء الأعلام . وأما بالنسبة إلى الكوميديا ، فإن الأمر على العكس من ذلك ، لأنها تحمل في العادة اسماً مشتركاً أو اسم معنى ، كما في « البخيل » أو « لاعب القمار » أو « عدوّ المجتمع » . . . الخ . ولو أننا طلبنا من القارئ أن يتصور مسرحية يمكن تسميتها باسم « الفيور » *Le Jaloux* (مثلاً) ، لخطر على باله في الحال اسم سيجانارل *Sganarelle* أو جورج داندان *George Dandin* ؛ ولكننا لا نظنه يفكر في « عطيل » *Othello* ! والواقع أن اسم « الفيور » لا يمكن أن يكون إلاّ عنواناً ملهأة أو مسرحية هزلية . وربما كان السرف في ذلك يرجع إلى أنه مهما ارتبطت الرذيلة المضحكة بأية شخصية من الشخصيات المسرحية ، فإنها لا بدّ من أن تظل محتفظة بوجودها المستقل القائم بذاته ، حتى أنها لتكاد تكون هي الشخصية الأساسية اللامرئية التي تتكلم بلسانها شتى الشخصيات الحية الماثلة في الرواية الهزلية . ومن هنا فإن مهمة الكوميديا إنما تنحصر في تصوير بعض النماذج البشرية العامة كالبعلاء أو الأدعياء أو أنصاف المتعلمين أو المتحذلقين أو المرضى الموهومين أو النساء المفرورات أو الفاتنات العالمات . . . الخ .

وبينا نلاحظ أنه قلما يخطر على بال كاتب المأساة أن يحدد حول الشخصية الرئيسية لروايته مجموعة من الشخصيات الثانوية التي تكون بمثابة أصداء أو انعكاسات لها ، نجد أن كاتب الملهاة يميل إلى أن يحيط شخصيته الروائية الرئيسية بمجموعة من الشخصيات الثانوية التي تحاكيها وتعبّر عن نفس السمات العامة (التي تتصف بها تلك الشخصية) . ولنا نعدم تفسيراً لهذه الظاهرة : فقد دلتنا الملاحظة الطيبة على أن ذوى الانحراف المشترك يميلون في العادة إلى التجمع سوياً ، وكان ثمة جاذبية خفية تحدوم جميعاً نحو التكتل . ولما كانت الشخصية الهزلية تعبّر في الغالب عن ضرب من الانحراف ، فإن من الطبيعي أن تتكتل الشخصيات الهزلية المتشابهة تحت لواء واحد . هذا إلى أنه لما كان غرض الكاتب الهزلي أن يصوّر لنا نماذج شخصية عامة ، أعنى مجموعة من السمات الخلقية التي تتردّد بكثرة ، فإن من الطبيعي أن نراه يحدد في روايته عدة عيّينات متباينة تعبّر عن « النموذج العام » الذي يريد أن يصوره . وهذا ما يفعله — على وجه التحديد — عالم التاريخ الطبيعي حينما يجد نفسه يإزاء « نوع » واحد ، فيحاول أن يصنّفه وأن يصف شتى الفصائل التي تندرج تحته^(١) .

ولا بدّ لنا أيضاً من أن نفرق بين كاتب الملهاة وكاتب المأساة من حيث منهج كل منهما في الملاحظة . فالأول منهما يلتجئ دائماً إلى

Cf. H. Bergson: « *Le Rire* », 67^e éd., pp. 125-126 (١)

الملاحظة الخارجية ، في حين أن الثاني منها ليس في حاجة بالضرورة إلى ملاحظة الآخرين . حقا إن كاتب المأساة يصف لنا الكثير من الحالات النفسية والشخصيات البشرية ؛ ولكن كل تلك الشخصيات التي يُبدعها هذا المؤلف الدرامي ليست سوى شخصيته هو ، أعني أنها ثمرة لتأمله الباطني ، وملاحظته لشتى الحالات النفسية التي تدور به ، وشتى الممكنات التي تَرِدُ عليه . . . الخ . فشخصيات الملهاة هي المؤلف نفسه ، وقد انعكس على نفسه بإشاهد حالاتها ، ويتعمق مشاعرها ، ويتصور احتمالاتها ، ويتأمل إمكانياتها ، ويستبطن خلجاتها . . . الخ :
وأما كاتب الملهاة فإن اعتماده الرئيسي على الملاحظة الخارجية ، لأنه قلما يتأتى لنا أن نقف على الجانب المضحك من شخصيتنا ، أو أن نتجح في الاهتداء إلى ما في ذاتنا من عيوب تدعو إلى السخرية . ومن هنا فإن روح الانتقاد الكامنة لدينا لا بدّ من أن تجد لها مرتعا خصيبا في شخص الآخرين ؛ واتجاهها نحو الغير هو الذي يكسبها طابع « العمومية » الذي تتميز به الكوميديا . وهكذا نرانا نقتصر على النظر إلى الغلاف الخارجي للأشخاص ، فنفتن في تصنيف حركاتهم المشتركة ونقائصهم المتكررة ، ونعتمد إلى منهج التجريد والتعميم الذي يلتجئ إليه عالم الطبيعة في استقراره للوقائع ، فنجمع المثالب البشرية المتشابهة تحت اسم واحد ، وندرج العيوب الأخلاقية أو الاجتماعية تحت « نوع » مشترك ، حتى نصل في النهاية إلى وصف بعض النماذج البشرية العامة بأسلوب

لاذع نعامل فيه الأشخاص معاملة الجماد أو الآلات أو الحيوان^(١).

ويعود برجسون مرة أخرى إلى نظريته في الضحك فيقول إن الدراما تحرك فينا العاطفة ، بينما الكوميديا تخاطب منا العقل . ويشرح برجسون هذا الفارق الهام بين المأساة والمهابة فيقول إن أى وصف مؤثر لأى عيب من عيوب الإنسان لا يمكن أن يكتسب صبغة فكاهية طالما كان من شأنه أن يستثير فى نفسى انفعال الخوف أو الشفقة أو المشاركة الوجدانية أو ما إلى ذلك من عواطف . ولكن أى وصف لأى عيب من عيوب الإنسان (مهما كان من قبحه وبشاعته) لا بد من أن يستثير لدينا استجابة الضحك ، إذا نجح صاحبه فى أن يصوره لنا بطريقة لا تستثير عواطفنا . ومن هنا فإن الشرط الضرورى للموقف الكوميدى هو ألا يحرك فينا العاطفة ، وإلا فإننا سنتعاطف مع الشخصيات المسرحية الماثلة أمامنا ، فنستجيب للموقف بالبكاء أو التأثر أو بأى انفعال آخر . وما فى فن الكوميديا من براعة إنما يتمثل على وجه التحديد فى قدرة الكاتب المهنى على تحذير حساسيتنا ، وتنويم عواطفنا ، حتى لنكاد نحيا عندئذ فى جو من الأحلام ، فتبدو لنا المواقف المختلفة بعيدة كل البعد عن الواقع ، وتفقد الأحداث المتوالية التى نشهدها على خشبة المسرح كل صبغة جدية . وهناك طريقة يلتجئ إليها كتّاب

الكوميديا لتحقيق هذا الغرض فنراهم يشيعون في حركات شخصياتهم ضرباً من الجلود أو التصاب *Raldeer* الذى يبعث فينا الضحك بدلاً من أن يستثير لدينا عاطفة المشاركة الوجدانية . هذا إلى أن الدراما تركز كل انتباهنا فيما يقوم به الأشخاص من أفعال وتصرفات ، في حين أن الكوميديا لا تتبعه بأبصارنا إلا نحو مجموعة من الإيماءات والحركات . فالفعل *Action* أساسى في الدراما ، ثانوى في الكوميديا ؛ والشخصية ماثلة بأكملها في الفعل الدرامى ، في حين أن التصرف الذى قد يقوم به الشخص الكوميدى إنْ هو إلا حركة آلية لا تعبر إلا عن جزء منفصل من الشخصية .^(١)

وهكذا يتخلص برجسون إلى القول بأن شخصيات الكوميديا تمتاز في العادة بطابع « الآلية » *Automatisme* ، وكأنما هي مجرد أطراف تقوم بمجموعة من الحركات ، دون أن يكون وراء أفعالها أى انتباه . ومن هنا فإن كل ما يتضمن معنى « الغفلة » *Distraction* — كما في تصرفات دون كيشوت مثلاً — لابد من أن يولد لدينا عاصفة شديدة من الضحك . وكثيراً ما يقترن انعدام الانتباه *Inattention* لدى الشخص المزلى بانعدام الروح الاجتماعية *Insociabilité* أيضاً ، فتزداد الصبغة الفكاهية للموقف نتيجة لإدراكنا لسوء توافق الشخص

مع الجماعة . والواقع أن اخلاصية الرئيسية التي تتميز « المضحك » — كما قال برجسون أكثر من مرة — إنما هي انعدام التوافق بينه وبين المجتمع ، بحيث قد يكون في وسعنا أن نقرر أن فن الكوميديا إنما هو أولاً وبالذات تصوير للصوب الاجتماعية ، ووصف للنماذج البشرية التي تَنبُذُ عن المعايير الجمعية . وقد تَفَنَّن كثير من كتاب الكوميديا في وصف نماذج مختلفة لبعض هذه الشخصيات « الانعزالية » التي لم تنجح في تحقيق التكيف مع المجتمع ، فوصفوا لنا المَرُور والدَّعِيَّ والمتعجرف والبغيل والمُؤَسَّرَس . . . الخ .

وسواء أخذنا بنظرة برجسون إلى الكوميديا أم اعترضنا عليها ، فإننا لا نستطيع أن ننكر الدلالة الجمالية لهذا الفن باعتباره تصويراً ساخراً لصوب المجتمع ونقائصه ، وتهكماً لاذعاً على بعض النماذج البشرية التي تعوزها الروح الاجتماعية . وإذا كان أرسطو قد ذهب إلى أن العقلية النبيلة هي التي تكتب المأساة والملمحة ، في حين أن العقلية الدنيئة هي التي تكتب الملهاة والمرحبة الهزلية ، فربما كان في وسعنا أن نرد عليه بأن نقول إن العقلية التي تظهرنا على ما في نفوسنا من مثالب ، وما في مجتمعنا من نقائص ، لا يمكن أن توصف بالخيصة أو الدناءة ، اللهم إلا إذا كان في تصوير القُبُح خروجٌ على معايير الفن والجمال والأخلاق . ولنا عود إلى هذا الموضوع في خاتمة كتابنا إن شاء الله .

الفصل العشائر

روح الفكاهة عند الفرد والجماعة

٣٤ — رأينا فيما مرّ بنا إلى أى حدّ تؤثر الحالة الوجدانية أو « الاتجاه النفسى » للفرد على نوع استجابته للظروف الخارجية ؛ إما باتخاذ وجهة نظر فكاهية تنطوى على اللعب واللهو ، أو باتخاذ وجهة نظر جدية تنطوى على الواقعية والإحساس بمخاطرة الموقف . ولا شك أن الاتجاه الوجدانى المناسب هو الشرط الأولى الضرورى لكل ضحك ولكل تقدير صحيح للمضحك . وهنا نلاحظ أن اتخاذ هذا الموقف يتوقف من جهة على مزاج الشخص المؤقت فى لحظة استجابته ، كما يتوقف من جهة أخرى على بعض سماته الشخصية الثابتة كمدى تمتعه بالإحساس الفكاهى أو « روح الفكاهة » *Sense of humour* التى يمكن بمقتضاها أن يدرك العناصر الفكاهية فى شتى المواقف المضحكة . وفضلاً عن ذلك فإن تذوق الفكاهة والتعبير عنها يتوقفان أيضاً على مجموعة من العوامل الاجتماعية ؛ وهذه بدورها قد تكون عارضة موقوتة ، أو قد تكون ثابتة نسبياً فى طبيعتها . ونحن نعرف — مثلاً — متى وأين نضحك ، فترانا نعدّ الضحك مناسباً فى دور اللهو وصالات التدخين ومجتمعات التسلية ، بينما نعتبره خروجاً على الآداب العامة فى أماكن العبادة وصالات الاحفالات الرسمية ومجتمعات العمل الجدى . وحينما يضحك شخص فى مثل هذه المواقف ، فإننا ننظر إليه نظرة استنكار واستهجان ،

وقد لا نكتفى بإبداء سخطنا واستيائنا لمسلكه ، بل ربما التجأنا إلى اتخاذ إجراء عملي بإزالته ، كأن نأمر بطرده أو إخراجه أو محاسبته على فعلته . . . الخ . — ولما كانت الفكاهة مظهراً من مظاهر الارتداد أو النكوص نحو مستوى عقلي أكثر بدائية ، فإننا قد لا نكون محقّين في النظر إليها باعتبارها خاضعة تماماً لآليات الكف أو المنع *Inhibition* ، وهي تلك الآليات المنبثقة عن بعض الانفعالات الجذبية من جهة ، أو عن ضغط الأنا الأعلى نفسه من جهة أخرى . والظاهر أن من شأن عملية « الكف » الإرادى للضحك أن تُضَعِف من قدرتنا العقلية المحضنة على تقدير المواقف المضحكة والاستجابة للمؤثرات الهزلية بصفة عامة . ولا ريب أن من وظائف تلك العملية مساعدتنا على اتخاذ « موقف جدى » حينما يستدعى الأمر ذلك ، ولو أن آليات « الكف » في بعض الأحيان قد تعمل في مستويات باطنة عميقة ، كما هو الحال في بعض النكات الجنسية التي تقوم على « الرمزية » *Symbolism* .

يبدو أن الملاحظ بصفة عامة أن النكات أو الفكاهات عموماً ، والنكات الجنسية على وجه الخصوص ، لا تكاد تُتَبَادَل (كما سبق لنا القول) إلا بين أشخاص متماثلين أو متقاربين من حيث السن والمركز الاجتماعى . ومعنى هذا أن أعدى أعداء الفكاهة إنما هى السلطة الغاشمة التي تفرض على الناس روح الصنف والاستبداد والتحكم . ولا نرانا في حاجة إلى القول بأن مدى التسامح في قبول الفكاهة

والترحيب بها في بعض المواقف الجدية يختلف اختلافاً كبيراً من مجتمع إلى آخر ، ومن حضارة إلى أخرى . فهناك مثلاً مجتمعات تتقبل برحابة صدر « روح الفكاهة » في حلقات الدرس وقاعات المحاضرات وصالات الاجتماعات الحزبية والسياسية ، بينما توجد مجتمعات أخرى تشدد في إلزام أفرادها باتهاج مسلك جدى في أمثال هذه المناسبات . ونحن في مصر — مثلاً — قد تعودنا أن نخلط المزج بالجد ، وأن نتفلس بالنكتة عن آلامنا وآمالنا ، ومن هنا فقد امتدت الفكاهة عندنا إلى شتى دوائر الحياة الاجتماعية ، حتى أنه ليندر أن تخرج من جلستنا النياية من فكاهة عابرة أو دعاية عارضة أو « قفشة على الماشى » . ومهما يكن من شيء ، فإن الباحث الذي يريد أن يدرس الفكاهة لابد من أن يجد نفسه مضطراً إلى إثارة الكثير من المشكلات النفسية والاجتماعية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنوع استجابات الأفراد والجماعات للمؤثرات المزلية .

٣٥ — والمشكلة الأولى التي تواجه الباحث في هذا الصدد هي

معرفة ما إذا كان من الممكن قياس « روح الفكاهة » عند الأفراد والجماعات ، أو ما إذا كانت هناك فروق مُحَقَّقة بين النكات المختلفة أو الفكاهات المتنوعة التي تستجيب لها النماذج المختلفة من الأفراد والجماعات . وعلى الرغم من أن كلمة الباحثين قد اجتمعت على أن « الحسن الفكاهي » هو سمة هامة قيمة من سمات الشخصية ، إلا أن

تحديد مضمون هذا الحسّ قد اختلف من باحث إلى آخر ، فقال قوم بأنه نوع من الاستبصار *insight* ، وذهب آخرون إلى أنه ضرب من الإحساس الفلسفي بالحياة ، بينما حاول غيرهم أن يربط بينه وبين المزاج الخاص . . . الخ . وقد اهتم بعض الباحثين بتصنيف الأمراض العقلية وتشخيصها في ضوء هذه السمة الشخصية الهامة ، بينما عنى غيرهم بدراسة العلاقة بين الروح الفكاهية من جهة ، وبعض عوامل شخصية أخرى كالتدرات الدراسية والنضج الانفعالي والقامة والوزن من جهة أخرى . كذلك اتجه بعض علماء النفس نحو دراسة روح الفكاهة عند الشعوب المختلفة والأجناس المتعددة ، فقسّموا الجماعات المتنوعة بحسب درجة إقبالها على الفكاهة أو عزوفها عنها ؛ وجاءت هذه الدراسات في كثير من الأحيان متأثرة بجنسية أصحابها ونزعاتهم القومية . . . الخ .

ولا بدّ لنا من أن نشير في مستهل حديثنا عن « روح الفكاهة » إلى أننا نعنى بهذا اللفظ القدرة على الاستجابة الملائمة للتوترات الهزلية من جهة ، والقدرة على ابتداع أفانين الضحك من جهة أخرى . فالروح الفكاهية تنطوي على عنصر « تقدير » *Appréciation* يستطيع بمقتضاه الشخص أن يضحك في الوقت المناسب ، وعنصر « إبداع » *Création* يستطيع بمقتضاه الشخص أن ينتزع استجابة الضحك من الآخرين . وحينما نقول عن شخص ما من الأشخاص إنه يتمتع بحسّ فكاهي ممتاز فإننا نعنى بذلك أنه يملك القدرة على تذوق النكتة من

جهة ، ويتمتع بملكة الظرف (أو خفة الروح) من جهة أخرى .
وكما قوى حظ الفرد من روح الفكاهة ، زادت قدرته على تذوق
النكتة وإطلاق الدعابة . ومن هنا فإن الباحثين الذين عنوا بدراسة
روح الفكاهة ، لم يقصروا بحوثهم على معرفة قدرة الأفراد على تذوق
النكتة ، بل هم قد اهتموا أيضا بمعرفة مدى نجاح هؤلاء الأفراد
في تكملة الدعابات الناقصة ، ووضع أسماء للرسوم الهزلية ، وتأليف
نكت لبعض الصور الكاريكاتورية . . . الخ . ولكن الغالبية
العظمى من هؤلاء الباحثين قد اقتصرت على وضع اختبارات
أو استفتاءات لدراسة « روح الفكاهة » ، مع الاستعانة بالتحليل
الإحصائي المناسب لقياس الفروق الفردية القائمة بين الجنسين ، من
حيث مدى قوة أو ضعف الحس الفكاهي عند كل منهما .

ولن نستطيع أن نسهب في شرح شتى الاختبارات التي قام بها
علماء النفس في هذا الصدد ، وإنما سنقتصر على الإشارة إلى تلك
الاختبارات الدقيقة التي استطاع الباحثون عن طريقها أن يتحققوا من
وجود علاقة مطردة بين « النموذج الانبساطي » *Extravert* في الشخصية
والميل إلى الفكاهات الجنسية والعدوانية ، وبين « النموذج الانطوائي »
Introvert في الشخصية والميل إلى الفكاهات العقلية القائمة على الذكاء
أو الفطنة أو سرعة البديهة . . . الخ . وربما كان في مقدمة البحوث
التي أجريت في هذا الصدد ذلك البحث القيم الذي اضطلعت به الآنسة

وليامز *J. M. Williams* في رسالة تقدمت بها سنة ١٩٤٥ لنيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن تحت عنوان : « دراسة تجريبية ونظرية للفكاهة عند الأطفال » . وقد قامت هذه الباحثة الإنجليزية بإجراء تجاربها على مجموعة من الأطفال يبلغ عددها حوالى ٣٠٠ طفل ، مستعملة ثلاثة أنواع مختلفة من اختبارات الفكاهة ، فكانت تطلب إلى كل طفل أولاً أن يروى أطرف تجربة مرت به ، وثانياً أن يستحضر الصورة التى تبدوله من أمتع ما وقع عليه بصره من الصور المضحكة ، وأخيراً أن يقص النكتة التى يرى أنها أروع ما سمع أو قرأ من نكات . وكل اختبار من هذه الاستخبارات الثلاثة كان ينطوى فى صورته النهائية على ٣٠ سؤالاً كان يُطلب إلى الطفل أن يرتبها بحسب درجة الفكاهة فى مُكَلٍّ منها متأدياً من الأعلى إلى الأدنى . وقد استطاعت وليامز من كل هذه البحوث أن تدبّن بطريقة قاطعة أن ثمة موقفين مختلفين من الفكاهة لدى الأطفال : موقفاً شخصياً *Personnelle* يقترن بتفضيل الأفراد للفكاهات التى يلعب فيها الميل الوجدانى (كالتفوق أو الاستعلاء) الدور الأكبر ، وموقفاً لا شخصياً *Impersonnelle* يقترن بتفضيل الأفراد للفكاهات التى تقوم على المفارقة والمبالغة والخيال الواسع . وتضيف وليامز أن المجموعة الأولى من الأطفال (أى صاحبة الموقف الشخصى) كانت تميل دائماً إلى تفضيل الصورة أو النكتة التى تكشف عن بلاهة الآخرين ، وكانت تتجه

في الغالب نحو الفكاهات التي تسخر من السلطة ، فضلاً عن أنها كانت قلما تستطيع أن تفصل النكتة عن حياتها الخاصة ، بينما كانت المجموعة الثانية (أى صاحبة الموقف اللاشخصي) تميل إلى اختيار الصور والنكات التي تنطوي على عنصر تناقض أو مفارقة أو خيال جامع ، كما أنها كانت تؤثر الفكاهة التي لا تتضمن في الغالب أى عامل شخصي ، فضلاً عن أنها كانت تتجه على العموم نحو الحكم على الموقف الفكاهي باعتباره وحدة أو كلاً لا يتجزأ . وهكذا نجد أن هذه الباحثة الإنجليزية قد قسّمت موقف الأطفال من الفكاهة إلى نوعين : موقف انبساطي يَطلب عليه الطابع النزوعي "Conatif" ، وموقف انطوائي يَطلب عليه الطابع الإدراكي "cognitif" ؛ والأول منهما موقف ذو صبغة شخصية ، بينما الثاني منهما موقف ذو صبغة لا شخصية^(١) .

وقد تأيدت هذه النتائج بأبحاث أخرى دقيقة قام بها الأستاذ إيزنك H. J. Eysenck سنة ١٩٤٧ على بعض الأشخاص المُصابين وعديمي التكيف من نحاي الحرب العالمية الأخيرة ، بقصد معرفة العلاقة بين روح الفكاهة والمرض العصبي . وقد أجرى إيزنك تجاربه هذه على مائة شخص من الجنسين ، فكان يطلب إلى كل واحد منهم أن يصنّف الصور الفكاهية المعروضة عليه ، وفقاً لمعيار خاص ينطوي على

Cf. H. J. Eysenck: « Les Dimensions de la (١) Personnalité », P. U. F., 1950, p. 260.

ثلاثة تقديرات : « طريف جداً » (٣ درجات) ، و « طريف » (درجتان) ، و « غير طريف على الإطلاق » (درجة واحدة) . وقد لاحظ إيزنك في اختياره لهذه الصور (وعددها الكلى ٦٠ صورة) أن تكون ١٥ صورة منها ممثلة لمواقف ذات طابع جنسى (وهو يشير إليها بالحرف S) ، و ١٥ صورة أخرى منها ممثلة لمناظر تنطوى على سفرية من الجيش أو الضباط أو رجال البحرية أو رجال الطيران (وهو يشير إليها بالحرف A) ، و ١٠ صور منها ممثلة لمواقف هزلية تنطوى الفكاهة فيها على عامل اختلاف الطبقة الاجتماعية (وهو يشير إليها بالحرف C) ، و ١٠ صور أخرى منها ممثلة لمواقف ساذجة لا معنى لها تقريباً (وهو يشير إليها بالحرف M) ، وأخيراً ١٠ صور معبرة عن موضوعات متفرقة اختيرت بطريق الصدفة البحتة (وهو يشير إليها بالحرف R)^(١) . وقد استطاع إيزنك أن يتحقق عن طريق هذه الاختبارات العلمية الدقيقة من أن نسبة إدراك المستيريين (رجالاً كانوا أم نساء) للمواقف الفكاهية هي على العموم أعلى من نسبة إدراك المصابين باضطراب المزاج *Dysthymiques* (رجالاً كانوا أم نساء) لتلك المواقف الفكاهية عينها . ومعنى هذا — بعبارة أخرى —

(١) دلائل هذه الحروف هي على التوالي :

(A) army (جيش) (S) sexual (جنسى)

(C) class, (طبقة) - (M) meaningless, (عديم المعنى)

(R) random (متفرقات)

(Eysenck : ouvrage cité, trad. Franç , p. 258)

أن النماذج المستيرية من الأفراد المختبرين هي أقدر على تذوق الفكاهة عموماً من النماذج المصابة بالحصر أو الوسواس ، مما يدل على أن احتمال التعرض للمستيريا يزيد لدى الأشخاص الذين يتمتعون بروح الفكاهة ، أو يقتن على الأقل بامتلاك هذا الحس الفكاهي العام . كذلك استطاع إيزنك عن طريق هذه التجارب أن يظهرنا بوضوح على أن الأشخاص المستيريين (رجالاً كانوا أم نساء) يفضلون النكات الجنسية على غيرها من النكات ، مما يؤيد الرأي القائل بوجود ضرب من التضاييف *Corrélation* بين النموذج الانبساطي في الشخصية والميل إلى تفضيل النكات الجنسية . وهكذا يخلص إيزنك إلى القول بأن ثمة فريقين مختلفين من الأفراد : فريقاً يُؤثر الفكاهة التي تُرضى في نفسه الميول العدوانية والجنسية ، وهؤلاء هم «المنبسطون» *Extravert* ، وفريقاً يُؤثر الفكاهية الذكية الباردة التي ترضى ميوله العقلية ، وهؤلاء هم «المنطويون» *Introvert* ^(١) .

٣٦ - والواقع أننا لو أمعنا النظر في استجابات الأفراد للمؤثرات الهزلية بصفة عامة ، لوجدنا أن الناس (حتى في المجتمع الواحد) قلماً يجمعون على استحسان نكتة واحدة بعينها ، أو تفضيل كوميدٍ واحدة مشتركة . وليس بدعاً أن يختلف الناس في أحكامهم على المؤثرات

(١) Cf. *Flugel: «Humor & Laughter»; in «Handbook of Social Psych», Vol, II., 1954, pp. 729 - 731.*

الفكاهية : فإنهم في العادة قلما يجمعون على تقدير عمل فنى بعينه ،
أو لوحة تصويرية بعينها . وتبعاً لذلك فإننا حينما نتحدث عن « النكتة
الجيدة » أو « الفكاهة البارة » ، فإننا قلما نغنى بها النكتة أو الفكاهة
التي تلتقى إجماعاً شاملاً ، لأن مثل هذا الإجماع يكاد يكون ضرباً من
المستحيل . ومع ذلك فقد لوحظ أنه على الرغم من اختلاف الأفراد فيما
يصدر من أحكام على شتى ضروب الفكاهة وأنواع المؤثرات
المُضحكة ، فإن ثمة ضرباً من الاطراد أو الثبات في نسبة « المادة الهزلية »
التي ينجح كل فرد من الأفراد في استغلالها مما يُعرض عليه من صور
كاريكاتورية ورسوم هزلية وموضوعات فكاهية ، على الرغم من تعدد
الاختبارات وتنوع طرق البحث . وهذه الحقيقة إن دلت على شيء ،
فإنما تدلنا على أن الحسن الفكاهى ليس حديث خرافة ، بل هو
— كما سبق لنا القول — سمة هامة من سمات الشخصية التي يمكن قياسها
وإخضاعها للتحليل العلمى .

وقد اهتم كثير من الباحثين بدراسة العلاقة بين هذا الحسن الفكاهى
وبين الذكاء أو القدرة العقلية ، فحاول البعض منهم أن يقوم باختبارات
علمية دقيقة بقصد تحديد العلاقة القائمة بينهما عند الأطفال والبالغين على
السواء . ولكننا حينما نعرض لدراسة مثل هذه العلاقة ، فإننا لا بد من
أن نتذكر أنه على الرغم من أن الكثير من الفكاهات يفترض قدراً
غير قليل من القدرة العقلية أو سرعة البديهة أو دقة الحدس ، إلا أن

هذه الحقيقة قد لا تصدق إلا على الفكاهات التي تتسم بطابع إدراكي واضح . وقد قام بعض الباحثين بدراسة العلاقة بين روح الفكاهة ومستوى الذكاء عند الأطفال ، فاستطاعوا أن يتحققوا من أن الأطفال النابهين هم في العادة أقدر من غيرهم على تمييز ضروب الاستحالة العقلية ، في حين أن ضعاف العقول من الأطفال كثيراً ما يعجزون عن إدراك عنصر الفكاهة فيما قد يضحك له غيرهم من الأسوياء . ومن هنا فقد ذهب هؤلاء الباحثون إلى أن ثمة علاقة وثيقة بين المقدرة العقلية والروح الفكاهية ، ما دام الأطفال الذين يعوزهم الاستبصار العقلي هم أعجز من غيرهم في الاستجابة للمؤثرات الهزلية بصفة عامة — . وثمة أبحاث أخرى كثيرة قام بإجرائها بعض المشتغلين بعلم النفس في انجلترا على مجموعات من طلبة المدارس الثانوية ومجموعات أخرى من طلبة الجامعات ، بقصد قياس روح الفكاهة عند كل من الفريقين ، فأثبتت هذه الاختبارات أن هناك علاقة مطردة بين الروح الفكاهية من جهة ، والذكاء والتحصيل العلمي من جهة أخرى .

يبد أن ثمة باحثين آخرين قد توصلوا في دراساتهم التجريبية إلى نتائج عكسية ، إذ وجدوا أنه ليس ثمة علاقة تضايف دقيقة بين الذكاء والفكاهة لدى أية جماعة سوية متجانسة من الناس . وهذا ما انتهى إليه مثلاً في السنوات الأخيرة كل من أومفيك *Omwake* (١٩٣٩) وجريج *Oregg* (١٩٢٨) ، وبراكيت *Brackett* (١٩٣٤) ، ودنيج

وجرسييلد (*Ding & Jersild*) (١٩٣٢) ، ورؤوس ولآنديس
Ross & Landis (١٩٣٣) وغيرهم . وهؤلاء جميعاً قد خلصوا
من دراساتهم المتشعبة المتباينة إلى القول بأن الذكاء ليس عاملاً حاسماً
في تذوق الفكاهة وتقدير الفكته . وحتى أولئك الذين انتهوا إلى تقرير
أهمية عامل الذكاء في تقدير الفكاهة - مثل واين - جونز *Wynn-Jones*
سنة ١٩٢٧ ، ويريه *Piret* سنة ١٩٤٠ ، ومونز *Mones* سنة ١٩٣٩ -
نجد أنهم قد حرصوا من جتهنهم على القول بأن ثمة عوامل نفسية أخرى
كالزواج والاتجاه الوجداني وغير ذلك من النوازع النفسية ، قد يكون
من شأنها أن تحجب الدور الذي يقوم به الذكاء في تقدير الفكاهة .
ومهما يكن من شيء ، فقد دللنا التجارب التي أجريت على الأطفال
على أن ثمة علاقة وثيقة بين الضحك والترقي النفسي عموماً ، بدليل
أن الأطفال الذين تتردد لديهم بكثرة حالات البكاء هم في العادة أقل
ترقياً من غيرهم . ومعنى هذا أن الروح الفكاهية تقترن بالنمو النفسي ،
فتكون في كثير من الأحيان بمثابة أمانة على سلامة العقل وصحته وقدرته
على تفهم حقيقة الأشياء . وكلما كان العقل أسلم وأصح وأقوى ، كانت
قدرته أسرع على فهم المفارقة والضحك منها .

٣٧ - أمّا فيما يتعلق بالعلاقة بين الفكاهة والجنس (أي الذكورة

أو الأنوثة) ، فقد أثبتت بعض التجارب الحديثة التي قام بإجرائها جماعة
من الباحثين على مجموعات كبيرة من الأولاد والبنات في مراحل مختلفة من
عمرهم ، أن الروح الفكاهية أقوى لدى البنات منها لدى الأولاد في المرحلة
(١٤ - الضحك)

الأولى من مراحل الطفولة ، في حين تزيد قدرة الأولاد على فهم النكات وتذوق الفكاهات في المراحل المتأخرة من الطفولة عن نظيرتها لدى البنات . هذا وقد قامت باحثة أمريكية بدراسة المذنبات التي تولد استجابة الضحك لدى الأطفال (أولاداً كانوا أم بنات) ، فاستطاعت أن تبين بوضوح كيف أن رسوم الأولاد الكاريكاتورية تزيد طرافة وأصالة عن رسوم البنات ، ولو أن بعض الاختبارات التي أجرتها هذه الباحثة قد أثبتت أن الفروق الفردية في هذا المجال قد تكون أظهر بكثير من الفروق الجنسية^(١) . ومعنى هذا أن اختلاف المزاج أقوى أثراً على الروح الفكاهية من اختلاف الجنس Sex . ولكن التجربة قد دللتنا بصفة عامة على أن الفتيات يملن في العادة إلى استهجان النكات القاسية والفكاهات اللاذعة ، كما أنهن قد يكنّ أكثر تردداً من الفتيان في الإقبال على الفكاهة العدوانية ، والترحيب بالضحك الساخر ، والميل إلى التهكم والمهجو والإفحاش .

أما التجارب التي أجراها الأستاذ إيرنك Eyzenck على المرضى النفسيين من الرجال والنساء ، فقد أثبتت أن نسبة تقدير النساء للفكاهة أعلى بصفة عامة من نسبة تقدير الرجال لها (١,٨٣ للنساء ، و ١,٧٧ للرجال) . ولكن بينما جاء تقدير النساء للفكاهات القائمة على

Florence Brumbaugh : «Stimuli which cause (١) Laughter in Children» ; New-York University (Doctor's Dissertation), 1939.

السخرية بالجيش (A) والفكاهات الساذجة التي لا معنى لها (M) ،
والفكاهات القائمة على اختلاف الطبقات الاجتماعية (C) والفكاهات
التي اختيرت بطريق الصدفة (R) ، عاليانسياً ، نجدان تذوقهن للفكاهة
الجنسية (S) أضعف بكثير من تذوقهن لباقي أنواع الفكاهة . حقا
إن فهم النكتة الجنسية ليس وفقاً على الرجال ، ولكن الظاهر أن هذا
النوع من النكات لا يلقى استحساناً كبيراً من جانب النساء^(١) .

وقد أُيدَت هذه النتيجةُ البحوثُ التي كان قد قام بها جوش Ohosh
(في رسالة تقدم بها لتيل درجة الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٣٩
تحت عنوان «دراسة تجريبية للفكاهة») . ولكننا لا نستطيع أن نقطع
بصحة الرأي القائل بأن المرأة في كل زمان ومكان أقل إقبالاً على
النكات البذيئة من الرجل ، لأن أحداً لم يقم حتى الآن بدراسات
تجريبية وإحصائية وافية يمكن الاستناد إليها بصفة قاطعة للتسليم بصحة
هذه الدعوى . وإذا كان بعض الباحثين يستند إلى واقعة ندرة الرسوم
البذيئة والتعليقات الجنسية الفاضحة بمراحيض السيدات إذا قيست
بمراحيض الرجال ، من أجل التدليل على صحة الرأي القائل بضعف ميل
النساء إلى الفكاهة الجنسية بصفة عامة ، فربما كان في استطاعتنا أن نردّ
على هذه الحجة بأن نقول إن العوامل الحضارية والتربوية قد تعمل عليها

cf. H. J. Eysenck: «Les Dimensions de la Personnalité» (١)
sonnalité, Paris, P.U.P., trad. franç., 1950, p. 258.

في هذا المجال ، فتكون هي المسئلة — لا الجنس Sex — عن انصراف النساء (ظاهرياً على الأقل) عن النكات الجنسية والفكاهات البذيئة . ومن هنا فقد ذهب بعض علماء النفس إلى تعليل هذه الظاهرة بإرجاعها إلى عامل « المَواضعات الثقافية » *Cultural conventions* مُحْتَجِّين في ذلك بأنه متى تهيأ للنساء الجو الملائم ، فإنهن قد لا يتردّدن في الضحك للنكتة الجنسية بمُطلق الحرية . حتّى إن المرأة قد تُظهر هادئ ذى بدء شيئاً من الحرج والحجل والتردد في الاستجابة للمنبّهات الجنسية ذات الصبغة الهزلية ، ولكنها إذا اطمأنت إلى أُرْجاع الوسط الاجتماعى المحيط بها ، فإنها سرعان ما تستجيب لتلك المنبّهات على نحو ما يستجيب لها الرجل .

يبد أن بعضاً من الباحثات اللائى اهتممن بدراسة الفروق الجنسية بين الرجال والنساء في هذا المضمار قد عُدن إلى تأكيد الرأى القائل بضعف استجابة النساء للمنبّهات الفكاهية ذات الطابع الجنسى . وهنّ يميلن إلى تعليل هذه الظاهرة بأن وظيفة المرأة البيولوجية في عملية التكاثر هى التى تجعلها تتخذ من المسألة التناسلية (أو الجنسية بصفة عامة) موقفاً جدياً ، فلا تستجيب بالضحك للنكات البذيئة التى قد تنطوى على أى استخفاف بقُدسية الجنس Sex . ولكن التجربة قد دلّتنا — من جهة أخرى — على أن ضحك النساء للنكات الجنسية يتناوب تناسباً طردياً مع درجة تحرّرها من مخاوف الحمل اللاإرادى . ومعنى هذا أن

العلاقة قد تكون وثيقة جداً بين درجة تفوق المرأة للفكاهة الجنسية ومدى إلمامها بطرق منع الحمل . ومع ذلك ، فإن المشكلة لا زالت قيد البحث ، لأن علماء النفس الذين اهتموا بدراسة الفروق الجنسية بين الرجال والنساء في دائرة الفكاهة والضحك ، لم يتوصلوا بعد إلى تحديد تلك الفروق بصورة نهائية قاطعة . ولا زال المجال مفتوحاً أمام الراغبين في دراسة « روح الفكاهة » ، لأن يقوموا بعمل الكثير من الاختبارات والتجارب من أجل معرفة الفروق المميّزة لكل من الجنسين في هذا المضمار .

٣٨ — أما إذا عمدنا الآن إلى دراسة العلاقة بين روح الفكاهة والفروق القومية *National Differences* ، فإننا سنجد أن كثيراً من الباحثين الذين اهتموا بدراسة الفكاهة عند الشعوب قد حاولوا تفسير تلك الفروق بإرجاعها إلى اختلاف « نموذج الشخصية » عند كل شعب منها عنه لدى غيره من الشعوب . وهكذا ذهب هؤلاء إلى أن الفكاهة الألمانية عامرة بالوجدان مليئة بالتعاطف ، وأن الفكاهة الإنجليزية ناطقة برغبة أهلها في مصارعة جدية الحياة ، وأن الفكاهة الأمريكية بدائية زاخرة بالإغراق والتحويل والمبالغة (وهو ما يلقاه الألمان بروح السخرية والتهمك والازدراء) في حين تبدو الفكاهة الفرنسية قاسية لاذعة شديدة العداء . — ولكن باحثين آخرين قد حاولوا أن ينتقصوا من قيمة هذه المقارنات ، فعند قوم منهم إلى إظهارنا بطريقة

تجريبية عملية على أنه ليس ثمة فارق كبير بين الفكاهة الأمريكية والفكاهة الإنجليزية ، بينما أثبت آخرون أن الفارق ضعيف بين الفكاهة الأمريكية والفكاهة اليابانية مثلاً . وقد حاول كاتب هذه السطور أن يقوم بتجربة مماثلة من أجل التحقق مما إذا كان في وسع المختبرين من المصريين أن يتعرفوا على الفكاهة المصرية وأن يميزوها عن غيرها من الفكاهات الأجنبية ، فوجد أن ٧٣٪ من الأفراد الذين عُرِضَتْ عليهم تلك النماذج المختلطة من الفكاهة لم ينجحوا في استخلاص النكات المصرية الأصلية من بين ما غرض عليهم من فكاهات^(١) .

بيد أن هذا لا يعنى انعدام كل صلة بين الفكاهة والجنسية ، فإن من المؤكد أن لكل شعب روحه الفكاهية الخاصة ونكاته العديدة التي يسخر فيها من غيره من الشعوب . وربما كان الاتجاه المقيّد في هذا الصدد هو ذلك الذي ذهب إليه مورفي *H. M. Murray* سنة ١٩٣٤ حينما حاول أن يبيّن لنا كيف أن عيوب الشعوب الأخرى ، ونقائص غيرنا من الأجناس ، هي دائماً أكثر استنارة لضحكنا من عيوبنا نحن ،

(١) لاؤلنا بصدد القيام بدراسة تجريبية للروح الفكاهية في مصر ؟ فليس في استطاعتنا أن نضمن هنا الكتاب النتائج النهائية لبحت الذي نقوم به الآن ، ولكن حسبنا أن نقول أننا نأمل أن نطهر على القارىء يوماً — في كتاب مستقل — دراسة مفصلة للفكاهة في مصر ، دون الاقتصار على العرض التاريخي كما فعل غيرنا .

كما أنها في الوقت نفسه أخصب وأطرف كموضوعات للنكتة من نقائصنا نحن . وربما كان السبب في ذلك يرجع إلى أن أساليبنا في السلوك والتعامل تبدو لنا دائماً طبيعية معقولة ، نظراً لأنها عادية مألوفة ، في حين تبدو لنا أساليب غيرنا من الشعوب عجبية مستهجنة ، وبالتالي مضحكة أو باعثة على السخرية . ومن هنا فإن الفرنسي يسخر من الإنجليزي ، والإنجليزي — بدوره — يتهم على الفرنسي ؛ ونحن في مصر نتندر على كثير من الشعوب الأجنبية ، فنطلق النكات على اليهودي والتركى والمندى والأمريكى والإنجليزي والفرنسى وغيرهم ! ولو تصفح المرء أية مجلة فرنسية من المجلات الفكاهية لوجد أنها قلما تخلو من نكتة تنطوي على سخرية أو تهكم على الإنجليز ، خصوصاً وأن الروح العدوانية عند الفرنسي قد وجدت في شخص الإنجليزى التقليدى المحافظ ، بتزمته وريائه ونقائه المزعوم ، مادة خصيبة للفكاهة اللاذعة والنكتة الباردة و « والقفشة » الطريفة . ولعل من هذا القبيل مثلاً ما يرويه الفرنسيون من أن شخصين إنجليزيين وجدا نفسيهما في جزيرة نائية ، على أثر غرق الباخرة التى كانا يركبانها . ولكن أحداً لم يُقدم الواحد منهما إلى الآخر ، فظل كلاهما وحيداً لا يجرؤ على مخاطبة الآخر ، وبقى الإثنين في عزتهما الأليمة لا يملكان سوى أن يجهل أحدهما الآخر تماماً ! وماهى إلا أيام معدودات حتى دفع الموج بإنجليزى ثالث إلى تلك

الجزيرة النائية ، فسرعان ما تألف من ثلاثهما « ناد » ضم بين رحابه
رعايا الإمبراطورية البريطانية الجيدة^(١) ا

ونحن في مصر نملك ثمرة ضخمة من النكات التي نطلقها على غيرنا
من شعوب العالم ، خصوصاً وأن موقع بلادنا الجغرافي قد أتاح لنا الفرصة
لأن نتعرف عن كثر على كثير من الأجناس (ماين مستعير وزائر
وسائح ومتطفل . . . الخ) . وقد انضاف عامل الاحتلال الأجنبي
إلى عامل اختلاف اللهجات واللغات والعادات والتقاليد بيننا وبين تلك
الأجناس ، فكان أن برع المصري في السخرية من الحاكم الأجنبي ،
والتهكم على المستعير البغيض ، والتندر على المحتل الدخيل . وكلنا يذكر
بلا شك تلك النكات العديدة التي تناقلها المصريون بأسرهم ، إبان
العدوان الإنجليزي الفرنسي الغاشم على مصر ، وكأن تلك الحنة
نفسها كانت سبباً في تقوية الروح الفكاهية عندنا ، أو كانت على الأقل
مناسبة طيبة للتنفيس عن بعض نزعاتنا العدوانية نحو تلك الشعوب .
والظاهر أن مجرد اختلاف الشعوب والأجناس هو في حد ذاته بمثابة تحدٍّ
يُوجِّه إلى الشعب الواحد من قبل غيره من الشعوب ، بحيث قد يكون
في وسعنا أن نقول إن تحرش الجماعة الواحدة — في نكاتنا وفكاهاتها
وشتى مظاهر هزلها — بغيرها من الجماعات ، هو وليد تلك الروح

Cf. Ch. Lalo : «Esthétique du Rire», 5^e Partie, (١)
Ch. IV, pp. 280-282.

العدوانية التي تنشأ أولاً بالذات عن عامل « الاختلاف » أو « التباين » فيما بين الشعوب . والواقع أن مثل هذه الفروق قائمة بين الجنسين (الرجل والمرأة) ، فضلاً عن أننا نجد لها نظيراً أيضاً فيما بين الطبقات الاجتماعية من خلاقات .

وقد قام الباحث الإنجليزي إيرنك بدراسة الفروق القومية المميّزة للشعوب من حيث مدى نموّ روح الفكاهة عند كل منها ، فوجد أنه على الرغم من وجود سمات خاصة تميّز الروح الفكاهية عند كل أمة ، إلا أنه ليس ما يقطع بوجود تلك الروح عند البعض منها وانعدامها لدى البعض الآخر . وقد اهتم إيرنك بدراسة مجموعتين من الأشخاص الإنجليز والألمان المقيمين في إنجلترا (ولو أنه راعى عند اختيار هؤلاء الأخيرين أن يكونوا من أبعد الأشخاص عن التأثير بعادات الحضارة الإنجليزية) ، فاستطاع أن يتبيّن أنه ليس ثمة فارق يُذكر بين المجموعتين من حيث قدرة كل منهما على تمييز العناصر الفكاهية . أما الفروق التي أثبتت التجارب قيامها بين الأشخاص الذين أُجريت عليهم التجارب من بين الأمريكيين والإنجليز ، فقد بيّن أن مرجعها في معظم الأحيان إلى اختلاف حظ المختبرين من التربية والثقافة . — وقد عاد إيرنك لمحاول أن يتحقق في بحث آخر مما إذا كان في الإمكان (أم لا) تمييز الرسوم المتحركة للشعوب المختلفة ونسبتها إلى أصحابها الحقيقيين ، فكان يعرض تلك الرسوم على أشخاص يجهلون مصدرها ، طالباً إليهم أن يحدّدوا جنسية أصحابها .

وقد أثبتت هذه التجارب أن الأشخاص المختبرين لم يكونوا ينجحون في تعرف جنسية تلك الرسوم المتحركة ، إلا حينما كانوا يرون أمامهم أمارات خارجية (كنوع لباس الرأس ، أو شكل الزي الذي يرتديه رجال البوليس ، أو كون حركة المرور تسير على اليمين أو على اليسار .. الخ.) يستطيعون عن طريقها أن يميزوا مصدر تلك الصور المتحركة . وأما حينما كان المختبرون لا يجدون أمام أعينهم سوى قرائن « باطنة » *Internal* (كطريقة الرسم أو نوع الفكاهة المستخدمة) فإنهم لم يكونوا يهتدون إلى تحديد جنسية كل رسم من تلك الرسوم المتحركة . —

وحينما أجرى إيزنك تلك التجارب على مجموعتين من الأشخاص الكنديين والإنجليز ، لاحظ أن درجة فهمهم كانت تتوقف طردياً على حدسهم بجنسية أصحاب تلك الفكاهات ، بمعنى أنهم كانوا يضحكون كثيراً لما يظنونه بالفكاهة الأمريكية ، بينما كانوا يستقبلون ببرود ما كانوا يحسبونه فكاهة ألمانية ولكن التجربة قد أثبتت أنه لم يكن ثمة علاقة مطردة بين شدة فهمهم وبين الجنسية الحقيقية لأصحاب كل فكاهة من الفكاهات التي كانت تعرض عليهم .

نؤخراً لابد لنا من أن نشير إلى دراسة ثالثة قام بها هذا الباحث عينه من أجل حصر موضوعات الصحف الفكاهية الشعبية (ذات الجنسيات المختلفة) حصراً إحصائياً دقيقاً . وقد استطاع إيزنك أن يتحقق هنا من أن الفروق الموجودة بين صحيفتين من جنسية واحدة قد تكون

أ كبر من الفروق الموجودة بين صحيفتين من جنسيتين مختلفتين .
والسبب في ذلك هو أن لكل صحيفة أو مجلة موضوعاتها الخاصة ، في حين
أننا لا نستطيع أن نقول إن لكل شعب مثل هذه الموضوعات . وهكذا
نرى مثلاً أن الرسوم الكاريكاتورية التي اختُصت بها الصحيفة الهزلية
الإنجليزية السّماة *Razzle* تدور في معظمها حول المسائل الجنسية وشرب
الخمر والفكاهات العلوانية ، بينما تبلغ نسبة مثل هذه الرسوم في جريدة
New Yorker ٢٦٪ ، وفي صحيفة *Punch* صفر٪ . ومن جهة
أخرى ، تبلغ نسبة الرسوم الكاريكاتورية المتعلقة بموضوعات التفاوت
الطبقى حوالى ٧٢٪ في مجلة *Punch* ، و ٣٤٪ في صحيفة *New Yorker*
و ١١٪ في مجلة *Razzle* من مجموع الموضوعات الفكاهية لكل منها
على حدة . ومعنى هذا أن عامل « الجنسية » ليس بالعامل الفاصل في
تحديد نوع الفكاهة التي تميل إليها هذه الصحيفة الهزلية أو تلك^(١)

Cf. H. Eysenck : «National differences in sense of humour»; in «*Charact. Pers.*», Vol. XIII , pp. 87-84. (1944).

خاتمة

إذا كنّا قد حاولنا — في تضاعيف هذا البحث — أن نلقى بعض الأضواء على « الضحك ، هذا المجهول » (*Le rire, cet Inconnu*) ، فذلك لأن هذه الظاهرة البشرية المعقدة قد بدت لنا منذ البداية مشكلة متعددة الجوانب مترامية الأطراف ، بحيث قد يصحّ لنا أن نقول إن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هنالك من نماذج بشرية . والواقع أن الضحك أمانة سيكولوجية ، إن لم نقل مع بعض الباحثين بأنه أداة تشخيص أخلاقي *diagnostic moral* ؛ فليس بدعاً أن يذهب بعض الفلاسفة إلى حد القول بأن « الضحك ، هو الإنسان نفسه » ! ولنا نغنى أن الضحك ظاهرة شخصية بحتة ، كما قرر بعض الباحثين ، وإنما نغنى أنه مقياس للإنسان . وربما كان هذا هو ما قصد إليه مارسيل پانيول حينما قال في خاتمة دراسته القيمة للضحك : « قُلْ لِي مِمَّ تَضْحَك ، أَقُلْ لَكَ مَنْ أَنْتَ » .^(١)

وهنا قد يحسن بنا أن نقف وقفة قصيرة عند مشكلة الدلالة الأخلاقية للضحك ، فإن حكماء الدين والأخلاق قد أمهّبوا في نهى الناس عن الاسترسال في المزاح والهزل والضحك ، حتى لقد استمطر

Cf. Marcel Pagnol : «Notes sur le Rire», 1947, (١)
pp. 123-124.

بعضهم اللعنات على الضاحكين والمازحين وأهل الفكاهة ! وقد لاحظ
الفيلسوف الإنجليزى هويتهد خلوة التوراة من كل روح فكاهية ،
فقال : إنه ربما كان السرّ فى انعدام الفكاهة تماماً من كل كتابات
اليهود الأقدمين هو أن شعب إسرائيل كان شعباً مضطهداً معذباً ،
فكان هبوطه النفسى عاملاً هاماً من عوامل انصرافه عن الضحك
والمزاح والفكاهة^(١) . ويعود هويتهد فيقول فى موضع آخر : « إن
الضحك لهو فضيلة إلهية . وإنه لأمر خطير بالنسبة إلينا نحن شعوب
أوروبا الشمالية أن تكون الأديان العبرية خالية تماماً من كل صبغة
فكاهية ؛ فإن الضحك ليلب دوراً هاماً فى صميم حياتنا ، ومن هنا
فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نستبقى ضحكاتنا للوثر أخرى تبعد
كل البعد عن الدين . »^(٢) . — حقا إن سليمان الحكيم قد قرّر
فى أمثاله أن : « للضحك وقتاً ، وللبكاء وقتاً » ، ولكننا نراه يعود
فيقول فى سفر « الجامعة » إن فى الضحك مَـاً من الجنون !

أما فى المسيحية فإنه لم يذكر عن المسيح أنه ضحك يوماً ، فى حين
نصّ الإنجيل على أنه بكى ثلاث مرات ! ولئن كان القديس بولس
قد أوصى المسيحيين فى إحدى رسائله بأن يفرحوا فى كل حين ، إلا أنه

Lucien Price: «Dialogues of Alfred North (٢) ، (١)
Whitehead», A Mentor Book, New-American Library,
1956, pp. 168, 285.

هو نفسه — كما قال رينان — ؛ يمكن يعرف حتى لغة الابتسام ؛ وهذا
بوتويه Hossuet يمدّ الضحك رجاً من الشيطان فيقول : « يا لشقاء
الضاحكين فإنهم أتص بنى البشر » ؛ وأما الكاتب الكاثوليكي
الشهير لامنيه Lamennais فقد اشتط في حكمه على الضحك حتى لقد
كتب يقول : « إن الضحك لينطوى في جميع الحالات على حركة
تبدأ من الذات وتنتهى إلى الذات ، يستوى في ذلك أن نكون يازاء
ضحك الخرية القاسى المرير ، أم ضحك اليأس الملىء بالفزع والخوف ،
أم ضحك الشيطان المهزوم الذى يصرّ مع ذلك على المقاومة فيلوذ بكبريائه
الفاشمة التى لا تلين ، أم ضحك الأبله والمعتوه . . . الخ . والضحك
لا يكسب الوجه على الإطلاق أى تعبير من تعبيرات التعاطف أو المشاركة
أو المودة ، وإنما هو على العكس من ذلك ، يشيع القُبْح في أكثر الوجوه
انسجاماً ، ويطمس معالم الجمال في أبهى القسمات ؛ وإذن فإن الضحك
هو صورة من صور الشر ، لا لأنه يعبر عنه تعبيراً مباشراً ، بل لأنه
يكشف عن موطنه ، ويزيح النقاب عن مُسْتَقَرِّهِ^(١) . »

أما في الإسلام فقد رُوِيَ عن رسول الله أنه قال : « رَوَّحُوا
القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كَلَّتْ عَمِيت » . ويذكر
أبو الحسن البصرى في معرض الحديث عن مزاح الرسول أن هجوراً

من الأنصار أته فقالت : يا رسول الله أذعُ لي بالمغفرة فقال : « أما علمت أن الجنة لا يدخلها العجائز ؟ » فصرخت ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « أما قرأت من القرآن قول الله عز وجل : إنا أنشأناهم إنشأً نجعلناهم أبكاراً عرباً أتراباً » ١٩ . ولكن نهى الإسلام الذي كان يمزح على هذا الوجه يعود فيقول في حديث آخر : « المزاح استدراج من الشيطان ، واختداع من الهوى » . كذلك روى عنه أيضاً صلوات الله عليه أنه قال : « إياك وكثرة الضحك ، فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه » . وروى عن ابن عباس في قوله تعالى : « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » أن الصغيرة الضحك . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « إذا ضحك العالم ضحكة ، مج من العلم حجة » ١ وقيل في منشور الحكم عند العرب : « ضحكة المؤمن غفلة من قبله » . وروى عن عمر بن العزيز أنه قال : « اتقوا المزاح فإنه حقة تورث ضغينة » . وقال بعض البلغاء : « من قلّ عقله كثر هزله » (١)

وكل هذه الأحاديث والأمثال والحكم إنما تظهرنا بصورة قاطعة على أن الإسلام قد اتفق مع المسيحية في نهى المؤمن عن المزاح ، ودعوته إلى التحرّز من الضحك . ولكن العرب قد فطنوا إلى أن المزاح ينفي عن النفس ما طرأ عليها من سأم ، ويزيل عن القلب ما ألمّ به من هم ،

(١) « أدب الدنيا والدين » لأبي الحسن البصري ، طبعة القاهرة ، سنة

لأنه لا بدّ للمصدر أن ينفث ، فقال شاعرم :
أفد طبعك المكدود بالجدّ راحة نجمٌ وعَلَّه بشيء من المرح
ولكن إذا أعطيته المرح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح
والواقع أن الضحك ظاهرة إنسانية بحته : فإن الله لا يضحك ،
والمَلَك في السماء لا يضحك ، والحكيم في وقاره واتزانهم لا يضحك
وهذا بودلير يقول في حديثه الرومانتيكي عن الضحك : « إن الحكيم
لا يضحك إلّا وهو يرتعد ! إن الضحك رجس من الشيطان ، فهو
إذن شيء من أخسّ خصائص الإنسان ! والضحك أيضاً هو في جوهره
تناقض : فإنه دليل المظلمة اللامتناهية من جهة ، ولكنه كذلك دليل
الشقاء اللانهائي من جهة أخرى » ^(١) — وهذا برجسون يقرّر
في خاتمة رسالته عن الضحك ، بعد أن أسهب في الحديث عن الدور
الاجتماعي الذي يقوم به ، أنه ربّما كان في الضحك ضرب من المرارة
التي تكشف عما في الطبيعة البشرية من خبث وشرّ وسوء نية ^(٢) . —
فلي أيّ نحو إذن ينبغي أن تصوّر العلاقة بين الفكاهة والقيم ، أو بين
الضحك والأخلاق ؟ وهل يمكن بعد هذا كله أن ننسب إلى الضحك
دلالة أخلاقية ؟

(١) Cf. Baudelaire: «Curiosités Esthétiques», De l'Es-
sence du Rire, 1884.

(٢) H. Bergson: «Le Rire», P.U.F., 67^e éd., 1946, pp. 150-159.

الحق أن بعض ضروب الفكاهة قد تنطوى على استخفاف بالمبادئ الأخلاقية أو سخرية من القيم ، كما يظهر مثلاً من بعض النكات الجنسية أو العدوانية التي أطلق عليها فرويد اسم « الفكاهة المفرضة » . فليس بمستبعد أن يكون ضحكنا في بعض الحالات على حساب المبادئ الأخلاقية ، أو أن يكون هزلنا قائماً على التضحية ببعض المعايير السلوكية الجمعية . هذا إلى أنه لا بد لنا أيضاً أن نترف بأن بعض النكات الشعبية والرسوم الهزلية والصور الكاريكاتورية قد تخفى وراءها شيئاً من الاستخفاف بالسلطة الأخلاقية ، أو الاستهزاء بالقيم الدينية ، أو الشك في قيمة بعض المبادئ اللاهوتية (كالنكات التي تدور حول الجنة والنار ، والحياة الأبدية ، والرسل والأنبياء ... الخ) . ولكن من المؤكد أن كثيراً من المسرحيات الهزلية إنما ترمى إلى أهداف أخلاقية واضحة ، كما يظهر من عناوينها التي تحمل في العادة اسم رذيلة أخلاقية يصب عليها الكاتب النكات صبا . . . فن هذا القبيل مثلاً بعض مسرحيات مولير المشهورة ، كالبغيل *L' Avare* أو «عدو المجتمع» أو «المريض الوهمي» أو «طبيب رغبته» ... الخ . ولا نرانا في حاجة إلى أن نعيد ما سبق لنا ذكره من أن الفكاهة الساخرة حين تنهك على أصحاب تلك الرذائل أو النقائص ، فإنها بذلك إنما تهدف إلى إدانتها أخلاقياً والحكم على أصحابها بأنهم ليسوا أهلاً لأن تُحمل تصرفاتهم على محل الجد .

يد أننا لا بُدَّ من أن نعود فنقرر من جهة أخرى أن المشكلة الأخلاقية لا تُثار دائماً بالنسبة إلى شتى فنون الضحك : لأن ثمة فكاهات تستثير لدينا الضحك دون أن تكون لها أدنى صبغة أخلاقية ، كالأخطاء الحسابية التي يرتكبها في إحدى المسرحيات « كاتب » يقوم بعمليات الجمع على طريقة « بهلوانية » مضحكة ، أو كالأنغام الناشزة التي تظهر على حين فجأة في إحدى المقطوعات الموسيقية^(١) ، أو كالحركات النمطية التي يقوم بها أرباب الحرف المختلفة بشكل آلي يبعث على السخرية ، أو كالأزياء القديمة التي يرتديها بعض المستخفين بالبدع الحديثة فيكون سلوكهم متجافيا مع الأوضاع الاجتماعية دون أن يكون مع ذلك منطقياً على أدنى صبغة لا أخلاقية . . . الخ .

وحتى حينما يكون من حقنا أن نتساءل عما إذا كان الضحك في هذه الحالة أو تلك ذا صبغة خلقية أم لا ، فقد يكون من واجبنا أن نتذكر — كما يقول لالو — أن الضحكة الواحدة قد تكون أخلاقية أو أخلاقية أو عديمة الصبغة الأخلاقية ، بحسب طبيعة الزاوية التي ننظر منها إلى الموقف الفكاهي نفسه . ومعنى هذا أن نسبة القيم قد تحول

(١) يذهب بعض الباحثين إلى أنه من الممكن أن تكون للوسيقى فكاهتها الخاصة (المستلهة عن اللغة) كما أثبتت التجارب التي قام بها مول Mull سنة ١٩٣٩ على ثلاثين طالباً أثناء استماعهم لمقطوعتين : الأولى منهما لنتراوس تحت عنوان Till Eullenspiegel والأخرى لرامو Rameau وعنوانها La Poule

بيننا وبين الحكم على الضحك حكما عاما مطلقا ، خصوصا إذا عرفنا أن للمواضع الاجتماعية والفروق الطبقة والاختلافات الحضارية أثرها الكبير فيما تصدر من أحكام على المواقف الأخلاقية المختلفة .

أما الزعم بأن العقلية الدينية هي وحدها التي تتجه نحو الكوميديا ، كما قال أرسطو ، بدعوى أن الكاتب الهزلي لا يرى من الحياة إلا مسآخرها ومواقفها التافهة وثقائصها الباعثة على السخرية ، فإن أقل ما يمكن أن يقال في الرد عليه إن كتابة المسرحية الهزلية لا تغني بالضرورة افتقار حياة الكاتب إلى الجد ، وانحصار كل وجوده في مواقف الهزل والدعابة والضحك . حقا إن بعض كتاب الكوميديا قد عاشوا حياة مليئة باللهو والعبث والاستهتار ، ولكن كثيرين من بينهم قد عاشوا تعساء أشقياء ، يُضْحِكُونَ الناس وهم يتجرعون في حياتهم انخاسة مرارة الألم ا فليس من الضروري أن يكون الفن نسخة مطابقة للحياة ، وليس ما يمنع أحيانا من أن يكون الكاتب الهزلي نفسه صاحب مزاج سوداوي ا هذا وقد دللتنا التجربة في كثير من الأحيان على أن ازدياد إقبال الأفراد والشعوب على الفكاهة ، قد يقترن بازدياد قسوة المعيشة ، مما يدلنا على أن الضحك قد يكون فنا مبتدعه النفس البشرية لمواجهة ما في حياتها من شدة وقسوة وحرمان . وأخيرا لا يسعنا سوى أن نقرر ما قد يكون للفكاهة من أثر محمود على الإنسانية لو أن شعوب العالم استطاعت أن تربطها بتلك المواقف

الاجتماعية التي ينبجم ما فيها من شرّ عن كوننا نعلق عليها أهمية جدية كبرى (كالغرافات والمحرمات والعصبيات والظنون السيئة ... الخ) . وهكذا قد يصبح الضحك وسيلة فعالة لتحقيق ضرب من « الصحة العقلية » لدى الفرد أو المجتمع ، لو أنه استطاع أن يحمل ذاته العليا *Superego* على أن تكون عن الواقع صورة صافية لا تكدرها وساوس أو عداوات أو تحزّبات أو آراء أخلاقية مُسبّقة أو أفكار اجتماعية مُبتَسرة . ومن يدرى فر بما يأتى اليوم الذى نسخر فيه من حماقات أم بأسرها أشعلت بسخافاتنا نار الحرب العالمية ؟ وعندئذ قد تفعل الفكاهة ما لم تستطع هيئة الأمم أن تفعله ، إذ تصبح أداة سيكولوجية ناجعة لصيانة السلم فى العالم أجمع !

مراجع

لما كان موضوع الفكاهة والضحك لم يَلَقَ عندما من الدراسة
ماهر أهل له ، فإننا ستأتى فيما يلى على ثبت واف بأ كبر عدد ممكن
من المراجع ، حتى يستطيع الباحث الذى يريد أن يوفى الموضوع حقه
من الدراسة والاستقصاء أن يجد بين يديه بعض أدوات البحث . وسنشير
فى ختام قائمة المراجع إلى بعض الرسائل الجامعية (غير المنشورة)
التي عرضت للدراسة مشكلة الضحك ، مما قد يستفيد منه الباحث
الأكاديمى الذى يريد أن يقف على وجهات نظرة سابقه .

١ - المراجع الفرنسية

- 1.—Aubouin (E.): "Technique et Psychologie du Comique.", Paris, 1948.
- 2.—Augier (E.): "Sur le comique"; "Revue du Mois", 1920, vol. XX., pp. 393—407.
- 3.—Baudelaire (Ch.): "Curiosités Esthétiques.", De l'Essence du Rire et généralement du Comique dans les arts plastiques, Calmann—Lévy, Paris, 1884, Tome II.
- 4.—Baudoin (G.): "Tragédie et Comédie", Paris, 1946.
- 5.—Bergson (H.): "Le Rire; Essai sur la signification du Comique", Paris, P. U. F., 67^e éd, 1946.
- 6.—Chapiro (M.): "L'illusion Comique.", Paris, 1941.
- 7.—Delage (Y): "Sur la nature du comique."; art. dans la "Revue du Mois", 1919, vol. XX. pp. 337—354.
- 8.—Dugas (L.): "Psychologie du Rire", Paris, 1902.
- 9.—Dumas (G.): "Le Sourire" (Illustré), Paris. 1902.
10. " " "Nouveau Traité de Psychologie", t. III., 1933.
- 11.—Dupréel (E.): "Le problème sociologique du rire.", In "Revue Philosophique.", 1926.
- 12.—Fabre (S.): "Le Rire et les Rieurs.", Paris, 1929.
- 13.—Jeanson (F.): "Signification Humaine du Rire", Paris, Editions du Seuil, 1950.
- 14.—Jeanlet (L.): "De quoi et pourquoi rit-on; Psychologie du rire.", in "Revue Philosophique", 1944.

- 15.—Lalo (Ch.): «Esthétique du Rire», Flammarion, Paris, 1949.
16. - Pacaud (A.): «Contribution à l'étude du mécanisme du Rire : le Rire réflexe et le rire automatique», Paris, 1928.
- 17.—Pagnol (M.): «Notes sur le Rire», Nagel, Paris, 1947.
- 18.—Paulhan (P.): «Le Sens du Rire», article in «Revue Philosophique», 1931,
- 19.—Penjon (A.): «Le Rire et la Liberté»; in «Revue Philosophique», 1893 (t. II.).
- 20.—Piret (A.): «Recherches génétiques sur le comique» In «Acta Psychologica», 1940, N° 283.
- 21.—Raulin (Dr. M. J.): «Le Rire et les Exhilarants; Etude anatomique, psycho-physiologique et pathologique» (illustré), Paris, 1900.
- 22.—Ribot (Th): «La Psychologie des sentiments», Paris, 1898, X., 4.
- 23.—Saulnier (Cl.): «Le sens du comique», Paris, 1940.
- 24.—Souriau (E.): «La Correspondance des Arts», Paris, Flammarion, 1948.
- 25.—Souriau (E.): «Le Risible et le Comique», in «Journal de Psychologie», 1948.
- 26.—Stern (A.): «Philosophie du rire et des Pleurs», Paris, P.U.F., 1949.
- 27.—Stoetzel (J.): «Sur la nature du rire», article in «Revue Philosophique», 1944.

- 28.—Toulzac (Dr.) : «Rire et pleurs spasmodiques.», Paris, 1901.
29. - Treich (L.) : «L'Esprit Français.», Paris, 1942.
- 30.—Valentine (C.W.): «La Psychologie génétique du rire.»; «Journal de Psychologie», 1936.
- 31.—Voltaire : «Dictionnaire Philosophique.», 1764. Paris, (Art. Esprit et Rire.).

٢ - المراجع الانجليزية والأمريكية

- 32.—Armstrong (M.) : «Laughter», New-York, 1920.
- 33.—Bawden : «The comic as illustrating the summation-Irradiation theory of pleasure and pain», «Psychological Review», 1910., vol. XVII ; pp. 336-347.
- 34.—Burt (C) : «The Psychology of laughter», in «Health Educational Journal», 1945, vol. III., N° 3.
- 35.—Crile (J.W.) : «The origin and nature of the emotions», Philadelphia, Saunders, 1915.
- 36.—Darwin (Ch) : «The Expression of the Emotions in Man and Animals.», N.-Y., Appleton, 1899.
- 37.—Eastman (M.) : «The Sense of Humor.», New-York, Scribner, 1921.
38. Edelberg (L.) : «A contribution to the study of wit», in «Psych.-anal. Rev.», 1945, XXXII, pp. 33-61.
- 39.—Eysenck (H.J.): «Dimensions of Personality.», London, Kegan Paul, 1947.
- 40.—Flugel (J.C.) : «Humor and Laughter», in «Handbook of Social Psychology.», N.-Y., 1954, vol. II.

- 41.—Freud (S.): «Humor», in «International Journal of Psychology», vol IX., January 1908, pp. 1-6.
- 42.—Hayworth (D.): «The origin and function of Laughter», Psych. Rev., 1928., XXXV., pp. 367-384.
- 43.—Hobbes (Th.): «On Human Nature», trad. franç., 1652, IX., 13
- 44.—Kallen (A.): «The aesthetic principle in comedy», in «American Journal of Psychology», 1911, Vol. XXII.
- 45.—Kline: «The psychology of humor», in «American Journal of Psych.», vol XVIII, 1907, pp. 421-441.
- 46.—Kimmins (C.W.): «The Springs of laughter», London, Methuen, 1928.
- 47.—Kris (E.): «Ego development and the Comic», in «Inter. J. Psycho-anal.», 1938., XIX., pp. 77-90.
- 48.—Linds (C) and Ross (J.W.H.): «Humor and its relation to other personality traits», in «Jour. Soc. Psych.», 1933., IV., pp. 156-175.
- 49.—Ludovici (A.): «The Secret of Laughter», London, Constable, 1932.
- 50.—Mac Comas (H.C.): «The Origin of laughter», in «Psych. Rev.», 1923., XXX., pp. 45-55.
- 51.—Mac Dougal (W.): «An Outline of Psychology», London, Methuen 1923., 13th Ed., 1949.
- 52.—Martin (L.J.): «Psychology of Aesthetics: The comic», in «American Journal of Psych.», 1905., vol. XVI., pp. 35-118.
- 53.—Meredith: «An Essay on Comedy», London, 1687.

- 54.—Morrison (J.A.): « A note concerning investigations in audience laughter.»; «Sociometry.», 1940, XXX. pp. 179-185.
- 55.—Murray (H. A.): «The psychology of humour.»; «J. Abnormal Soc. Psych.», 1934, XXIX., pp 66-81.
- 56.—Murray (H.A.): «Explorations in Personality.», New-York, Oxford University Press., 1938.
- 57.—Piddington (R.): «The Psychology of Laughter.», (A study in social adaptation); London, Figurehead, 1933.
- 58.—Rapp (A.): «A phylogenetic theory of wit and humor.», «J. Soc. Psych.», 1949., XXX., pp. 81-96.
- 59.—Stanley Hall and Allin: «The Psych. of laughing, tickling and the comic.»; «Amer. J. Psych.», IX, 1867.
- 60.—Sully (J.): «An Essay on laughter.», London, 1902.
- 61.—Valentine (C.W.): «The Psychology of Early Childhood.», London, Methuen, 1942.
- 62.—Walsh (J. J.): «Laughter and Health.», New-York, 1928.
- 63.—Washburn (R. W.): «A Study of the Smiling and Laughing of Infants.», in «Genet. Psychol. Monogr.», 1926, VI, pp. 405-537.
- 64.—Willmann (J M.): «An Analysis of humor and Laughter.», «Amer. Jour. Psych.», 1940, 53, pp. 70-85.
- 65.—Wolf (H.A.), Smith (C.E.) and Murray (H.A.): «The Psychology of Humor.», Jour. of Abnorm. Soc. Psych., 1934, XXVIII, pp. 345-365.
- 66.—Young (P.T.): «Laughing and weeping, cheerfulness and depression»; in «Jour. of Soc. Psychol.», 1937, VIII, pp. 311-334.

٣ - المراجع الألمانية

67. - Fechner (G. Th.): «Vorschule der Ästhetik», 2 vol., Berlin, 1875.
- 68.—Freud. (S): «Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten.», 1905; 2^e éd., 1912.
69. Groos (K): «Der ästhetische Genuss.», Berlin, 1902.
- 70.—Hecker (E.): «Physiologie und Psychologie des Lachens und des Komischen.», 1873.
- 71.—Heymans: «Zur Psychologie der Komik.», in «Zellschr. f. Psych. und Phys. der Sinnesorgane», 1899.
72. - Kant (I.): «Kritik der Urteilskraft.», Leipzig, 1807, Ed. G. Hartenstein.
- 73.—Kraepelin (A.): «Zur Psychologie des Komischen», in «Philos. Studien», Vol. II., 1885.
- 74.—Jahn (J.): «Das Problem des Komischen in seiner geschichtlichen Entwicklung.», 1904.
- 75 — Jean-Paul (Richter): «Vorschule der Aesthetik.», Berlin, 1804.
76. Lipps (Th.): «Komik und Humor», 1898 & «Psych. der Komik.», in «Philosophische Monatshefte» Vol XXIV.
- 77.—Lotze (H): «Geschichte der Aesthetik in Deutschland.», 1868.
- 78.—Schauer: «Ueber das Wesen der Komik.»; in «Arch. f. die gesamte Psychol.», Vol. XVIII, 1910.
- 79.—Solger (K): «Vorlesungen über Aesthetik.», 1829
- 80.—Vischer (F. Th.): «Ueber das Erhabene und Komische.». 1837.
- 81.—Viacher (F. Th.): «Das Schöne und die Kunst», 1898.
- 82.—Zeising (A.): «Aesthetische Forschungen.», 1855.

٤ — رسائل جامعية

- 83.—Brumbaugh (F.): "Stimuli which cause laughter in Children.", Unpublished doctor's dissertation, New-York University, 1939.
- 84.—Olmosh (R.): "An Experimental Study of Humour.", Unpublished doctoral dissertation, London University, 1939.
- 85.—Oregg (A.). "An Observational study of humor in three year's old.", Unpublished master's thesis, Columbia University, 1928.
- 86.—Hester (Mary St. Clair): "Variations in the sense of humor according to age and mental condition.", Unpublished master's thesis, Columbia University, 1924.
- 87.—Lange (F. E.): "A Statistical Analysis of crowd laughter.", Unpublished master's thesis, Columbia University, 1927.
- 88.—Loos (F. M.): "A Study of the Interrelations of sense of humor with some other personality variables." Unpublished doctoral dissertation, London, 1951.
- 89.—Sears (R. N.): "Dynamic factors in the Psychology of Humour.", Unpublished doctoral dissertation Harvard University, 1934.
- 90.—Williams (J. M.): "An Experimental and Theoretical Study of humour in Children.", Unpublished doctoral dissertation, London University, 1945.

دليل المصطلحات

Aesthetics	علم الجمال	Fantasy	تخيل - أحلام بظنة
Affection	وجدان	Feeling	وجدان
Aggressiveness	عدوان	Form	شكل - صورة - هيئة
Ambivalence	تناقض وجداني	Gallow's humor	لكاهات المشقة
Automatism	آلية	Genetic	تكويني
Catharsis	تطهير ، تطهير	Group-mind	عقل جمعي
Censor	رقب	Guilt	إثم - ذنب
Character	خلق ، طبع	Harmless	بري - غير مفرض
Cognitive	إدراكي - معرفي	Harmony	انجام
Condensation	تكثيف	Hilariousness	قبلة - انصراف
Consciousness	شعور	Humour	فكاهة
Contrast	مقابلة - بيان	Hysteria	هستيريا
Conventions	مواضعات	Id	ال « هو »
Correlation	تضاد - ارتباط	Incongruity	معارضة - تناقض
Culture	ثقافة - حضارة	Inferiority	نقص - دونية
Defense mechanism	آليات الدفاع	Introjection	امتصاص ، استدماج
Depression	هبوط	Introversion	انطواء
Detachment	انفصال	Invention	ابتكار - ابداع
Distraction	غفلة - تلامى	Jealousy	غيرة
Dream	حلم	Judgment	حكم - ملكة الحكم
Ego	الأناني	Laughter	ضحك
Emotion	اعمال	Ladicrous	مضحك
Energy	طاقة	Maladjustment	سوء توافق
Environment	بيئة	Mania	هوس
Equilibrium	توازن	Melancholia	سوداء (ملاغوليا)
Extravert	منبسط	Motive	باعت

National differences	فروق قومية	Tendentious	مفرس
Neurosis	عصاب	Tension	نوتر
Normal	سوى	Tickling	دغدغة
Scatological	إخراجى (متعلق بالفائط)	Trail	سمة
Self-criticism	عقد ذاتى	Type	نمّوذج
Sense of humor	روح الفكاهة	Unconscious	لاشعور
Seriousness	الجديّة	Understanding	فهم
Super-ego	الأنّا الأعلى	Unity	وحدة
Superiority	تفوق — استعلاء	Value	لجنة
Surplus-energy	فائض الطاقة	Valuation	تقييم — تقدير
Sympathy	تماطف — مفاركووجدانية	Vitalism	نزع حيوية
Syntonic	متناهم	Vividness	وضوح — نصوع
System	نظام — لى	Well-being	الفرح — رفاهية
Taboo	(نابو) محرم	Will to laugh	إرادة الضحك
Talion	مبدأ القصاص	Wit	نكتة — دلعة



تطلب مطبوعاتنا في الخارج من
مكتبة الشئ ببقاء
المكتبة التجارية ومكتبة المعارف بيروت
دار الكتب الشرقية بتونس
مكتبة الثقافة بكاء
ومكتبة الفرجاني بطرابلس
مكتبة مصر بالكويت

Bibliotheca Alexandrina



0410518

دار مصر للطباعة
٢٥٠٠ شارع محمد علي، القاهرة